

٩

في غيابة الدخان

أسلوب القرآن الكريم

بكتين

الهداية والإعجاز البياني

كتاب

الدكتور عمر محمد عثمان حاذق



دار القرآن الكريم

مكتبة جامعة القاهرة

أسلوب القرآن الكريم
الهداية والإعجاز البياني

دار القرآن الكريم

أَسْأَلُكَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ
بِسْمِ
الهِدَايَةِ وَالْإِعْجَازِ الْبَيِّنَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فيا عجبنا ز القرآن

أسرار القرآن الكريم

بين
اله داية وإعجابنا البيكاني

تأليف

الدكتور عمر محمد عمر باحازق



دار النشر

ب. ١٩٧١ - بيروت - ص. ١١٢/٩٤٢

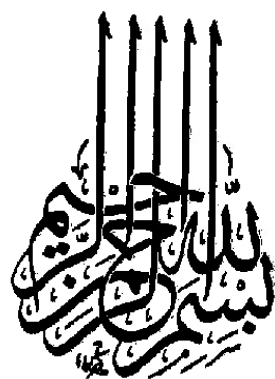
حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

لله هدر

إلى مقام الدنيا العزيز زخاوم الطرمين الشريفين
والله في فخره عبد العزيز آل ياسين
رأى العبد في ذلك حفظه الله وأيده بنصره آمين



المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين . . .
أما بعد :

فها هي ذي أطروحتي بعنوان : « أسلوب القرآن الكريم بين الهداية والإعجاز البياني » .

المتقدم بها ، بعون الله وقوته ، للحصول على درجة الدكتوراه من شعبة « الأدب والنقد » بقسم الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .

وفي الواقع إن كانت البحوث القرآنية قد تعددت جوانبها ، فإننا كل يوم في مزيد ومزيد من تلك الدراسات التي تكشف لنا الحين بعد الحين سرّاً من أسرار هذا الكتاب العظيم ، وتعرب لنا عن قوّة بيانه وروعة إعجازه وسموّ معانيه ، ولاشك في أن الأسلوب القرآني قد شدّ كثيراً من الباحثين حتى كرّسوا جهودهم في الغوص على معانيه ، والوصول إلى ماحوله من حكم وعبر ، حتى زخرت المكتبات بطرائف عدّة حول هذا الأسلوب الذي لايسامى ، وهذا البيان الساحر الذي لايجارى ولا يبارى ، وكان أن تعددت الدراسات حول هذا الأسلوب المعجز وتنوعت مظاهرها ، ولا غرو فلقد استحوذت هذه القضية على قدر كبير من اهتمام العلماء ، وكانت محل عنايتهم منذ الصدر الأول للإسلام ، وكان الدافع القوي وراء ما بذلوه من جهود مباركة يرمون من ورائها إلى تحقيق هدف ديني أصيل جدير بأن يبذل في سبيل تحقيقه

كل جهد ، ذلك أن التسليم بأن القرآن معجز يؤدي إلى التسليم بأنه من عند الله تعالى ، وهذا بدوره يؤدي إلى التسليم بأن كل ماتضمنه حق خالص لاسبيل للباطل إليه ، وأنه الصراط المستقيم ، وحبل الله المتين وأن العصمة في الاستمسك به .

وقد بارك الله جهودهم ، وأجرى الحق على ألسنتهم . وعندما حققوا هدفهم النبيل هذا ، اكتشفوا أنهم قد حققوا بجانبه هدفاً آخر إذ أضافوا إلى الثقافة العربية علماً كاملاً البنيان قوي الدعائم ، وهو علم « البلاغة » ؟

بل أضافوا علوماً متكاملة تقوم أساساً على دراسة هذا القرآن العظيم وأخذت اسم علوم القرآن
إذ من الثابت أن تدوين البلاغة العربية وتطورها واكتمالها إنما تمّ في كنف دراسة الإعجاز القرآني ، ومحاولة الكشف عن خصائصه البيانية التي بوأته هذه القمة المعجزة .

وإذا كان هناك الكثيرون ممن وقفوا حياتهم على دراسة هذه البلاغة المعجزة في كتاب الله قديماً وحديثاً ، فقد كان من الذين بحثوا في هذا المضمار قديماً الإمام ابن قيم الجوزية ، رحمه الله ، في كتابه : (الفوائد المشوق في علوم القرآن وعلم البيان) والإمام بدر الدين الزركشي في كتابه : (البرهان في علوم القرآن) ، والإمام الجلال السيوطي في كتابه : (الاتقان في علوم القرآن) ، وغيرهم .

ومن المحدثين ممن طرق هذا الباب : الشيخ محمد متولي الشعراوي في كتابه : (معجزة القرآن) ، والشيخ محمد أبو زهرة في كتابه : (المعجزة الكبرى في القرآن) ، والشيخ محمد الصادق عرجون في كتابه : (القرآن العظيم هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين) .

إلى غير ذلك من مؤلفات وبحوث حول جوانب الإعجاز في كتاب الله

وفي الواقع أن كل باحث من هؤلاء الباحثين كان له دوره في إجلال معالم هذا المبحث ، وبيان مدى الروعة الكامنة في تضاعيف هذا

الكتاب العظيم .

بيد أن ما شدّ انتباهي وجعلني أكرس جهدي لإعداد هذا السفر هي ظاهرة الإعجاز بالهداية ، إلى جانب الظاهرة الجلية في إعجاز البيان والتي لربما لم تكن محط أنظار كثير ممن تعرّضوا للبحث في هذا الجانب . من هنا فقد كان جهدي منصباً على هذا الجانب ، لكي أثبت أن أروع مظاهر الإعجاز القرآني عامل الهداية المرتبطة بالأسلوب البياني ، فهما لبّ إعجاز القرآن .

إن القرآن العظيم كان مدداً رائقاً لكلّ باحث ومنقّب ، وذخيرة لاتنفذ لكل من ينشد العون والمثالية المطلقة ، فمن معينه يرتوون ومن أفكاره يقتبسون ، ومن هداه يسترشدون ، ومن سحر بيانه وروعة أسلوبه يتأثرون .

هذا وقد حاولت في بحثي أن أسير على المنهج التالي :
تقسيم الرسالة إلى أربعة أبواب ، ويندرج تحت كل باب فصول حسب طبيعة كل باب ، وهي على النحو التالي :

الباب الأول : (الآراء حول قضية الإعجاز في القرآن الكريم) .

الفصل الأول : الأقدمون وقضية الإعجاز .

الفصل الثاني : إعجاز القرآن في آراء المحدثين .

الفصل الثالث : من دراسات المحدثين حول الإعجاز في القرآن .

الباب الثاني : (المنهج القرآني في الهداية والتوجيه) .

الفصل الأول : عنصر الزمان في توجيهات القرآن .

الفصل الثاني : عنصر المكان في الهداية والتوجيه .

الفصل الثالث : الهداية القرآنية بين أسلوب الترهيب والترهيب .

الفصل الرابع : الجانب الأخلاقي في أسلوب القرآن الكريم .

الباب الثالث : (الإعجاز البياني في أسلوب القرآن الكريم) .

الفصل الأول : أسلوب الجدل والحوار .

الفصل الثاني : القسم في أسلوب القرآن .

الفصل الثالث : الأمثال في أسلوب القرآن .

الفصل الرابع : أسلوب القصة في القرآن .
الفصل الخامس : الصور البيانية في أسلوب القرآن الكريم
التشبيه - الاستعارة - الكناية .
الباب الرابع : (الأسلوب القرآني بين حقائق الإعجاز وشبهه
المبطلين) .

الفصل الأول : شبهات حول أسلوب التكرار في القرآن الكريم .
الفصل الثاني : حول أسلوب القصة في القرآن الكريم .
الفصل الثالث : أباطيل القائلين بالإعجاز بالصرفة في أسلوب
القرآن والرد عليهم .

الفصل الرابع : أباطيل القائلين بإمكانية المعارضة في أسلوب
القرآن الكريم مع الرد عليهم ، والمستشرقون والقرآن ، مع الرد عليهم
في افتراءاتهم .

ومع جهدي المتواصل الذي قد أعانني الله عليه والحمد لله ،
ومحاولتي تتبع مواطن الإعجاز في ثنايا هذا الكتاب العزيز ، إلا أنني لا
أنكر ما قدمه لي بعض من سبقوني في الحديث عن جانب الإعجاز في
القرآن من أمثال الشهيد سيد قطب في كتابه القيم : « تفسير الظلال » ،
والشيخ الصادق عرجون في كتابه : « القرآن العظيم هدايته وإعجازه في
أقوال المفسرين » ، فلقد فتحوا لي الطريق ، ومهدوا لي السبيل ،
ويسروا لي بعض الوعر من الطريق حتى أضفت إلى أفكارهم طرائف
عديدة ...

وأحياناً كنت أناقش رأي من سبقني في نقاش جدّي بناء ، كما
حصل في نقاشي مع الدكتور محمد أحمد خلف الله حول التكرار في القصة
القرآنية ، حيث يرى بأن قصة موسى في سورة طه ليست هي في سورة
النمل ، وقصة موسى في سورة طه قصة مستقلة ، وقصته في سورة
النمل قصة مستقلة ، ومن الوجهة الأدبية هذه قصة وتلك أخرى ،
وعلى هذا فلا تكرار ولا اختلاف ولا تشابه .

وقد أثبتت بأن القصة واحدة ، وأنه لا اختلاف في القصص ،

ولاتبين في الألفاظ التي تؤدي إلى تضارب المعاني ، إذ أنه مع هذا الاختلاف اللفظي الذي قد يحدث أحياناً من خلال القصص المكررة ، إلا أن ما تهدف إليه العبارة ، وماتشير إليه متفق تماماً وليس فيه شيء من التعارض الذي يجعل سياق القصة غير متناسق مع القصص التي تحكى في سور أخرى . . .

وما من قضية أثارها غيري من الباحثين ولها صلة بالإعجاز القرآني إلا حاولت ما استطعت أن أناقشها مبدئياً ما أراه من وجهة نظري ، وإن كان ذلك على حساب مخالفة رأي الآخرين . . .

وبعد ، فإني لايسعني إلا أن أتقدم بالشكر لكل من أسهموا في عوني لإتمام هذا البحث ، وأخص بالشكر الدكتور صلاح الدين محمد عبد التواب الذي لم يضمن علي في أي توجيه أو استفسار .

كما أن هذا جهد المقلّ وعمل متواضع ، أسأل الله عز وجل أن يجعله فاتحة خير ، وإنطلاقة نحو العلم النافع والخير العميم ، وأن يجعلني دائماً ممن يتبصرون القرآن ويقفون على شيء من إعجازه . والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل . . .

عمر محمد عمر باحازق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى :

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ
وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا
وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ
مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ لَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾

(الشورى : ٥٢ ، ٥٣) .

تمهيد

إن حديثي عن أسلوب القرآن الكريم سيكون منصّباً على إعجاز الهداية والإعجاز البياني ، ومن ثم يلوح لي أن أوضح هذين الجانبين الهامين لينجلي بهما الموضوع الذي يتحدث عنه هذا السفر . . .

فإذا تعقبنا هذا المعنى في القرآن والسنة ، وكتب اللغة وكتب التراث ، وجدناه يعطينا كثيراً من الملامح التي تفيدنا فيما أردناه من موضوع الهداية والإعجاز البياني في أسلوب القرآن العظيم .

فالقرآن الكريم تحدث عن مادة الهداية في آيات متعددة .

ففي سورة الفتح قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ (سورة الفتح : ٢٨) .

أي : أن الله جلّ وعلا هو الذي أرسل محمداً ﷺ بالهداية التامة الشاملة الكاملة والدين الحقّ المستقيم دين الإسلام .

وفي سورة الجنّ ﴿ وَأَنَّا لَمَسَمْنَا الْهُدَىءَ آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَحْأَفُ بِخَسَاوٍ وَلَا يَرْهَقَا ﴾ (سورة الجنّ : ١٣) .

أي : لما سمعنا القرآن العظيم آمنا به وبمن أنزله ، وصدقنا محمداً ﷺ في رسالته ، فهم يشكرون الله أن منّ عليهم بنعمة الإيمان والاهتداء .

وفي سورة البقرة : ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (سورة البقرة : ٢) .

أي : هاد للمتقين الذين يتقون سخط الله بامتنال أوامره واجتناب نواهيه ، ويدفعون عذابه بطاعته .

وفي سورة الفاتحة : ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (سورة الفاتحة : ٦) .

أي : نطلب الهدى منه تعالى .

وفي سورة الحج : ﴿ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴾ (سورة الحج : ٢٤) .
أي : أرشدوا إلى الكلام الطيب والقول النافع ، إذ ليس في الجنة

لغو ولا كذب .
﴿ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴾ : أي : إلى صراط الله ، وهي الجنة دار المتقين .

وفي سورة الشورى : ﴿ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (سورة الشورى : ٥٢) .
أي : ولكن جعلنا هذا القرآن نوراً وضياء نهدي به عبادنا المتقين ، وإنك يا محمد لترشد إلى دين قيم مستقيم هو الإسلام .

ومن أمثلة ورود هذه الكلمة في السنة :
قوله ﷺ : « الهدي الصالح والسمت الصالح جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة »^(١) .

والهدي : السيرة والهيئة والطريق .
وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه : « إن أحسن الهدي هدي محمد ﷺ » .

أي : أحسن الطريق ، والهداية : الطريقة .
وفي الحديث أن النبي ﷺ قال لعلي : « قل : اللهم اهديني وسدّني ، واذكر بالهدي هدايتك الطريق ، وبالسداد تسديدك السهم »^(٢) .

والمعنى : إذا سألت الله فأخطر بقلبك هداية الطريق ، وسل الله الاستقامة فيه .

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر / للإمام مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري المشهور بابن الأثير - الجزء الخامس / تحقيق محمود محمد الطناحي (٢٥٣) .

(٢) رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار رقم (٧٨) : وأبو داود . خاتم ٤ وأحد في مسنده ٨٨/١ ، ١٣٨ ، ١٥٤ .

وفي الحديث : « واهدوا هدي عمار »^(١) .
أي : سيروا بسيرته ، وتهيؤوا بهيئته .
يقال : هدى هَدي فلان : إذا سار بسيرته .
ومن ورود هذه الكلمة في كتب المعاجم ما ذكره ابن منظور في
اللسان^(٢) .

يقال : هديت له الطريق على معنى بينت له الطريق .
وعليه قوله سبحانه : ﴿ وَهَدَيْتُهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ (البلد : ١٠) .
هديته الطريق : بمعنى عرفته .
وهدى : بمعنى بين .
وقال الأعشى ، وذكر عشاها وأن عصاه تهديه :
إذا كان هادي الفتى في البلا دِ صَدَرَ القَنَاةِ أطاعَ الأمير^(٣)
وقد يكون إنما سَمِيَ العصا هادياً لأنه يمسكها فهي تهديه ، وقد
يكون من الهداية لأنها تدله على الطريق .
وكذلك الدليل يسمى هادياً لأنه يتقدم القوم ويتبعونه .
قال طرفة بن العبد البكري :
للفتى عقلٌ يعيشُ به حيثُ تهدي ساقه قَدْمُهُ
وهكذا من خلال تتبعنا لمعنى الهداية في الكتاب والسنة وكتب
اللغة نجد أن معناها يدور حول « الطريقة ، والسيرة ، والدلالة ،
والبيان » .

والقرآن العظيم كذلك ما هو إلا دليل إلى الطريق القويم ، وبيان
ورشاد للأخذ بالسيرة الحسنة والهيئة الصالحة والسلوك السليم وهذه هي
هداية القرآن .
فإذا ما أردنا أن نعرف ورود هذه الكلمة عند العلماء وما يحمله
معناها عندهم من تعبير :

(١) رواه أحمد في مسنده ٣٩٩/٥ .
(٢) لسان العرب لابن منظور الإفريقي ج ٢٠ / مادة (هدى) .
(٣) ديوان الأعشى ص ٩٥ .

نجد الإمام الباقلاني يقول^(١) : « إن الله تعالى بعث النبي ﷺ وجعل معجزته الكبرى القرآن ، ليقع به الاهتداء ، ولا يكون كذلك إلا وهو حجة ، ولا تكون حجة إن لم تكن معجزة .
قال تعالى : ﴿الرَّكَتَبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (سورة إبراهيم : ١) .
وقال سبحانه : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ (سورة التوبة : ٦) .
فلولا أن سماعه حجة عليه ما كانت إجارته حتى يسمع كلام الله ، ولا يكون حجة إلا وهو معجزة » .
وفي عصرنا الحاضر نجد الشيخ محمداً الصادق عرجون يعقد بحثاً مستقلاً في الهداية ، ويرى أنها مناط إعجاز القرآن .
يقول : « وهناك مرتبة من مراتب التحدي وهداية الإعجاز جاءت نصاً في مناط التحدي ، وبياناً للجهة التي منها أعجز القرآن ويعجز جميع الذين تحداهم ويتحداهم من أبناء البشر قاطبة في كل زمان ومكان من كل جنس وأمة ، وعلى أية درجة من العلم والمعرفة .
هذه الجهة هي التي سما بها كلام الله تعالى إلى ذروة الفضل والإحسان ، فيها سبق فلا يلحق ، وانفرد محلقاً في آفاقها فلا يدرك ، وهي الجهة التي تحقق رسالته وخلودها ، لأنها خالدة بخلوده ، ولاسيما في عالمنا المعاصر الذي فتن بالعلوم التجريبية والمعارف المادية ، وفتن بجولات العقل في ظواهر الطبيعة وبعض حقائق الكون في هذا الكوكب الأرضي الصغير المحدود^(٢) » .
وهكذا نجد أن العلماء في القديم والحديث اتفقوا على أن مناط إعجاز القرآن عنصر الهداية فيه ، والنظم الفريد .
فالباقلااني يقول : « وجعل معجزته الكبرى القرآن ليتم به

(١) إعجاز القرآن للباقلاني الطبعة الثالثة .

(٢) القرآن العظيم هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين - لمحمد الصادق عرجون - طبعة

١٣٨٦ هـ - الناشر : مكتبة الكليات الأزهرية - ص (١٤٦) .

وعرجون يقول : « وهداية الإعجاز جاءت نصاً في مناط التحدي وبياناً للجهة التي منها أعجز القرآن » .

وهكذا نجد الهداية القرآنية هي لب إعجاز القرآن .

وأما عن ورود كلمة الإعجاز - وهي الشق الثاني من التعريف - في القرآن الكريم ، فقد وردت في أكثر من آية .

ففي سورة سبأ قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ (سبأ : ٥) .

أي : وأما الذين بذلوا جهدهم وجدّوا لإبطال القرآن مغالين لرسولنا يظنون أنهم يعجزونه بما يثرونه من شبهات حول رسالته والقرآن ، أولئك لهم عذاب من رجز أليم .

وفي سورة سبأ أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ (سبأ : ٣٨) .

أي : يسعون في الصّدّ عن سبيل الله واتباع آياته ورساله معاندين لنا ، يظنون أنهم يفوتوننا بأنفسهم ، أولئك في العذاب محضرون .
وفي سورة الحج : ﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ (الحج : ٥١) .

أي : كذبوا بآياتنا ، وسعوا في إبطالها مغالين مشاقين يريدون إطفاء نور الله ، أولئك أصحاب الجحيم .

وفي سورة التوبة قوله تعالى : ﴿ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُحْزِي الْكَافِرِينَ ﴾ (التوبة : ٢) .

« واعلموا أنكم غير معجزي الله » : أي : لا تفوتونه تعالى وإن أمهلكم هذه المدة .

وأما عن ورود هذه الكلمة في كتب السنة :

ففي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ﴿ وَلَا تُلْثُوا بِدَارِ مُعْجِزَةٍ ﴾ أي : لا تقيموا في موضع تعجزون فيه عن الكسب .

ومنه الحديث : « كل شيء بقدر حتى العجز والكيس »^(١) .
وقيل : أراد بالعجز : ترك ما يجب فعله بالتسوية ، وهو عام في
أمر الدنيا والدين .
وفي حديث الجنة : « ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس
وعجزهم »^(٢) .
جمع عاجز ، يريد الأغبياء العاجزين في أمور الدنيا .
وأما عن ورودها في كتب اللغة .
يقول ابن منظور في اللسان^(٣) : وأعجزه الشيء : عجز عنه .
والتعجيز : التشييط ، ومعنى الإعجاز : الفوت والسبق .
يقال : أعجزني فلان ، أي : فاتني .
وقال الليث : أعجزني فلان : إذا عجزت عن طلبه وإدراكه ،
والمعجزة : واحدة معجزات الأنبياء عليهم السلام .
وأما صاحب القاموس فيقول^(٤) : وأعجزه الشيء : فاته ،
ومعجزة النبي ﷺ : وما أعجز به الخصم عند التحدي .
فإذا ما انتقلنا إلى بيئة العلماء والأدباء لتتعرف على ما قالوه حول
هذا المعنى ، وما يحمله لديهم من تعبير ، نجد الإمام الباقلاني رحمه الله
يقول : « إنه تحداهم إلى أن يأتوا بمثله ، وقرعهم على ترك الإتيان طول
تلك السنين فلم يأتوا بذلك .
فجعل عجزهم عن الإتيان بمثله دليلاً على أنه منه ، ودليلاً على
وحدانيته »^(٥) .

-
- (١) رواه مسلم في القدر رقم (٢٦٥٥) . وأحمد في مسنده ١١٠/٢ .
(٢) رواه مسلم في كتاب الجنة رقم ٣٥٠ (٢٨٤٦) ، قوله : وعجزهم : بفتح العين
والجيم .
(٣) لسان العرب / لابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري المتوفى ٧١١ هـ -
الجزء السابع / طبعة مصورة عن طبعة بولاق .
(٤) القاموس المحيط / لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي / الجزء الأول
- الطبعة الثانية ١٣٧١ هـ .
(٥) إعجاز القرآن للباقلاني / الطبعة الثالثة / (٦٨) .

ونستمع إلى الإمام عبد القاهر الجرجاني يحدثنا عن هذا الجانب فيقول : « إننا إذا سقنا دليل الإعجاز فقلنا : لولا أنهم حين سمعوا القرآن وحين تحدّوا إلى معارضته سمعوا كلاماً لم يسمعوا قط مثله ، وأنهم قد رازوا أنفسهم فأحسّوا بالعجز على أن يأتوا بما يوازيه أو يدانيه أو يقع قريباً منه . . . إلى أن يقول : فقليل لنا : قد سمعنا ما قلتم ، فخبرونا عنهم عماذا عجزوا ؟ »

فقلنا : أعجزتهم مزايًا ظهرت لهم في نظمه وخصائص صادفوها في سياق لفظه ، وبدائع راعتهم من مبادئ آيه ومقاطعها ، ومجاري ألفاظها ومواقعها ، وفي مضرب كل مثل ، ومساق كل خبر وصورة كل عظة وتنبيه وإعلام ، وتذكير وترغيب وترهيب ، ومع كل حجة وبرهان ، وصفة وتبيان .

وبهرهم أنهم تأملوه سورة سورة ، وعشراً عشراً ، وآية آية ، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها ، ولفظة ينكر شأنها ، أو يرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه أو أخرى وأخلق ، بل وجدوا اتساقاً بهر العقول وأعجز الجمهور ، ونظاماً والتثاماً وإتقاناً وإحكاماً . . . »^(١) . ومن كلام الأدباء والنقاد المحدثين نجد نفس المعنى الذي قاله السابقون يردده هؤلاء ، نجد الدكتور أحمد بدوي يقول :

« وربما كان من شعور الكتاب بالسمو القرآني وعجزهم عن مجاراته . . . وهكذا كان القرآن أمة وحده يوم نزل ، وظل إلى اليوم أمة وحده كذلك .

وإذا كان الكتاب قد حاولوا الاقتداء به ، فلم يكن ذلك إلا المظهر دون الحقيقة ، فظل القرآن فريداً في اللغة بأسلوبه وطريقة عرضه . . . »^(٢) .

وهكذا تجلّى لنا من خلال استعراض آيات الذكر الحكيم ، والسنة

(١) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني - تصحيح محمد رشيد رضا طبعة ١٣٩٨ هـ - دار المعرفة - بيروت ص (٣٢) .

(٢) أسس النقد الأدبي عند العرب - د . أحمد أحمد بدوي - دار نهضة مصر (٦١٠) .

المطهرة ، وكتب المعاجم ، وأقوال العلماء ، أن المعنى الذي يحمله الإعجاز عندهم هو : عدم القدرة ، والفوت ، والتشيط .
وليس القرآن إلا المعجزة الخالدة التي عجز عن مجاراتها جميع المخلوقات وهذا في حد ذاته هو الإعجاز .
كما لاحظت بأن الهداية القرآنية هي جانب من جوانب الإعجاز القرآني .

ولعله من كل ماتقدم يمكن أن نقول : بأننا قد وضعنا أصابعنا على شيء ملموس من ناحية الهداية والإعجاز .
فإذا أدركنا ما يدور حول هذا المعنى سهل علينا بعد ذلك أن ندرك المعنى الذي سوف نتحدث عنه موضوعاً لرسالتنا هذه وهو :
«الأسلوب القرآني بين الهداية والإعجاز البياني» .
وبلوغه الغاية في التعبير وسمو الألفاظ ، ودقة التراكيب ، وصدق العاطفة ، والذروة في الإعجاز . ومجيء هذا الأسلوب المبدع على غير ما مثال سابق وهذا هو الإعجاز . . .

الباب الأول

الآراء حول قضية الإعجاز في القرآن

الفصل الأول

الأقدمون وقضية الإعجاز

الفصل الثاني

إعجاز القرآن في آراء المحدثين

الفصل الثالث

من دراسات المحدثين حول الإعجاز في القرآن

الفصل الأول

الأقدمون وقضية الإعجاز

- ١ - الإمام ابن قيم الجوزية في كتابه :
« الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان »
- ٢ - الإمام الزركشي في كتابه :
« البرهان في علوم القرآن »

الإمام ابن قيم الجوزية ودراسته حول الإعجاز القرآني^(١)

تعريف بالإمام ابن قيم الجوزية :

هو محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعي ،
ولقب قيم الجوزية نسبة إلى المدرسة المسماة بالجوزية التي بناها
محي الدين بن الحافظ بسوق القمح بدمشق وكان مشرفاً عليها .

ولد في السابع من صفر ٦٩١ هـ وتوفي في الثالث عشر من رجب
٧٥١ هـ ، وقد نشأ في بيت علم وفضل ، وأخذ العلم عن كبار علماء
عصره ، ونهل من موارد عذبة في الفقه والأصول والفرائض ، وقد
أربت مؤلفاته على الأربعين .

قال عنه ابن كثير رحمه الله : « كان كثير الصلاة والتلاوة حسن
الخلق ، كثير التودد ، لا يحسد ولا يحقد على أحد ، وكنت من أصحاب
الناس له وأحب الناس إليه » .

وهو تلميذ الإمام الجليل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى
(آمين) .

(١) راجع في الترجمة :

روضة المحبين ونزهة المشتاقين - لابن قيم الجوزية - الطبعة الأولى ١٣٩٣ هـ
- مقدمة الكتاب .

وشذرات الذهب في أخبار من ذهب - لأبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي -
الناشر المكتب التجاري للطباعة - بيروت - (١٦٨/٦) .

ودائرة المعارف الإسلامية - المجلد الأول - الناشر : دار المعرفة بيروت
- (٢٦٨) .

والدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة - لابن حجر العسقلاني تحقيق محمد سيد
جواد المولى - دار الكتب الحديثة - مصر - الجزء الرابع - (٢١) .

وهدية العارفين في أسماء المؤلفين والمصنفين - لإسماعيل باشا البغدادي - المجلد
الثاني - مكتبة المثنى - بيروت ١٩٥٥ م - (١٥٨) .

ابن قيم الجوزية وتناوله لقضية الإعجاز في القرآن الكريم

أخذ ابن القيم رحمه الله أولاً في عرض آراء القائلين بالإعجاز من الأقدمين ، ومن ثم أخذ يتحدث عن أقوال هؤلاء السابقين ، ثم يسوق الاعتراض على بعض هذه الأقوال :

ويقول : فمن العلماء من يرى إعجازه من جهة إيجازه واحتواء لفظه القليل على المعاني الكثيرة من مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولَى الْآلِيبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة : ١٧٩) ، وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَسْنَوْا مَنَّهُ حَكَمُوا بِحَيَاتٍ ﴾ (يوسف : ٨٠) .

وقد اعترض على هذا القول بأنه وجد في السنة وكلام العرب ما لفظه قليل ومعناه كثير من مثل قوله ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات »^(١) .

وقال قوم : إعجازه من جهة حسن تركيبه ، وبديع ترتيب ألفاظه ، وعذوبة مساقها وجزالتها وفخامتها وفصل خطابها .

وقال قوم : إعجازه من غرابة أسلوبه العجيب واتساقه الغريب الذي خرج عن أعاريض النظم وقوانين النثر وأنماط الأراجيز^(٢) .

وقد اعترض على هذا القول من وجوه :

الأول : لو كان الابتداء بالأسلوب معجزاً لكان الابتداء بأسلوب الشعر معجزاً .

الثاني : الابتداء بالأسلوب لا يمنع الغير من الإتيان بمثله .

الثالث : إن الذي تعاطاه مسيلمة من الحماسة في معارضة القرآن على حدّ زعمه كما صنع في الضفدع والفيل هو أسلوب في غاية الركاقة والفظاعة ، وكان مبتدئاً به ولم يعد ذلك إعجازاً بل عدّ سخفاً وحماسة .

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري - لابن حجر العسقلاني - كتاب بدء الوحي - الجزء الأول - المطبعة السلفية - طبعة ١٣٨٠ هـ .

(٢) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن - لابن قيم الجوزية - (٣٧٩) الطبعة الأولى .

الرابع : لما فاضلنا بين قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ ، وبين قولهم : « القتل أنفى للقتل » لم تكن المفاضلة بسبب الوزن ، وإنما تعلق الإعجاز بما ظهرت به الفضيلة^(١) .

وقال قوم : إعجازه بما فيه من المعاني الخفية والجلية وفتون العلوم النقلية والعقلية ، كإخباره عن القرون السالفة في الأزمنة الخالية والأعصر الماضية في الأماكن القاصية والدانية ، وقصص الأنبياء مع أممها مما التمسوه منه مثل قصة أهل الكهف ، وقصة الخضر مع موسى عليهما الصلاة والسلام .

وقد اعترض على هذا القول بأن بعض سور القرآن ليس فيها شيء من ذكر القرون الماضية والأعصر الخالية ، والإعجاز مقرون بكل سورة^(٢) .

(١) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان - لابن قيم الجوزية - (٣٨٠) - الطبعة الأولى .

(٢) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان - لابن قيم الجوزية - (٣٨٢) .
ويعقد الرماني مقارنة بين إيجاز القرآن في قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ ، وبين ما استحسنته العرب في هذا الفن من كلامهم فيقول :
« وقد استحسنت الناس من الإيجاز قولهم : (القتل أنفى للقتل) وبينه وبين لفظ القرآن تفاوت في البلاغة والإيجاز ، وذلك يظهر من أربعة أوجه : إنه أكثر في الفائدة ، وأوجز في العبارة ، وأبعد من الكلفة بتكرير الجملة ، وأحسن تأليفاً بالحروف المتلاثمة .

أما الكثرة في الفائدة ففيه كل ما في قولهم : (القتل أنفى للقتل) وزيادة معان حسنة منها إبانة العدل لذكره القصاص ، ومنها إبانة الغرض المرغوب فيه لذكره للحياة ، ومنها الاستدعاء بالرغبة والرغبة لحكم الله تعالى به .

وأما الإيجاز في العبارة : فإن الذي هو نظير : (القتل أنفى للقتل) قوله : ﴿ الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ والأول أربعة عشر حرفاً ، والثاني عشرة حروف .

وأما بعده عن الكلفة بالتكرير الذي فيه على النفس مشقة ، فإن في قولهم : (القتل أنفى للقتل) تكريراً غيره أبلغ منه ، ومتى كان التكرير كذلك فهو مقصر في باب البلاغة عن أعلى طبقة » .

النكت في إعجاز القرآن - للرماني - (٧٨) - تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام - الطبعة الثالثة .

ومنهم من قال : إعجازه بإخباره بما كان وما يكون مما وقع على حكم ما أخبر به ، مثل قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ (النصر : ١) .

وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ مِنَ الْغَالِبِينَ ﴾ (الروم : ١ ، ٣) .

وقوله تعالى : ﴿ يَخْفَوْنَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يَبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَقُتِلْنَا هَهُنَا ﴾ (آل عمران : ١٥٤) .

وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (المائدة : ٦٧) .

إلى غير ذلك مما كشف به أخبار المارقين ، وأسرار المنافقين ، وكان جميعه كما أخبره وصدق الله ورسوله .

وقد اعترض على هذا القول بأن بعض سور القرآن ليس فيها شيء من الأخبار بالغيبات ، وتلك السور معجزة قد تحداهم الله بالإتيان بمثلها ، فلم يقدرُوا على ذلك ، وضاعت عليهم مع فصاحتهم المسالك^(١) .

ومنهم من قال : إعجازه بما احتوى عليه من العلوم التي لم يسبق إليها أحد من البشر قبل نزوله ولا اهتدت إليه فطن العرب ولا غيرهم من الأمم .

وقد اعترض على هذا القول بأنه قد وجد في السنة ، وكلام العرب مثل هذا ولم يعد معجزة^(٢) .

ومنهم من قال : إعجازه حصل بما فيه من نشاط القلوب الواعية وغير الواعية^(٣) إليه ، وإقبالها بوجه المودة عليه ، واستحلاء طعم عذوبة ألفاظه ومعانيه وهشاشتها بما يتردد عليه من مبشرات المبهجة ومحذرات المزعجة ، ومع ذلك فالقلوب مقبلة على أذكاره ، راغبة في

(١) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن - لابن قيم الجوزية - الطبعة الأولى (٣٨٢) .

(٢) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن - لابن قيم الجوزية - الطبعة الأولى (٣٨٣) .

(٣) نفس المرجع والصفحة .

تكراره ، شجيرة عند سماع ترتيله .

وروي أن نصرانياً مرّ بقارىء ، فوقف يبكي . فقيل له : ممّ بكاؤك ؟ قال : الشجاء والنظم .

وفي الحديث الذي وصف به النبي ﷺ القرآن بأنه « لا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضي عبّره ، ولا تنفنى عجائبه ، هو الفصل ليس بالهزل ، لا تشبع منه العلماء ، ولا ترزغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، وهو الذي لم تلبث الجن حين سمعته أن قالوا : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴾ (الجن : ١) .

وقد اعترض على هذا القول بأنه : قد يوجد في السنة وكلام فصحاء العرب ، وأشعار فحول الشعراء ما يحسن موقعه ، وتشرّب النفوس إليه ولا تملّه على تكراره .

ومنهم من قال : إعجازه : بما يقع في النفوس عند تلاوته من الروعة ، وما يملأ القلوب عند سماعه من الهيبة وما يلحقها من الخشية ، سواء كانت فاهمة لمعانيه ، أو غير فاهمة أو عالمة بما يحتويه . فقد تدلّته به ألباب جماعة من المحسنين ، وقد صبح عن جبير بن مطعم أنه قال : سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور ، فلما بلغ هذه الآية : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ ﴾ (الطور : ٣٥) كاد قلبي أن يطير .

وقد اعترض على هذا القول بأن جماعة من أرباب القلوب وذوي الاستغراق في بديع أوصاف المحبوب حصل له من سماع بعض الأشعار ما أخرجه عن طوره ، وربما مات على فوره^(١) ؟

وقال قوم : إعجازه : حفظ آياته من التبديل ، وصون كلماته من النقل والتحويل ، ولا يستطيع أحد أن يتحيف منه سمطاً ، ولا يزيد شكلاً ولا نقطاً ، ولا يدخل فيه كلمة من غيره ، ولا يخرج منه أخرى ، ولا يبدل حرفاً بحرف ، وكم جهد أهل العناد في ذلك فما قدروا له

(١) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن - لابن قيم الجوزية - (٣٨٣ - ٣٨٤) - الطبعة الأولى .

وما استطاعوا ، وكم قصدوا تحريفه ، فأبى الله ذلك فأذعنوا له وأطاعوا .

روي أن يهودياً تكلم في مجلس المتوكل فأحسن الكلام ، وناظر فعلم أنه من جملة الأعلام ، وناضل فتحققوا أنه مسدد السهام ، فدعاه المتوكل إلى الإسلام فأبى ، بعد أن بذل له المتوكل ضروباً من الإنعام وصنوفاً من الرفعة والإكرام ، فلم يزده ذلك إلا طغياناً وكفراً ، فغاب مدة ثم عاد وهو يعلن إسلامه ، فقال له المتوكل : أسلمت ؟ قال : نعم ، قال : ما سبب إسلامك ؟ قال : نظرت في الأديان ، فأخذت التوراة فنظرت فيها ، وتدبرت معانيها ، وكتبتها بخطي ، وزدت فيها ونقصت ، ودخلت السوق وبعته ، فلم ينكر أحد من اليهود منها شيئاً .

وأخذت الإنجيل وزدت فيه ونقصت ، ودخلت به السوق وبعته فلم ينكر أحد من النصارى منه شيئاً .

وأخذت القرآن وقرأته ، وتأملته فإذا فيه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر : ٩) كتبت وزدت فيه ونقصت ، ودخلت به السوق وبعته ، فنظر فيه المسلمون فعرفوا المواضع التي زدت فيها ونقصت ، وردوا كل كلمة إلى موضعها ، وكل حرف إلى مكانه ، فعلمت أنه الحق ، لتحقيق وصفه بأنه كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . فأمنت به وصدقت ما جاء به ^(١) .

وقال قوم : إعجازه : في خروج الإتيان بمثله عن مقدور البشر .

وقال قوم : صرف الله خلقه عن القدرة عن الإتيان بمثله ، ولولا

ذلك لدخل تحت مقدورهم .

وقد اعترض على هذا القول بوجوه ثلاثة :

الأول : إن عجز العرب عن المعارضة لو كان من أجل أن الله

تعالى عجزهم عنها ، بعد أن كانوا قادرين عليها ، لما كانوا مستعظمين

(١) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن - لابن قيم الجوزية - (٣٨٥) الطبعة الأولى .

لفصاحته ، بل يجب أن يكون تعجبهم من تعذر ذلك عليهم ، بعد أن كان مقدوراً لهم . كما أن نبياً لو قال : معجزتي أني أضع يدي على رأسي هذه الساعة ، ويكون ذلك متعذراً عليكم ، ويكون الأمر كما زعم ، لم يكن تعجب القوم من وضعه يده على رأسه ، بل تعذر ذلك عليهم ، ولما علمنا بالضرورة أن تعجب العرب كان من فصاحة القرآن نفسه بطل القول بالصرف .

الثاني : لو كان كلامهم مقارباً في الفصاحة قبل التحدي لفصاحة القرآن لوجب أن يعارضوه بذلك ، ولكان الفرق بين كلامهم بعد التحدي وكلامهم قبله ، كالفرق بين كلامهم بعد التحدي وبين القرآن ، ولما لم يكن كذلك بطل ذلك .

الثالث : أن نسيان الصيغ المعلومة في مدة يسيرة يدل على زوال العقل ، ومعلوم أن العرب مازالت عقولهم بعد التحدي ، فبطل أن يكون الإعجاز بالصرف بل الإعجاز ليس بالصرف^(١) .

ويسوق ابن القيم مثلاً على الإعجاز في القرآن أقصر سورة فيه ، وهي سورة الكوثر فيقول : إن هذه السورة قد احتوت إحدى وعشرين وجهاً من الإعجاز ، ثمانية في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ ، وثمانية في قوله تعالى : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْخَرْ ﴾ ، وخمسة في قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ شَانِئٌكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ (سورة الكوثر : ١ ، ٣) .

فالثمانية التي في ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ :

- ١ - النعمة العظيمة له ولعقبه من بعده ، فالكوثر هو الكثير من النعمة والخير ، ويدخل في ذلك معنى النهر الصغير .
- ٢ - جمع ضمير المتكلم ، وهو يشعر بعظمة الربوبية .
- ٣ - أنه بنى الفعل على المبتدأ ، فدلّ على خصوصية وتحقيق على ما بينا في باب التقديم والتأخير .
- ٤ - أنه صدر الجملة بحرف التوكيد الجاري مجرى القسم .

(١) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان - للإمام ابن قيم الجوزية - الطبعة الأولى (٣٨٦ - ٣٨٧) .

٥ - أنه أورد الفعل بلفظ الماضي دلالة على أن الكوثر لم يتناول عطاء العاجلة دون الآجلة ، ودلالة على أن المتوقع من عطاء الكريم في حكم الواقع .

٦ - أنه جاء بالكوثر محذوف الموصوف للإيهام والشمول ، والتناول على طريق الاتساع .

٧ - اختيار الصفة المؤذنة بالكثرة .

٨ - أنه أتى بالصفة مصدرية باللام المعروف بالاستغراق ، لتكون شاملة لما يوصف بها ، وكاملة في إعطاء معنى الكثرة .

والثمانية التي في الآية : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ هي :

١ - أن فاء التعقيب المفيدة معنى التسبب ، أفادت جعل الأنعام الكثيرة سبباً إلى شكر المنعم .

٢ - ترك المبالاة بقول العدو ، لأن العاص بن وائل قال : إن محمداً صنبور ، والصنبور هو الذي لاقب له ، وقد شق ذلك على النبي ﷺ .

٣ - قصده بالأمر التعريض بذكر العاص وأشباهه ممن كانت عبادته ونحره لغير الله ، وتشبث النبي ﷺ .

٤ - الإشارة بالصلاة والنحر إلى العبادتين البدنية والمالية ، اللتين كانت إحداهما قرعة عين النبي ﷺ والأخرى موضع همته القوية .

٥ - حذف اللام الأخرى ومجرورها للدلالة الأولى عليها .

٦ - مراعاة حق السجع ، ولكن دون تكلف ، لتطلب المعنى

إياه .

٧ - قول : « لربك » فيه حسنان : وروده على طريق الالتفات ،

وصرف الكلام على لفظ المضمر إلى لفظ المظهر ، وأن فيه إظهاراً لكبرياء شأنه ، وإثباتاً لعز سلطانه .

٨ - أنه علم بهذا أن من حقوق الله التي تعبد العباد بها ، أنه ربه

ومالكهم ، فعرض بترك التماس العطاء من عبد مربوب ترك عبادة ربه .

والخمسـة التي في : ﴿ إن شانتك هو الأبر ﴾ هي :

١ - أنه علل الأمر بالإقبال على شأنه ، وترك الاحتفال بشأنه على سبيل الاستئناف الحسن الموقع .

٢ - ورود الجملة الأخيرة جملة اعتراض مرسلة إرسال الحكمة التي تحكم الأغراض كقوله تعالى : ﴿ إن خير من استأجرت القوي الأمين ﴾ ، وعنى بالشأنىء العاص بن وائل .

٣ - أنه لم يسمه باسمه ليتناول كل من كان في مثل حاله .

٤ - أنه صدر الجملة بحرف التوكيد الجاري مجرى القسم ، وعبر عن خصم النبي ﷺ بالاسم الذي يدل على أنه مغرض غير صادق ولا يريد الحق ، بل نطق بالشنان الذي ينبىء عن الحقد .

٥ - جعل الخبر معرفة وهو الأبر والشأنىء ، حتى كأنه دون غيره الذي يقال له الصنبور .

وهذه السورة على جلالة معانيها ومزاياها خالية من التكلف .
ويبدو من نظمها روح الإعجاز البياني في القرآن الكريم .
هذا ويورد ابن قيم الجوزية وجوهاً من الإعجاز ذكرها بعض العلماء منها :

أن التحدي وقع بالكلام القديم الذي هو صفة قائمة بالذات الإلهية .

وأن العرب إذا تحدوا بالتماس معارضتهم له والإتيان بمثله ، أو مثل بعضه كلّفوا ما لا يطاق ، ومن هذه الجهة وقع عجزهم .
ويعلق ابن القيم بأن هذا القول حسن .

وأقول : إنه يشم منه رائحة الصرفة ، ومن العلماء من قال بل أن إعجازه إنما وقع لكون المتكلم به - أي : الله - عالماً بمراده من كل كلمة وما يليق بها ، وما ينبغي أن يلائمها من الكلام ، وما يناسبها في المعنى ، لا يخفى عنه ماديّ من ذلك وما جلّ ، ولا مصرف كل كلمة ولا مآلها ، وغير الله لا يقدر على ذلك ، لأنه - أي الله - قد أحاط بكل شيء علماً ، وأحصى كل شيء عدداً .

ويعلق ابن القيم على هذا بأنه من الأقوال التي لامطعن عليها .
وأقول : بل يبدو إعجازها لكل ذي ذوق سليم .

تعليق على كلام ابن القيم :
وفي الواقع : أنه إن كان هناك من تعليق على كلام الإمام ابن قيم
الجوزية - رحمه الله - فهو أنه كان عالماً مستقصياً جمع كل ما قيل في
الإعجاز تقريباً حتى زمانه .
مع أنه وقع في التناقض حين رد القول بالصرقة وعلل رده تعليلاً
منطقياً ، ثم قبله حين أوصى المؤمن باعتقاد الإعجاز مهما كان وجه
تعليله حتى إذا كان الصرقة .

أيضاً علق على بعض الوجوه بالاستحسان من عدمه ، وبهذا كان
له رأيه الشخصي مع العلم أنه وهو يذكر وجوه الإعجاز وما يعترض به
عليه كان يشفع ذلك بالأدلة والتعليلات ، وذلك يدل على دقته في
البحث والتأليف .

كما حاول إقناع كل كافر بالحجة ، بعد أن أقنع المؤمن بالحجة ،
وزيادة إقناعه بالاعتماد على إيمانه في أن قدرة الله تنقطع قوى البشر
دونها ، فكيف يستطيعون إذاً معارضة كلام الله تعالى !
كما كان له جهده في إظهار الإعجاز البلاغي في دراسته وجوه
الحسن في أقصر سورة في القرآن ، وهي سورة « الكوثر » فتلك محاولة
تطبيقية رائعة جداً .

الإمام الزركشي ودراسته حول إعجاز القرآن^(١)

تعريف بالزركشي :

هو الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي ، أحد العلماء الأثبات الذين نجموا بمصر في القرن الثامن ، وجهبذ من جهابذة أهل النظر وأرباب الاجتهاد ، وقد كان علماً من أعلام الفقه ، والحديث ، والتفسير ، وأصول الدين .

ولد بمصر المعمورة بمدينة القاهرة المحروسة سنة خمس وأربعين وسبعمائة حينما كانت معمورة بالمدارس ، غاصّة بالفضلاء وحَمَلة العلم ، زاخرة بدور الكتب .

ولم يكد يجاوز سنّ الحداثة حتى انتظم في حلقات الدرس ، وتفقه بمذهب الشافعي ، وشد الرّحال إلى حلب والشام ، ففي حلب أخذ عن الأذرعى الفقه والأصول ، وفي دمشق أخذ عن ابن كثير الحديث ، ثم عاد إلى القاهرة وقد جمع أشتات العلوم مع ذكاء وفطنة وثقافة وألمعية ، فأقله ذلك للتدريس والفتيا .

واجتمع له من المؤلفات في عمره القصير ما لم يجتمع لغيره من أفذاذ الرجال ، وإن كان هذا الفضل لم يعرفه الكثير من الناس إلا بعد وفاته وحين توارت شمس حياته .

كان رضي الخلق ، محمود الخصال ، عذب الشمائل ، متواضعاً رقيقاً ، يلبس الخلق من الثياب ، ويرضى بالقليل من الزاد ، لا يشغله عن العلم شيء من مطالب الدنيا .

(١) راجع في الترجمة : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة - لابن حجر العسقلاني - تحقيق محمد سيد جاد الحق - الجزء الرابع (١٠٧) .
وشذرات الذهب في أخبار من ذهب - لابن العماد الحنبلي - الجزء السادس - (٢٢٤) .

وحسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة - للسيوطي - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - الطبعة الأولى - الجزء الأول (٤٣٧) .

توفي بمصر في رجب سنة أربع وتسعين وسبعمائة ، ودفن بالقرافة
الصغرى بالقرب من تربة بكتمر الساقى يرحمه الله .

..

الإمام الزركشي وتناوله لقضية الإعجاز

وعن الإعجاز يتحدث الإمام الزركشي رحمه الله فيقول : « وهو علم جليل ، عظيم القدر ، لأن نبوة النبي ﷺ معجزتها الباقية القرآن ، وهو يوجب الاهتمام بمعرفة الإعجاز » (١) .

كما أن الإعجاز في هذا الكتاب العظيم موجود حتى في سماعه ، ولذا قال تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ﴾ (التوبة : ٦) .

فلولا أن سماعه حجة عليه لم يقف أمره على سماعه ، ولاتكون حجة إلا وهي معجزة .

وعن الإعجاز بالصرقة ، وهو ماذهب إليه النظام (٢) « وإن الله صرف العرب عن معارضته ، وسلب عقولهم ، وكان في مقدورهم الإتيان بمثله ، فصار كسائر المعجزات » .

ويدفع الزركشي هذا الوجه بقوله : « وهو قول فاسد بدليل قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ (الإسراء : ٨٨) .

فإنه دليل على عجزهم مع بقاء قدرتهم ، ولو سلبوا القدرة لم يبق فائدة لاجتماعهم لمنزلته اجتماع الموتى ، وليس عجز الموتى بكبير يُحتفل بذكره ، هذا مع أن الاجتماع منعقد على إضافة الإعجاز إلى القرآن ، فكيف يكون معجزاً غيره وليس فيه صفة الإعجاز ، بل المعجز هو الله سبحانه ، حيث سلبهم قدرتهم على الإتيان بمثله .

(١) البرهان في علوم القرآن - للزركشي - (٩٠) - الجزء الثاني الطبعة الثانية .

(٢) البرهان في علوم القرآن - للزركشي (٩٣) - الجزء الثاني الطبعة الثانية .

والنظام هو : أبو إسحاق إبراهيم بن سيار النظام رأس المعتزلة في عصره ، وإليه تنسب الفرقة النظامية ، وقد كان باقعة الزمن يقول عنه الجاحظ : « يقولون : في كل ألف سنة يظهر رجل لا نظير له ، فإن كان ذلك صحيحاً فهو أبو إسحاق النظام » .

وأيضاً يلزم من القول بالصرقة فساد آخر ، وهو زوال الإعجاز بزوال زمان التحدي ، وخلو القرآن من الإعجاز ، وفي ذلك خرق لإجماع الأمة ، فإنهم أجمعوا على بقاء معجزة الرسول العظمى ، ولا معجزة له باقية سوى القرآن ، وخلوه من الإعجاز يبطل كونه معجزة^(١) .

ثم يورد رداً للإمام القاضي أبي بكر الباقلاني حيث يقول : « وما يبطل القول بالصرقة أنه لو كانت المعارضة ممكنة - وإنما منع منها الصرقة - لم يكن الكلام معجزاً ، وإنما يكون المنع معجزاً فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره في نفسه »^(٢) .

الوجه الثاني :

الإعجاز بما فيه من تأليف خاص به لا مطلق تأليف ، وهو بأن اعتدلت مفرداته تركيباً وزنة ، وعلت مركباته معنى ، بأن يوقع كل فن في مرتبته العليا في اللفظ والمعنى^(٣) .

الوجه الثالث :

مافيه من إخبار عن الغيوب المستقبلية ، ولم يكن ذلك^(٤) من شأن العرب كقوله تعالى : ﴿ سَبِّحْهُمْ لِمَجْمَعٍ وَيُولُونَ الذُّبُرَ ﴾ (القمر : ٤٥) ، ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ﴾ (الفتح : ٢٧) .
وغير ذلك مما أخبر القرآن بأنه سيقع فوق ، كما أخبر به القرآن الكريم .

ويدفع الزركشي هذا الوجه بأنه يقتضي نفي الإعجاز عن الآيات والسور التي لا تحمل أموراً غيبية ، وهذا باطل ومدفوع إذ كل سورة معجزة

(١) البرهان في علوم القرآن - للزركشي (٩٤) - الجزء الثاني الطبعة الثانية .

(٢) إعجاز القرآن للقاضي أبي بكر الباقلاني (٣٠) - الطبعة الثالثة - تحقيق سيد صقر - دار المعارف بمصر .

(٣) البرهان في علوم القرآن - للزركشي (٩٥) - الجزء الثاني الطبعة الثانية - وقد اختار هذا الوجه الإمام الزمكاني .

(٤) البرهان في علوم القرآن - للزركشي (٩٥) - الجزء الثاني الطبعة الثانية .

بعينها^(١) .

الوجه الرابع :

ما تضمنته من إخبار عن قصص الأولين وسائر المتقدمين حكاية من شاهدها وحضرها ، كما قال تعالى : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَذِيبَةَ لِلْمُنْفِقِينَ ﴾ (هود : ٤٩) .

الوجه الخامس :

إخباره عما استكن في الضمائر مما لا يعلمه سوى علام الغيوب من غير أن يظهر ذلك من أصحابه بقول أو فعل ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصَلَوْنَهَا فَيُئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ (المجادلة : ٨) .

الوجه السادس :

إن إعجازه بنظمه وصحة معانيه وتوالي فصاحة ألفاظه^(٢) .

الوجه السابع :

إن وجه الإعجاز الفصاحة وغرابة الأسلوب والسلامة من جميع العيوب ، وغير ذلك مقترناً بالتحدي^(٣) .

الوجه الثامن :

إعجازه بما فيه من نظم وتأليف وترصيف ، وأنه^(٤) خارج عن وجوه النظم المعتاد في كلام العرب ، ومباين لأساليب خطابتهم . وهذا هو الذي ذهب إليه القاضي^(٥) أبو بكر الباقلاني في إعجاز

(١) البرهان في علوم القرآن - للزركشي (٩٦) .

(٢) البرهان - للزركشي (٩٧) .

(٣) نفس المرجع (٩٨) .

(٤) البرهان في علوم القرآن - للإمام الزركشي (٩٨) - الجزء الثاني - الطبعة الثانية .

(٥) القاضي أبو بكر الباقلاني هو أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم =

القرآن ، ولذا لم يمكنهم معارضته .

الوجه التاسع :

أن إعجازه باعتبار أنه شيء لا يمكن التعبير عنه .
وهذا ما ذهب إليه السكاكي في كتابه « مفتاح العلوم » : « ومدرك الإعجاز عندي هو الذوق ليس إلا ، وطريق اكتساب الذوق طول خدمة هذين العلمين : (المعاني والبيان) . نعم للبلاغة وجوه متلثمة ربما تيسر إمطة اللثام عنها ، أما نفس وجه الإعجاز فلا »^(١) .

الوجه العاشر :

إن الإعجاز فيه من حيث استمرت الفصاحة البلاغة فيه من جميع أنحائها في جميعه استمراراً لا توجد له فترة ، ولا يقدر عليه أحد من البشر ، وكلام العرب ومن تكلم بلغتهم لاتستمر الفصاحة والبلاغة بجميع أنحائها في العالي منه إلا في الشيء اليسير المحدود ، ثم تعرض الفترات الإنسانية فتقطع طيب الكلام ورونقه ، فلا تستمر لذلك الفصاحة في جميعه ، بل توجد في تفاريق وأجزاء منه^(٢) .
وهو ما ذهب إليه حازم القرطاجني في « منهاج البلغاء »^(٣) .

= المعروف بالباقلاني ، ولد بالبصرة وتلقى العلم على يد علماء البصرة وبغداد ، توفي سنة ٤٠٤ هـ ببغداد رحمه الله ودفن بقرب قبر الإمام أحمد بن حنبل ، ونقش على شاهد تربته ما نصه : « هذا قبر القاضي الإمام السعيد فخر الأمة ، ولسان الملة ، وسيف السنة ، وعماد الدين ناصر الإسلام ، أبي بكر : محمد بن الطيب البصري ، قدس الله روحه ، وألحقه بنبيه محمد ﷺ » .

(١) مفتاح العلوم - للإمام السكاكي - وهو أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي المتوفى سنة ٦٢٦ هـ .

(٢) البرهان في علوم القرآن - للإمام الزركشي - الجزء الثاني - الطبعة الثانية (١٠١) .

(٣) منهاج البلغاء للإمام القرطاجني ، وهو أبو الحسن حازم بن محمد القرطاجني شيخ البلاغة والأدب في عصره ، وأوحد زمانه في النظم والنثر والنحو واللغة والعروض والبيان - توفي سنة ٦٨٤ هـ .

الوجه الحادي عشر :

إن وجه الإعجاز فيه هو من جهة البلاغة^(١) .
ثم صنيعه بالقلوب ، وتأثيره في النفوس ، فإنك لاتسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا منشوراً إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال ، ومن الروعة والمهابة في حال أخرى ما يخلص منه إليه ، قال تعالى : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الحشر : ٢١) .

ولهذا أسلم جبير بن مطعم لما سمع قراءة النبي ﷺ للطور حتى انتهى إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴾ (الطور : ٧) ، قال : خشيت أن يدركني العذاب^(٢) .

الوجه الثاني عشر :

أن الإعجاز بجميع ما تقدم^(٣) ..
ومن هذه الروعة التي له في قلوب السامعين وأسماعهم سواء المقرين والجاحدين .

ومنه أنه لم يزل غضاً طرياً في أسماع السامعين وعلى ألسنة القارئ .
ومنه جمعه بين صفتي الجزالة والعذوبة .
ومنه جعله آخر الكتب غنياً عن غيره ، وجعل غيره من الكتب المتقدمة قد يحتاج إلى بيان يرجع فيه إليه كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (النمل : ٧٦) .

تعليق على الإمام الزركشي في الإعجاز :

هذا ونحن ، إذا تأملنا ما أورده الإمام الزركشي - رحمه الله - في الإعجاز نجده وقد نقل لنا خلاصة ما قيل في هذا الباب من أقوال الأئمة

(١) البرهان - للزركشي (١٠١) .

(٢) سيرة النبي - ﷺ - لابن هشام - تحقيق : محمد عبي الدين عبد الحميد .

(٣) البرهان في علوم القرآن / للإمام الزركشي - الجزء الثاني الطبعة الثانية - (١٠٦) ، (١٠٧) .

السابقين ، في الوقت الذي لم يفته فيه أن يبدي وجهة نظره التي رآها متمثلة في مجموع مآقاله الأئمة السابقون .

إن الإعجاز وقع بجميع ماسبق من الأقوال ، لا بكل واحد على انفراده ، فإنه جمع كل تلك الوجوه فلا معنى لنسبته إلى واحد منها بمفرده ، مع اشتماله على الجميع بل وغير ذلك مما لم يسبق إليه

فليس للزركشي رأي خاص إذن في الإعجاز ، لكن المهم أنه يعتقد بإمكان وجود وجوه للإعجاز ، لم تقل حتى في عهده ، فكأنه يؤمن بنظرية الإعجاز العلمي والتي ظهرت أخيراً في عصرنا الحاضر .

الفصل الثاني

إعجاز القرآن في آراء المحدثين

١ - الإمام الشهيد سيّد قطب

٢ - الشيخ محمد متولي الشعراوي

سيد قطب

ولد سيد قطب سنة ١٩٠٦ م في قرية موشا من قرى محافظة أسيوط لأب ميسور الحال ، وكان أبوه محباً للعلم ، من هنا فقد سارع إلى إلحاق ابنه بالتعليم ، فأظهر الابن تفوقاً واضحاً رغم صغر سنه حيث حفظ القرآن وهو في العاشرة من عمره ، سافر إلى القاهرة والتحق بدار العلوم وتخرج فيها .

اتصل بالعقاد وأعجب بآرائه الفكرية ، كما تأثر بأفكار الشيخ محمد رشيد رضا من الناحية الدينية ، وأشدّ ما أثر في نفسه مقتل الإمام حسن البنا ، والضجيج والفرحة للذان أحدثهما خبر وفاته لدى الغرب ، فالتحق بجماعة الإخوان المسلمين ، وبقي فيها حتى جرى اعتقاله عام ١٩٥٤ م بقي في السجن حتى عام ١٩٦٥ م . خرج بعدها ليمضي ستة أشهر خارج جدران السجن ليعود اعتقاله من جديد حيث تنتهي رحلته مع السجن بالإعدام ليموت شهيداً رحمه الله

بلغت مؤلفاته رحمه الله حوالي العشرين ، ولعل من أنفسها كتابه القيم في التفسير المسمى : « في ظلال القرآن »^(١) .

(١) راجع في الترجمة كتاب : « سيد قطب - خلاصة حياته ، منهجه في الحركة ، النقد الموجه إليه » ، لمحمد توفيق بركات - دار الدعوة - بيروت - لبنان .

سيد قطب ورأيه في الإعجاز

وسيد قطب يرى الإعجاز في القرآن قائماً على الإبداع في العرض والجمال في التنسيق ، والقوة في الأداء ، والجمال في التصوير يفسره بعد ذلك فيقول : « هذا الجمال الفني الخالص عنصر مستقل بجوهره ، خالد في القرآن بذاته ، يتملاه الفن في عزلة عن جميع الملابس والأغراض . وإن هذا الجمال ليلملي وحده فيغنى ، وينظر في تساوقه مع الأغراض الدينية فيرتفع في التقدير » .

أيضاً يرى من مظاهر الإعجاز : المشاهد القرآنية وأنها مشاهد حية نابضة تكاد تكون ناطقة يقول في هذا الصدد : « إنها مشاهد حية منتزعة من عامل الأحياء ، لا ألوان مجردة ، ولا خطوط جامدة ، مشاهد تقاس فيها الأبعاد والمسافات بالمشاعر والوجدانات ، والخواطر والخلجات ، وترسم المواقف وهي تتفاعل في نفوس آدمية حية ، أو في شخوص من الطبيعة تخلع عليها الحياة »^(١) .

أيضاً من سمات الإعجاز الأخرى أن مثل هذه المشاهد حاضرة تراها العين وتحسها النفس يقول : « إنها حاضرة اليوم تراها العين ، وتحسها النفس ، والفارق السحيق بين العالمين فارق قريب ، بل لافارق هناك في بعض الأحيان ، بل ربما كانت الأخرى هي الحاضرة وكانت الدنيا ماضياً بعيداً يتذكره المتذكرون .

تلك سمة تحيي هذه المشاهد في النفس ، وتقوي أثرها في الحس ، وتحقق بوسائل شتى نستعرض بعضها على سبيل الإجمال .

مرة يبدأ في قصة تقع في الدنيا ، ثم يتابع الحديث ، فإذا نحن في الآخرة : هذا فرعون يؤم قومه في الحياة الدنيا ، ثم يستمر الشوط حتى يؤمهم إلى النار : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۝٤١﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَأَتْبَعُوا آمَرَ فِرْعَوْنَ وَمَا آمَرَ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ۝٤٢﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

(١) مشاهد القيامة في القرآن : سيد قطب . الطبعة السابعة (٤٣) .

فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَتَسَّ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ (هود : ٩٦ ، ٩٨) .

ومرة يزوج بين مشاهد الدنيا ومشاهد الآخرة ، ويسوقهما سوقاً واحداً كأنهما حاضران في الزمان يتبادلان التقديم والتأخير : ﴿ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ۖ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ۖ وَإِذَا الْجِبَالُ سُفَّتْ ۖ وَإِذَا الرَّسُلُ أَقْنَتْ ۖ لَأَنَّى يَوْمٍ أُخِلَّتْ ۖ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ۖ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ۖ وَلِلَّيْلِ يَوْمٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۖ أَلَمْ تَهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ۖ ثُمَّ نُنْعِمُهُمُ الْآخِرِينَ ۖ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ۖ وَلِلَّيْلِ يَوْمٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۖ أَلَمْ تَخْلُقْهُمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ ۖ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ۖ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ ۖ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَدِيرُونَ ۖ وَلِلَّيْلِ يَوْمٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۖ (المرسلات : ٨ ، ٢٤) .

ومرة يتحدث عن الدنيا كأنها ماض كان ، وعن الآخرة كأنها الحاضر الآن : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتُحْتِ أُنُوبُهَا ۖ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ۖ (الزمر : ٧١) .

وهكذا تلتقي هذه الألوان من التعبير عند سمة واحدة هي استحضار المشهد وإحيائه ، كأنما هو مشهود محسوس ، وذلك بلا ريب أعظم تأثيراً في النفوس .

أما السمة الثالثة فهي : سمة التناسق والترابط بين مختلف الجزئيات في المشهد مع الجرس في الألفاظ والاتساق في السياق . . . يقول : « وهو تناسق يتجلى في جزئيات المشهد ، فتبدي هذه الجزئيات منسقة بين بعضها البعض لونا من التماثل أو التشابه أو التداعي أو التقابل ، ولكنها من جوّ واحد لانشور فيه ولا مفارقات ، ويتجلى ثانية في جرس الألفاظ ليدل هذا الجرس على صورة معناه في بعض الأحيان ، وليؤلف مع بقية الألفاظ إيقاعاً يناسب جو المشهد في جميع الأحيان .

فإذا الموسيقى المصاحبة للمشهد تكمل جوه ، وتناسب أحاسيسه وتشارك مع الألفاظ في تصوير الغرض العام .

ويتجلى ثالثة في اتساق المشهد كله بألفاظه ومعانيه وجرسه وإيقاعه مع السياق الذي يعرض فيه ، سواء جاء تعقيباً ، أو مقدمة لبرهان ، أو تأكيداً

لقضية أو تثبيتاً لإيمان . . . ومشاهد القيامة في القرآن كلها مسوقة لأداء الغرض الديني ، ذلك الغرض الأول للقرآن ، ولكنها تتصل بالوجدان الديني عن طريق الوجدان الفني . . .» (١)

كما يرى سيد قطب أن الطريقة المفضلة التي اتبعها القرآن في معظم أسلوبه هي طريقة التصوير وكفى ، وهي مظهر هام من مظاهر إعجازه يقول : « التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن ، فهو يعبر بالصورة المحسنة المتخيلة عن المعنى الذهني ، والحالة النفسية ، وعن الحادث المحسوس والمشهد المنظور ، وعن النموذج الإنساني ، والطبيعة البشرية ، ثم يرتقى بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة ، أو الحركة المتجددة ، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة ، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد ، وإذا النموذج الإنساني شاخص حي ، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية .

فأما الحوادث والمشاهد والقصص والمناظر فيوردها شاخصة حاضرة ، فيها الحياة ، وفيها الحركة ، فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كل العناصر ، فما يكاد يبدأ العرض حتى يجيل المستمعين إلى نظارة . . . حيث تتوالى المناظر وتتجدد الحركات .

هذه القضية لدى كل ما يؤكد من الإحصاء الدقيق لنصوص القرآن ، فالقصة ، ومشاهد القيامة ، والنماذج الإنسانية ، والمنطق الوجداني في القرآن ، مضافاً إليها تصوير الحالات النفسية وتشخيص المعاني الذهنية ، وتمثيل بعض الوقائع التي عاصرت الدعوة المحمدية . . . تؤلف على التقريب أكثر من ثلاثة أرباع القرآن من ناحية الكم ، وكلها تستخدم طريقة التصوير في التعبير ، فلا يستثنى من هذه الطريقة إلا مواضع التشريع ، وبعض مواضع الجدل ، وقليل من الأغراض الأخرى التي تقتضي طريقة التقرير الذهني المجرد ، وهي على كل حال محصورة فيما يوازي ربع القرآن ، فليس هناك من شطط حين أقول : « إن التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن » ، وطريقة التصوير هي أجمل طرائق

(١) مشاهد القيامة في القرآن - سيد قطب (٤٧) .

التعبير وأفضلها في الفن والدين .

إنها تصل إلى النفس من منافذ شتى ، من الحواس بالتخييل والإيقاع ، ومن الحس عن طريق الحواس ، ومن الوجدان المنفعل بالأصغاء والأضواء ، ويكون الذهن منفذاً واحداً من منافذها الكثيرة إلى النفس لا منفذاً للفرد الوحيد .

ولهذه الطريقة فضلها ولاشك في أداء الدعوة لكل عقيدة ، ولكننا إنما ننظر إليها هنا من الوجهة الفنية البحتة ، وإن لها من هذه الوجهة لشأناً ، فوظيفة الفن إثارة الانفعالات الوجدانية وإشاعة اللذة الفنية بهذه الإثارة ، وإجاشة الحياة الكامنة بهذه الانفعالات ، وتغذية الخيال بالصور لتحقيق هذا جميعه . . . وكل أولئك تكفله طريقة التصوير والتشخيص للفن الجميل^(١) .

وأيضاً يرى سيد قطب : أن من نواحي الإعجاز القرآني قضية التكرار في أكثر قصصه ، يقول : « لقد كان أول أثر لهذا الخضوع أن ترد القصة الواحدة - في معظم الحالات - مكررة في مواضع شتى ، ولكن هذا التكرار لا يتناول القصة كلها - غالباً - إنما هو تكرار لبعض حلقاتها ، ومعظمه إشارات سريعة لموضع العبرة فيها ، أما جسم القصة كله فلا يكرر إلا نادراً ، ولمناسبات خاصة في السياق .

وحين يقرأ الإنسان هذه الحلقات المكررة ملاحظاً السياق الذي وردت فيه يجدها مناسبة لهذا السياق تماماً . . .

ثم يقول : وفي كل تكرار صورة تختلف اختلافاً يسيراً أو كبيراً وتنفى وهم التكرار بلا قصد إلى التكرار . وإن يكن للتكرار غرضه في صدد الدعوة ، ولكنه مع هذا يسير مع الجمال الفني بالتنويع الدقيق الملحوظ . . .^(٢) .

كما يرى الإعجاز في أساليب الأداء ، وفي المنهج والذات التي حوّاها هذا السفر الخالد ، والتي شملت الحياة الاجتماعية والاقتصادية

(١) مشاهد القيامة في القرآن - سيد قطب (٧ - ٨) الطبعة السابعة .

(٢) التصوير الفني في القرآن - سيد قطب (١٣٠) - الطبعة الثامنة .

والسياسية وتنظيم شؤون الحياة .

« أما الإعجاز القرآني فيتجلى في أن هذه التوجيهات ، وهذه الأسس التي جاء بها القرآن لكي ينشئ الجماعة المسلمة الأولى ، هي هي ، ما تزال التوجيهات والأسس الضرورية لقيام الجماعة المسلمة في كل زمان ومكان ، وأن المعركة التي خاضها القرآن ضد أعدائها هي ذاتها المعركة التي يمكن أن يخوضها في كل زمان ومكان ، لابل إن أعداءها التقليديين الذين كان يواجههم القرآن ويواجه دسائسهم وكيدهم ومكرهم ، هم هم ، ووسائلهم هي هي ، تغير أشكالها بتغير الملابسات ، وتبقى حقيقتها وطبيعتها ، وتحتاج الأمة المسلمة في كفاحها وتوقها إلى توجيهات هذا القرآن حاجة الجماعة المسلمة الأولى ، كما تحتاج في بناء صورتها الصحيح وإدراك موقفها من الكون والناس إلى ذات النصوص والتوجيهات ، وتجدها فيها معالم طريقها واضحة ، كما لا تجدها في أي مصدر آخر من مصادر المعرفة والتوجيه . ويظل القرآن كتاب هذه الأمة العامل في حياتها ، وقائدها الحقيقي في طريقها الواقعي ، ودستورها الشامل الكامل الذي تستمد منه منهج الحياة ، ونظام المجتمع ، وقواعد التعامل الدولي ، والسلوك الأخلاقي والعملي .

وهذا هو الإعجاز ... » (١)

والملاحظ أن سيد قطب في هذا الكلام الأخير يشير إلى هذا الإعجاز القرآني الذي لم يخل بجانب إعجازه في البيان من الإعجاز في الهداية والتوجيه والإرشاد .

(١) تفسير [في ظلال القرآن] - سيد قطب - الجزء الأول (١٢٤) .

الجانب التطبيقي في دراسة سيد قطب للإعجاز البياني في القرآن الكريم

هذا وبحنكة الرائد الخبير يتناول سيد قطب جوانب الجمال والإعجاز
في السور القرآنية .
ففي قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾ (ق : ٣٠) .

وبهذا السؤال والجواب يفتح المجال للخيال لتصوير المشهد من وراء
الحوار ، وتحيل الصورة من وراء الظلال ، هذه هي الأجسام تقذف إلى
جهنم ، وقد فتحت أفواهاها ، حتى إذا توالى القذف وتكدّس الوقود ، قيل
لها : هل امتلأت ؟ وقد نالت ما يحقق لها الامتلاء ، ولكنها قد التهمت ما
ألقي فيها التهاماً ، وإنما لتتحرق وتتلمظ إلى وقود جديد « هل من
مزيد ؟ » . .

وحينما تشهد الجموع هذا المنظر الرهيب ، يكون على الجانب
الآخر ، الجنة مقربة مهياة للمتقين ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ ،
وهم يلقون التكريم الأدبي بجانب النعيم الحسي فيسمعون من الملائكة الأعلى :
﴿ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ ﴿٣٢﴾ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴿٣٣﴾
ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ (ق : ٣٢ ،
٣٥) .

إنه لمشهد رهيب مهيب ، فيه الصورة ، وفيه الحركة ، والمشاهد تتابع
محسوسة مجسمة ، والحوار يزيدها حياة وحرارة ، ويمتد الحوار إلى جهنم ،
ليتم التناسق في التعبير والتصوير من جميع الأطراف .

وإنه لمشهد مؤثر في الوجدان ، مثير للمشاعر والخيال ، يؤدي غرضه
الديني في سر ، ثم ينطلق إلى عالم الفن الطليق ، لاتحده قيود الغرض
المحدود ، فلغة الجمال الفني تستطيع أن تخاطب الوجدان الديني ،

ولاتعارض بينهما في تصوير القرآن «(١)» .

ومشهد ثان :

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ (٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾
يَقُولُ أَهْتَكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَهَذَا مِنَّنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَهَذَا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنَسَمُ
مُظْلِمُونَ ﴿٥٤﴾ فَأَطْلَعَ قَرَاءَهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدْتَ لَتُرْدِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ
رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَبِيتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ
بِمُعْذِبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِيُمِثِلَ هَذَا فليَعْمَلِ الْعَمِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَلِكَ خَيْرٌ
نَزَلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ
الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رِئُوسُ الشَّيْطَانِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَا كُفُونَ مِنْهَا فَمَا لَكُم مِّنْهَا
الْبُظُونُ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ
الْفُؤَاءُ أَبَاءُ فَرَضَالِينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَرِهِمْ يَهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ (الصافات : ٥٠ ، ٧٠) .

ونحن أمام مشهد (٢) من المشاهد المطولة المتعددة الجوانب ، المتنوعة
الأساليب ، المزدهجة بالمناظر الحية المتحركة ، والحركات المتتابعة ، يلتقي
فيها الوصف بالحوار ، ففسير على نسق الحكاية فترة ، ثم تنتقل إلى نسق
الحوار أخرى ، ويتخلل سير الحوادث والمناظر تعليقات على كل منها ، هي
أشبه شيء بتعليق المعلقين في ساحات الاستعراض على مايقع فيها ،
ويستحق الالتفات الخاص ، وبذلك كله يستكمل المشهد كل سمات
الحياة ، وقد جاء هذا الاستعراض طويلاً رداً على جماعة يقولون : ﴿ أئذا
متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون ﴾ * أو أبأؤنا الأولون ؟ ﴿ ، وكان الرد :
نعم : ﴿ قل نعم وأنتم داخرون ﴾ (٣) .

(١) مشاهد القيامة في القرآن - سيد قطب (٩١) الطبعة السابعة . وقد جاء في كلامه في
وصف هذا المشهد بأنه (مشهد تمثيلي سينمائي) ونحن ننأى بالقرآن أن يخضع لمثل
تلك المصطلحات ، ولعل له بعض العذر أنه يتحدث بلغة الفن في العصر
الحديث .

(٢) مشاهد القيامة في القرآن - سيد قطب - الطبعة السابعة (١٥٥) .

(٣) الآيات من سورة الصافات من (١٦ - ١٨) .

ومشهد ثالث :

وقال تعالى : ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَيَلْسَنُ الْمَصِيدُ ﴾ (٦) إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتُمْ خَزَنَتَهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَأَعْرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ (الملك : ٦ ، ١٢) .

التشخيص طريقة^(١) من طرق التصوير ترد الصورة حية وتمنح الجوامد والخواطر شخصية آدمية أوقع في الحس وأجل في النفس ، وجهنم في هذا المشهد حية متحركة يلقي إليها الذين كفروا كما يلقيون إلى الغول ، فتلقاهم بشهيق وهي تفور ، يملأ نفسها الغيظ حتى لتكاد جوانبها تنفجر من الحقد .

إنه مشهد مروع تضطرب له القلوب ، وتقشعر لهوله الجلود ، وبينما هم في فزع من هذه الغول التي تتميز من الغيظ وهي تتلفهم بشهيق وهي تفور ، نسمع خزنتها وحرسها يتلقون كل فوج مدفوع بسؤال واحد مكرور ، فكلهم ذوو شأن واحد مكرور : ﴿ ألم يأتكم نذير ؟ ﴾ والجواب في ذل الاعتراف وخجل الانكسار : ﴿ بلى ! قد جاءنا نذير فكذبنا ﴾ ، بل تبجحنا في الإنكار ﴿ وقُلْنَا : ما نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴾ أيها الرسل ونحن على هدى مبين ! .

ثم تطرد موجة الاعتراف والانخزال ، فإذا بهم ينفون عن أنفسهم السمع والعقل : ﴿ وقالوا : لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير ﴾ فما يذهب الإنسان إلى السعير إلا وقد فقد السمع الذي يستمع إلى الهدى ، وفقد العقل الذي يقود إلى الحق ﴿ فاعترفوا بذنبهم فسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ .

« إن الأداء القرآني يمتاز بالتعبير عن قضايا ومدلولات ضخمة في حيز

(١) مشاهد القيامة في القرآن - سيد قطب - الطبعة السابعة (٢٠٨) .

يستحيل على البشر أن يعبروا فيه عن مثل هذه الأغراض ، وذلك بأوسع مدلول وأدق تعبير ، وأجمله وأحياء أيضاً ! مع التناسق العجبي بين المدلول والعبارة والإيقاع والظلال والجو .

ومع جمال التعبير نجد دقة الدلالة في آن واحد ، بحيث لا يغني لفظ عن لفظ في موضعه ، وبحيث لا يجوز الجمال على الدقة ولا الدقة على الجمال ، ويبلغ من ذلك كله مستوى لا يدرك إعجازه أحد ، كما يدرك ذلك من يزاولون فن التعبير فعلاً ، لأن هؤلاء هم الذين يدركون حدود الطاقة البشرية في هذا المجال ، ومن ثم يتبينون بوضوح أن هذا المستوى فوق الطاقة البشرية قطعاً»^(١) .

نعم لقد تكلم سيد قطب في كثير من المناسبات في تفسيره «الظلال» ، وفي كتابيه : «التصوير الفني في القرآن» ، «ومشاهد القيامة في القرآن» تكلم عن الإعجاز وتحدث عن ملامح الجمال والإبداع في النصوص القرآنية ، ولكنه لم يكن حديثه عن الإعجاز إلا ضمناً ، حيث كان يلحّ على هذه السمات ، وأنها من أبرز ملامح النص القرآني ، كالجمال في الأداء والدقة في التعبير والتناسق في الجزئيات والتصوير ، وهو الذي كان يراه الحصن الحصين في جمال وروعة التعبير ، ولذا عقد لهذا المبحث كتابه : «التصوير الفني في القرآن» .

تعليق على ما ارتآه سيد قطب في الإعجاز :

وبذا نستطيع أن نقول من خلال استقراءنا لما كتبه سيد قطب : إنه كان يرى الإعجاز في التصوير القرآني الذي لم يسبق له مثيل والذي يبرز كظاهرة واضحة في أسلوب القرآن بشكل عام وفي التعبير عن مشاهد الدنيا والآخرة بوجه خاص ، حيث المشاهد القرآنية المتحركة والمائلة أمام العيان تراها العين ، وتتمثلها الأذهان شاهدة مع التناسق في الجزئيات .

كما يرى الإعجاز في التكرار القصصي للقرآن .

كما يرى الإعجاز في الأداء المعبر والتشريحات التي حوّاها القرآن

(١) في ظلال القرآن - سيد قطب - الجزء الثالث - الطبعة العاشرة - (١٧٨٧) .

حتى كان الدستور الخالد المنظم لشؤون الحياة . . .
ومن هنا يتضح لنا جلياً أن الإمام سيد قطب في تناوله لقضية الإعجاز
القرآني . . . قد حرص على أن يركز على جانبين في هذا الإعجاز العظيم ،
هما جانب الإعجاز البياني في أسلوب القرآن الكريم ، وجانب الإعجاز في
الهداية والإرشاد .

وهما لب إعجاز القرآن وثمرته .
أخيراً ومن خلال العرض المستفيض لنظرية الإعجاز في آراء السابقين
واللاحقين لاحظنا العديد من النظرات التي تظهر عظمة هذا الكتاب
الخالد .

كما رأينا أن هناك نظريات قد استجذت لم تكن معروفة من قبل ،
كنظرية الإعجاز العلمي ، والنظرة إلى الأمور العلمية وما فيها من قدرة
كونية تدل على وحدانية الخالق وإعجاز القرآن الباهر كما نحس مدى
التركيز على الأمور الغيبية كظاهرة إعجازية فريدة تستلزم اليقين والتصديق
بقدره الواجد المبدع . . .

علاوة على أنه قد نجم الكثير من العلماء المحدثين الذين أشبعوا
ظاهرة الإعجاز في القرآن بحثاً واستقراء واستقصاء بأسلوب مسهب بديع
لا يخلو من التذليل ، فذخرت المكتبات بجم غفير من هذه البحوث في خدمة
كتاب الله العزيز وكانت نوراً على نور . . .

تعريف بالشيخ محمد متولي الشعراوي

هو الشيخ محمد متولي الشعراوي أحد العلماء الأفاضل الذين نجحوا بمصر في القرن الرابع عشر .

ولد سنة ١٩١١م بقرية دقادوس من محافظة الدقهلية ، وهذه القرية تعد الآن جزءاً من مدينة ميت غمر من الناحية الشرقية .

درس في الأزهر وتخرج من كلية اللغة العربية ١٩٤٦ م

عمل مدرساً بالأزهر ، ثم أعير إلى جامعة أم القرى بمكة .

وظل يتنقل في مختلف المناصب طيلة حياته حتى أسندت إليه وزارة الأوقاف ، فعمل بها وزيراً في مصر مدة وجيزة ، ثم تفرغ للتدريس وإلقاء المحاضرات والدعوة إلى الله .

ولا يزال شيخنا أمدته الله بالعمر الطويل يتمتع بصحة وافرة حتى يومنا هذا ومستمراً في أداء رسالته .

الشيخ محمد متولي الشعراوي ورأيه في الإعجاز

إذا ما أمعنا النظر في الإعجاز لدى الشيخ محمد متولي الشعراوي نجد أنه ينظر إلى الإعجاز من عدة زوايا :
فهو يرى الإعجاز في القرآن من حيث تمزيقه لحواجز الغيب الثلاث :
حاجز الماضي ، والمكان ، والمستقبل .

حاجز الماضي في إخباره عن أمور حدثت في الماضي ، وهي في ضمن المغيبات لأنها غير مشاهدة للسامعين ، فكونها تتحدث عن الزمن الماضي وتحكي ما حدث فيها بأحاديث هي الحقائق الدامغة ، والتي تعدّ حجة على أهل الكتب السابقة ، لما فيه من تصحيح لما حرّف وبدل منها .

وكان سيدنا رسول الله ﷺ يتحدّى أحبار اليهود ورهبان النصارى ويقول لهم : هذا القرآن هو من عند الله ، وهو يصحح لكم ما بدّلتم وما حرّفتُم في الكتب السماوية المنزلة .

الأمر الثاني : تمزيقه لحاجز المكان في إخباره عن أدق أسرار النفس الإنسانية وما يعتمل في خباياها ، وما تضرع في داخلها ، وكأنه يقول لهؤلاء المخاطبين : إني أحدثكم عما يدور في أنفسكم ، ولا يستطيع أي بشر أن يحدثكم عما يدور بداخلك إلا إذا كان يطلع على هذا بوحى من اللطيف الخبير ، وهذا لا يتأتى إلا من نبي .

ثم نجد هؤلاء المخاطبين يقرون ويسلمون بما يخبرهم به القرآن ، وكانهم يؤكدون صدقه ويسلمون له بما يقول .

فالقرآن هنا لا يقول لهم : لقد هتكت حاجز الماضي ، وأخبرتكم بأنباء الأولين ، ولا يقول لهم : سأهتك حاجز المكان وأخبركم بما يدور في بقعة قريبة لاترونها ، بل يقول : سأهتك حاجز النفس وأخبركم بما في أنفسكم ، بما في داخل صدوركم . . . بما لم تهمس به شفاهكم ، فهل هناك أكثر من هذا تحدّياً . . . لحجاب المكان ؟ . . . إنه تحدّ فوق قدرة كل الاختراعات البشرية التي وصل إليها العلم الآن لاختراق حجب المكان . . .

بل إن التحدي ظهر فيما يحرص غير المؤمنين على خفائه ، فالإنسان حين يحرص على إخفاء شيء ، ويكون غير مؤمن به ، يأتي إليك فيحلف لك بأن هذا صحيح ، وهو غير صحيح في نفسه فقط ، ولكن حرصه في أن يخفيه على الناس يجعله يؤكد أنه صحيح بالحلف .

ويأتي القرآن فيمزق ما يعتمل بداخل نفوس هؤلاء ويظهر ما فيها إمعاناً في التحدي ، ويقول سبحانه : ﴿ وَمَن يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (التوبة : ٤٢) .

ويقول سبحانه : ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ ليرضوا عنهم فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ (التوبة : ٩٦) .

وهكذا جاء القرآن لأناس غير مؤمنين ، وهتك حاجز النفس بالنسبة لهم ، فأخرج ما في صدورهم ، وعراهم أمام الناس جميعاً وفضح كذبهم ، ونشر على الدنيا كلها ما في صدورهم من كذب ورياء ونفاق ، أي : أهانهم أمام المجتمع كله^(١) .

وأما الحاجز الثالث : فهو حاجز المستقبل . لقد أخبرنا القرآن في أدق تفاصيل عما يمكن أن يحدث في المستقبل في أحداث قريبة الوقوع ، وبعضها بعيد الوقوع .

فما الذي حمّله على ذلك إلا أنه تنزيل من حكيم حميد عالم بالسر وأخفى ، لقد حدثنا القرآن عن غزوة بدر بادر بواقف تفاصيلها ، وعن انتصار المسلمين فيها وهم قلة على المشركين وهم كثرة .

والمسلمون في مكة لم يهاجروا بعد إلى المدينة ، وكانوا مغلوبين على أمرهم بين مغالب كفار قريش ، فإذا بالقرآن يفاجئنا فيقول : ﴿ سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ﴾ (القمر : ٤٥) .

حتى إن سيدنا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال : « أي جمع هذا الذي سيهزم ونحن لانستطيع أن نحمي أنفسنا » .
ليس ذلك فحسب .

(١) المنتخب من تفسير القرآن - للشيخ محمد متولي الشعراوي - الجزء الأول (١٦ - ١٧) الناشر : دار النصر - بيروت .

بل حتى إن بعض الكفرة المعاندين أشار القرآن إلى حضورهم المعركة وأنهم سيقتلون وحدد مصارعهم وموقع الضربة أين ستكون .
هذا الوليد بن المغيرة يقول القرآن عنه : ﴿ سَنَسِيئُهُ عَلَى الْأَثَلِطُورِ ﴾ (القلم : ١٦) ويخرج أنفه يوم بدر ويبقى أثر الجرح فيه بقية عمره .
من الذي يستطيع أن يحدد موقع الضربة ، ومكانها ، ومن الذي يستطيع أن يحزم ماذا سيحدث بعد ساعة واحدة ، فضلاً عن معركة تحدث بعد زمن ، وتكون من المعارك الفاصلة في التاريخ الإسلامي ، وتحدد أبعاد عقيدة واتجاه رسالة ومصير أمة .
إن الذي قال هذا هو القادر العالم بأن ذلك سيحدث يقيناً وهو الله سبحانه وتعالى .

ويرى الشيخ الشعراوي أن للقرآن ثلاث مزايا امتاز بها على سائر الكتب المنزلة وعلى سائر المعجزات ، هذه المزايا :
أولاً : أن معجزة القرآن معجزة عقلية باقية خالدة .
لماذا ؟ لأنها معجزة للعالم وليست خاصة بأمة من الأمم أو جنس من الأجناس ، فهي باقية ببقاء الحياة وهذه الدار .
ومن هنا فإن العالم لا يفتأ يجد فيها ما يسدّ نهمة ويشبع جوعته في شتى آفاق الحياة ، فهي مأدبة الله في الأرض ، فتعلّموا من مأدبته . . .
أما باقي معجزات الأنبياء فهي معجزات حسية مادية تنتهي بمجرد انتهاء عرضها .

خذ معجزة سيدنا موسى عليه السلام وهي العصا : ﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ (الأعراف : ١٠٧ والشعراء : ٣٢) ، واليد : ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ﴾ (الأعراف : ١٠٨ والشعراء : ٣٣) .
إن معجزات موسى عليه السلام ، وهي كثيرة جداً أثبتت صدق موسى عليه السلام في رسالته ، لأن قومه قد برعوا في السحر ، فجاءهم بأمر خارق للعادة وهو العصا التي انقلبت حية ، فإذا هي تلقف ما يأفكون ، فإذا بالأمر خارج عن نطاق السحر ، وإذا به يفوقهم في جنس ما برعوا فيه وليس منه . . . من هنا خر السحرة ساجدين : ﴿ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ

سَجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿ (الشعراء : ٤٦ ، ٤٨) .

إنها معجزة كونية حسية جاءت فأثبتت صدق موسى عليه السلام فيما جاء به ، ومن رآها فقد آمن بها ، ومن لم يرها صارت عنده خبراً إن شاء صدقه وإن شاء لم يصدقه ، ولو لم يحدثنا القرآن عنها لكان من الممكن أن يقال فيها ما يقال !!

وهكذا نجد أن المعجزة الحسية تقع مرة واحدة ، ومن رآها فقد صدّقها ، ومن لم يرها فقد أصبحت لديه خبراً بعد ذلك .

الأمر الثاني : المعجزة القرآنية منهج ودستور ، ففي الوقت الذي جاء فيه القرآن كمعجزة لرسول الله ﷺ دالة على صدقه فيما جاء به من عند الله سبحانه ، وجاءت من جنس ما برع فيه قومه الذي برعوا في صناعة الكلام ، ومع ذلك أقروا بالعجز وظلّوا مبهورين أمام بلاغة هذا القول وإعجازه .

ثم نجد المعجزة القرآنية هي نفس المنهج والدستور ، وظلت المعجزة محفوظة ببقاء المنهج ، والمنهج قد تكفل الله بحفظه فقال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر : ٩) .

وهكذا اكتسبت هذه المعجزة الحفظ والخلود ، واكتسبت هذه الأمة تساويها في تمثل المعجزة منذ بزوغ فجر الرسالة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

أما معجزات بقية الأنبياء فإن المعجزة منفصلة عن المنهج ، فمعجزة سيدنا موسى عليه السلام العصا واليد ، ومنهجه التوراة .

ومعجزة سيدنا عيسى عليه السلام الطب ، فكان يرى الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله سبحانه ، ومع ذلك فمنهجه هو الإنجيل . وهكذا كل نبي نجد معجزته مباينة لمنهجه ، إلا المعجزة الكبرى :

القرآن ، فإن المنهج هو المعجزة .

أما الأمر الثالث : فإن معجزة النبي ﷺ صفة من صفات رب العزة والجلال ، وهي صفة الكلام ، والصفة باقية ببقاء الموصوف وهو عظيم الجاه .

وبقية المعجزات أفعال للمولى ، وفعل المولى من الممكن أن ينتهي بعد أن يفعله المولى سبحانه ، كالبحر الذي انشق لموسى عليه السلام ثم عاد إلى طبيعته الأولى ، والنار التي لم تحرق الخليل عليه السلام ، ولكنها عادت إلى خاصيتها من الإحراق بعد ذلك .

كذلك يرى الشيخ محمد متولي الشعراوي من مظاهر الإعجاز القرآني مطابقته لما توصل إليه العلم في العصر الحديث من نظريات وبحوث واكتشافات . . . وأن ماجاء في القرآن الكريم من أخبار غيبية بدأت تتجلى وتظهر آثارها بدقة في إنجازات العلم وبحوثه في العصر الحديث ، وأن هناك حقائق كونية لم تكن معروفة من قبل ، جاء القرآن متحدثاً عنها من قبل أربعة عشر قرناً من الزمان لتظهر آثارها جلية في العصر الحديث .

الجانب التطبيقي لدى الشيخ الشعراوي

وبعد أن حدّد الشيخ محمد الشعراوي مظاهر الإعجاز القرآنية نراه يطبق مثل هذه المعالم في تفسير آيات الذكر الحكيم فيما يتعلّق بصدق أخباره عن أحداث المستقبل القريب أو البعيد ، قال تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۚ ^(١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ^(٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ^(٣) وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ^(٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۚ ﴾ (المسد : ١ ، ٥) .

هذا قرآن ، وفي من ؟ في عم الرسول ﷺ ، وفي من ؟ في عدو الإسلام . ألم يكن أبو لهب يستطيع أن يحارب الإسلام بهذه الآية ، ألم يكن يستطيع أن يستخدمها كسلاح ضدّ القرآن ، ضدّ هذا الدين ؟ قالت له الآية : يا أبا لهب ، أنت ستموت كافراً ، ستموت مشركاً ، وستعذب في النار ، وكان يكفي أن يذهب أبو لهب إلى أية جماعة من المسلمين ويقول : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، يقولها نفاقاً ، ويقولها رياء ، يقولها ثم يقف وسط القوم يقول : إن محمداً قد أنبأكم أنني سأموت كافراً ، وقال : إن هذا كلام مبلغ له من الله ، وأنا أعلن إسلامي لأثبت لكم أن محمداً كاذب . لو كان أبو لهب يملك ذرة واحدة من الذكاء لفعل هذا ، ولكن حتى هذا التفكير لم يجرؤ عقل أبي لهب على الوصول إليه ، بل بقي كافراً مشركاً ، ومات وهو كافر ، ولم يكن التنبؤ بأن أبا لهب سيموت كافراً ، أمراً ممكناً ، لأن كثيراً من المشركين اهتدوا إلى الإسلام كخالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص وعمر بن الخطاب وغيرهم رضوان الله عليهم ، كانوا مشركين وأسلموا ، فكيف أمكن التنبؤ بأن أبا لهب بالذات لن يسلم ولو نفاقاً ، وسيموت وهو كافر ، المعجزة هنا أن القرآن قد أخبر بما سيقع من عدوّ ، واتّحداه في أمر اختياري ، كان من الممكن أن يقوله ، ومع ذلك هناك يقين أن ذلك لن يحدث ، لماذا ؟ لأن الذي قال هذا القرآن يعلم أنه لن يأتي إلى عقل أبي لهب تفكير يكذب به

القرآن ، هل هناك إعجاز أكثر من هذا ؟! ^(١) .

أوليس هذا الإعجاز القرآني يدفع إلى أن يستمسك الناس بهذا الحبل المتين ويخرون للأذقان سجداً وهم خاشعون خاضعون لله رب العالمين ؟
أما من حيث الحقائق التي أثبتتها الكشوف العلمية اليوم والتي تحدث عنها القرآن ، فعلم الأجنة علم تكوين الجنين في بطن أمه ، هل تناول أحد هذه المسألة قبل القرآن أو عصر القرآن أو بعده بفترة ؟ أبداً ، أول من تحدث عنها هو القرآن وأعطاني ما هو غائب عني .

لأن خلقي هو غيبٌ عني ، فكون الله سبحانه وتعالى يأتي في قرآنه ويعطيني مراحل تكوين الجنين ، فهذه آية من آيات عظمته وقدرته وعلمه ، يقول الله سبحانه في أطوار الجنين : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴾ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿ ١٣ ﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿ ١٤ ﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿ ١٥ ﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿ (سورة المؤمنون : ١٢ ، ١٦) .

وقال تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخْلَقَةٍ وَغَيْرِ مُخْلَقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرَّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُؤَفِّقُ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرْدِّ إِلَىٰ أَذَلِّ الْأَعْمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ

(١) المنتخب من تفسير القرآن للشيخ محمد متولي الشعراوي - الجزء الأول (١٩ - ٢٠)
الناشر: دار النصر - بيروت .

مات أبو لهب أثناء غزوة بدر الكبرى في مكة أصيب بمرض العدسة (الجديري)
فقضى عليه ودفن في جرجول ، وكان قد انتدب من يحضر الغزوة بدلاً عنه .
وأما امرأته أم جميل حالة الخطب فهي أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان
صخر بن حرب رضي الله عنه حتى أنه في مداعبة بين معاوية وعقيل بن أبي طالب
رضي الله عنهما جرت ، يقول معاوية للمجلس : هذا عقيل وعمه أبو لهب ، فرد
عليه عقيل : وهذا معاوية وعمته حالة الخطب .

شَوْ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾ (الحج: ٥، ٧) .

وعلم الأجنة ما عرفه الناس إلا حديثاً ، والقرآن كما قلت كلام متعبد بتلاوته لا تبديل فيه ولا تغيير ، أي إن القضية التي يذكرها ستبقى كما هي إلى آخر الدنيا ، فعندما يأتي القرآن ويخبر بهذا فكأنه يتحدث العلم والعلماء إلى يوم القيامة يقول لهم : هذا هو تكوين الجنين في بطن أمه ، وأنا أذكره لكم وأذكر مراحل بتفصيل لم يشهده أحد من البشر حتى ساعة نزول هذا القرآن ولا حتى بعد نزوله بمئات السنين ، ولكنني أسجله لتعلموا عندما أعطاكم من العلم ما تستطيعون به معرفة أطوار الجنين لتعلموا أن القائل هو الخالق ، لأنه لا يمكن لأحد أن يقول هذا الكلام ، وأن يتحدث بصحته على مر العصور ، وأن يخترق الحجب ليروي شيئاً لم تكن البشرية تعرفه أو تعلم به ، إلا أن يكون ذلك هو الله ، وإلا فكيف يأمن أي إنسان ، أي بشر مهما بلغ من العلم ، كيف يأمن أنه بعد عشرات السنين أو مئات السنين ، لن يأتي ما يناقض هذا الحديث وما ثبت عدم صحته ؟!

فإذا لم يكن الحديث هنا من الله ، وإذا لم يكن عن يقين كامل ، فكأن القرآن قد أعطى معه وسيلة هدمه . كان يكفي أن يقول أي إنسان : إن القرآن يقول هذا عن أطوار الجنين ، وقد أثبت التقدم العلمي أنه غير صحيح ، كان يكفي أن يقال هذا ليهدم قضية الدين من أساسه ، ويكون القرآن قد أعطى الكفار أقوى سلاح يهدمونه به .

فالذي كشف علم الأجنة متأكداً تماماً أن ما يقوله هو الحق ، وأن تطور العلم مهما جاء فإنه لن يأتي ليناقض هذا الكلام ، وقد أثبتت أحدث البحوث عن الجنين صحة ما ذكره القرآن منذ أربعة عشر قرناً ، ولم يختلف عنه في أي تفصيل من التفاصيل رغم أن هذا كان أمراً غيبياً وأمراً لم يتحدث عنه أي إنسان قبل أن يأتي القرآن . . . (١)

كذلك يقول تعالى : ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا أَلْهَمَ اللَّهُ لَهُمْ قُلُوبًا غَلِيظَةً﴾ ﴿١﴾ غَلِيظَةُ الرُّؤْمِ ﴿٢﴾ فِي آدَانِ الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِهِ عَلَيْهِمْ سَكِينٌ ﴿٣﴾ فِي يَضِجُ سِينٌ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلِ وَمِنْ بَعْدِ

(١) المنتخب من تفسير القرآن - للشعراوي - الجزء الأول (٢٩) .

وَيَوْمَئِذٍ يَقَرُّحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ يَنْصُرِ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٢﴾ (الروم : ١-٥) ويتحقق ما أخبر به الله .
وتمضي آيات القرآن تمعن في التحدي فتقول : ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم : ٦) .

ما هذا ؟ أيستطيع محمد ﷺ أن يتنبأ بنتيجة معركة ستحدث بين الروم والفرس بعد بضع سنين ؟ هل يستطيع قائد عسكري مهما بلغت قوته وعبقريته ونبوغه أن يتنبأ بمصير معركة عسكرية بعد ساعة واحدة من قيامها ؟ فما بالك أن ذلك يأتي ويقول : إنه بعد بضع سنين ستحدث معركة بين الفرس والروم وينتصر فيها الروم .

هل أمن محمد ﷺ على نفسه أن يعيش بضع سنين ليشهد هذه المعركة ، ولقد وصل الأمر بأبي بكر - رضي الله عنه - أن راهن على صحة ما جاء به القرآن .

إذاً فقد أصبحت قضية إيمانية كبرى ، هذا هو القرآن
كلام الله ، وأساس الإيمان كله ، يأتي ويخبر بحقيقة أرضية قريبة ستحدث لغير العرب ، ويقول الكفار : إن القرآن كاذب ، فيقول المؤمنون : إن هذا صدق ويحدث رهان بين الاثنين .

ماذا كان يمكن أن يحدث لو أنه لم تحدث معركة بين الروم والفرس ، أو لو أنه حدثت معركة وهزم فيها الروم ؟ أكان بعد ذلك يصدق أي إنسان القرآن ، أو يؤمن بالدين الجديد ، ثم إذا كان القرآن من عند محمد ﷺ فما الذي يجعله يدخل في قضية غيبية كهذه لم يطلب منه أحد الدخول فيها أیضیع الدين من أجل مخاطرة لم يطلبها أحد ولم يتحده فيها إنسان .

ولكن المتكلم هو الله والفاعل هو الله ، ومن هنا كان هذا الأمر الذي نزل في القرآن يقيناً سيحدث ، لأن قائله ليس عنده حجاب الزمان وحجاب المكان ، ولا أي حجاب ، وهو الذي يقول مايفعل ، ومن هنا حدثت الحرب وانتصر الروم على الفرس فعلاً كما أخبر الله تعالى ^(١)
أوليس في هذا الإخبار الصادق الذي انطلقت به آيات الله المحكمات

(١) المنتخب من تفسير القرآن - للشيخ الشعراوي . الجزء الأول : (٢٠ - ٢١) .

ما يشير في النفوس بواعث الإيمان واليقين بصدق هذا الذكر الحكيم وصدق قائله ، ثم بصدق المؤيد به وهو محمد ﷺ ليكون هداية ورحمة للعالمين ؟ وفي موقف آخر يقول تعالى : ﴿ كَلَّمَ نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلَّتْهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ (النساء : ٥٦) .

هذه الآية عن الكفار يوم القيامة ، والهدف منها هو أن يقول الله عز وجل : إن العذاب سيستمر في الآخرة ، وكانوا يقولون إن مراكز الإحساس موجودة في المخ ، وأن الجلد ليس فيه مراكز إحساس ، كان هذا هو الحديث حتى فترة وجيزة ، أما أثناء نزول القرآن فلم يكن أحد يعرف شيئاً عن ذلك على الإطلاق ، فيأتي الله سبحانه وتعالى ويقول : ﴿ كَلَّمَ نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلَّتْهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾ .

فكان العذاب له صلة بالجلد ، والإحساس بالعذاب يأتي من الجلد ، ثم يكتشف العلم أخيراً أن مراكز الإحساس بالآلم^(١) موجودة فعلاً في الجلد ، وهي التي تحسّ العذاب .

ويقول تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (النحل : ٧٨) .
 كأن وسائل الإدراك تعطيني ، أنا خرجت من بطن أمي لا أعلم شيئاً ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة يبقى كم وسائل العلم ؟ ثلاثة الحواس المركزة في أمهات الحواس التي هي السمع والبصر (وبعدين)^(٢)

(١) المنتخب من تفسير القرآن الكريم - للشيخ محمد متولي الشعراوي الجزء الأول (٣٠) الناشر : دار النصر بيروت لبنان .

(٢) (وبعدين) مثل هذه الكلمة وغيرها من الكلمات العامة التي جاءت عرضاً في كلام الشيخ الشعراوي أثناء حديثه عن إعجاز القرآن ، كان أولى بها أن تكتب نصيحة في الكتاب الذي تحدث عن الإعجاز نقلاً عن الشيخ الشعراوي ، وهو كتاب « المنتخب من تفسير القرآن الكريم » . وواضح أن الشيخ الشعراوي كان يلجأ أحياناً إلى مثل هذه الكلمات العامة لتوضيح مراده لبعض جمهور العامة الذي كان يشارك في حضور هذه المحاضرات عن القرآن وإعجازه .

وكان ينبغي أن يقال بدلاً من كلمة (وبعدين) كلمة (ثم) وكذا كلمة (يبقى لازم فيه) فيما يأتي من كلام ونصيحه (إذن لا بد أن تكون هناك) وهكذا .. =

الأفئدة التي تفقه المعاني والترتيب هكذا ترتيب طبيعي دائماً .
 كأن الله سبحانه أخرجنا من بطون أمهاتنا لنعلم شيئاً ، ثم جعل لنا
 السمع يعني الله يمتن بأنه أخرجنا لنعلم شيئاً ثم علمنا ، لم يقل ثم
 علمتم ، جاء بأدوات العلم ﴿ وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة
 لعلكم تشكرون ﴾ ماذا نشكر ؟

إذن لابد أن تكون هناك نعمة حصلت بهذه الوسائل ، وهي نعمة
 العلم ، وإذن فكان الحق يقول : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم
 لاتعلمون شيئاً ﴾ ، ثم علمكم بأن خلق لكم وسائل العلم متطورة مع
 أعماركم العقلية ، فمرة يكون علمكم من السماع ، ومرة يكون علمكم
 بالرؤية ، ومرة يكون علمكم بالاستنباط من المسموع فتستتجون منه
 معلوماتكم ، فلعل هذا يجعلكم حين تعرفون هذه المعلومات بتلك الوسائل
 تشكرون الله ، لأن الشكر لا يكون إلا عن وجود نعمة .

والحق سبحانه وتعالى حينما تكلم عن وسائل العلم قال : السمع
 والبصر والفؤاد . . .

وقلنا : هذا كلام منطقي مع علم وظائف الأعضاء ، . لأنهم أثبتوا
 لنا حاسة السمع هي أول حاسة تؤدي مهمتها في الإنسان عندما تأتي للوليد
 الصغير وتجعل أصبعك أمام عينه لا يطفرف ، لأنه لم ير شيئاً ويبقى على ذلك
 ثلاثة أيام ، ثم تؤدي مهمتها ، لكنك لو صرخت بجانبه صرخة ينفعل ،
 فمعنى ذلك أن الأذن أدت مهمتها قبل العين ، ففي الآية إذن ترتيب منطقي
 أن يكون السمع والبصر هذا باستمرار في القرآن كله السمع والبصر ، بهذا
 النظام ، وأيضاً فإن السمع هو الوسيلة الأولى لتلقي العلم حتى المرئي لك
 بالعين ، أنت لاتقرأ إلا إذا تعلمت فن القراءة فتعلم أن هذا (ألف) وهذا
 (ياء) . . . إذا فلا بد قبل أن تقرأ بعينك أن تسمع ، وإن لم تسمع فإنك لن

= ولذا كان الأولى أن يراعي طابع الكتاب مثل هذا الأسلوب عند طبعه حتى يتفق
 مع جمال وجلال القرآن ، وليستطيع كل قارئ أن يقف على المعنى المراد .
 على أي تحجبت في حديثي عن كلام الشيخ الشعراوي مثل هذه الالفاظ فأوردت
 ما يقابلها بالفصحى .

تعرف (١)

وتأتي الدنيا كلها . . . فتتهم النساء بأن لهن دخلاً في أن يلدن إناثاً (٢) ويلدن ذكوراً ، ويخبر الله سبحانه أنه خلق الإناث والذكور من نطفة الرجل ، وليس للمرأة دخل في ذلك ، ثم يأتي العلم أخيراً ، ويكتشف هذه الحقيقة الكونية ، ويعلن أن عنصري البشرية الذكر والأنثى موجودان معاً في الرجل ، وأن تحديد النوع يأتي من الرجل وليس للمرأة دخل فيه ﴿ فَبَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ﴾ (القيامة : ٣٩) أي : من نطفة الرجل لا من بويضة المرأة وإلا لقال (منها) (فخلق منها) وإنما قال : ﴿ فجعل منه ﴾ .

إذا أخذنا التراب . . . ثم نضيف إليه الماء ليصبح طيناً ، ثم يترك لتفاعل عناصره فأصبح حملاً مسنوناً كالذي يستخدمه البشر في صناعاتهم ، ثم يجف فيصبح صلصالاً ، هذه أطوار خلق الجسد البشري ، والبشر تم خلقهم من الطين ، من الأرض ، فإذا جئنا للواقع فلنسأل أنفسنا : الإنسان مقومات حياته من أين ؟

من الأرض . . . من الطين ، هذه القشرة الأرضية الخصبة هي التي تعطي كل مقومات الحياة التي أعيشها ، إذن فالذي ينمي المادة التي خلقت منها هو من نفس نوع هذه المادة وهي الطين .

ولقد حلل العلماء جسد الإنسان فوجدوه مكوناً من ستة عشر عنصراً أولها الأوكسجين وآخرها المنجنيز ، والقشرة الأرضية الخصبة مكونة من

(١) المنتخب من تفسير القرآن الكريم للشيخ محمد متولي الشعراوي الجزء الأول (٧٧-٧٨) .

(٢) المنتخب من تفسير القرآن للشعراوي الجزء الأول (٣١) .

وهنا حكمة إلهية حيث حفظ المولى عز وجل للمرأة المهيضة الجناح حق بقاء الزوجية ، لأن الرجل حينما يعلم بأن المرأة لا دخل لها في هذه العملية وأن السبب منه فلن يفكر في الإساءة إليها حتى ولو ساورته النفس الأمارة فسوف يتراجع . وإلى زمن قريب كان الرجل يشك في علاقة المرأة بالنوع فمن كانت تلد له البنات كان يقدم على تطليق زوجته أو يتزوج عليها رغبة في الحصول على الذكور من غيرها ، فجلى القرآن الحقائق وحفظ للأسرة كيائها .

نفس العناصر ، إذن عناصر الطين المخصب هي نفس عناصر الجسم البشري الذي خلق منه ، هذا أول إعجاز .
وهذه تجربة معملية لم يكن هدفها إثبات صحة القرآن أو عدم صحته ، ولكنها كانت بحثاً من أجل العلم الأرضي .

ولقد جعل الله سبحانه وتعالى من الموت دليلاً على قضية الخلق فالموت نقيض للحياة ، أي : أن الحياة موجودة وأنا أنقضها بالموت ونقض كل شيء يأتي على عكس بنائه ، فإذا أردنا أن نبني عمارة نبدأ بالدور الأول ، وإذا أردنا أن نهدمها نبدأ بالدور الأخير ، إذا وصلت إلى مكان وأردت أن أعود أبدأ من آخر نقطة وصلت إليها ، إنها تمثل أول خطوة في العودة ، ونحن لم نعلم عن خلق الحياة شيئاً ، لأننا لم نكن موجودين ساعة الخلق ، ولكننا نشهد الموت كل يوم ، والموت نقض للحياة ، إذ هو يحدث على عكسها ، أول شيء يحدث في الإنسان عند الموت أن الروح تخرج ، وهي آخر مادخل فيه أول شيء خروج الروح ، إذاً آخر شيء دخل الجسم هو الروح ، ثم تبدأ مراحل عكس عملية الخلق ، يتصلب الجسد ، هذا هو الصلصال ثم يتعفن فيصبح رمة ، هذا هو الحمأ المسنون . ثم يتبخر الماء من الجسد ويصبح الطين تراباً ويعود إلى الأرض .

إذاً مراحل الإفناء التي أراها وأشهدها كل يوم هي عكس مراحل الخلق ، فهناك الصدق في مادة الخلق ، والصدق في كيفية الخلق ، كما هو واضح أمامي من قضية نقض الحياة وهو الموت .

شيء آخر ، يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُمْ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُمْ سَاجِدِينَ ﴾ (الحجر : ٢٩ وص : ٧٢) ، ومعنى النفخ أي نفس ، أي أن هناك نفساً خرج من النافخ إلى المنفوخ فيه فبدأت الحياة تدب فيه ، ولذا تنتهي الحياة بخروج النفس ، فأنت إذا شككت في أن أي إنسان قد فارق الحياة يكفي أن يقال لك : إنه لا يتنفس^(١) ، لتأكد يقيناً أنه مات إذ دخول الحياة إلى الجسد هو دخول هذا النفس مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ﴾ ، وخروجها هو خروج هذا النفس ، فالمسألة

(١) المنتخب من تفسير القرآن للشعراوي الجزء الأول (٢٧ - ٢٨) .

يقيناً كما قال الله سبحانه .

هذه الحقائق العلمية وغيرها التي أثارها آيات الله المحكمات إنما هي إعجاز تخرّ له جباه أهل العلم والفكر في شتى مجالات العلوم ، وهي كفيلة بدورها أن تأخذ بأيدي الناس جميعاً إلى طريق الهداية والرشاد بعد أن أزال عنهم غشاوة الجهل بحقائق هذا الكون الفسيح بما فيه ومن فيه ، وكان الذي يدعو إلى الدهشة والإعجاب حقاً أن هذا القرآن لم ينزل أصلاً ليكون كتاب طبّ أو تشريح ، أو كتاباً في علم الأجنة أو علم الفلك ، أو علم يبحث في طبقات الأرض مثلاً .

وإنما هو كتاب معجز آياته محكمات ، وكلّ ما فيها يشير إلى عظمة الخالق في خلقه ، وعظمته في ملكه ، وعظمته في آياته الكونية ، وعظمته في آياته ، آيات الذكر الحكيم التي أنزلها الله لتكون وسيلة علم وهداية وإرشاد إلى الحق أينما كان ، ووسيلة إنذار بعذاب إليم إذا ما أصر الإنسان على الكفر والعناد وسلوك غير سبيل المهتدين .

وصدق الله العظيم حيث يقول في كتابه : ﴿ هَذَا بَلَدٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ ، وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَحْدٌ وَلِيَذْكُرَ أُولَئِكَ أَلَّا يُشْرِكُوا ﴾ (إبراهيم : ٥٢) .

تعليق على ما ارتآه الشيخ محمد متولي الشعراوي :

وهكذا يطالعنا الشيخ محمد متولي الشعراوي بوجهة نظره في الإعجاز ، والتي تبرز في حديث القرآن عن الغيب وتصديق الواقع ذلك ، وفي حديثه عن الأمور الكونية التي جاء العلم فأكدها في عصرنا الحاضر ، والواقع أن مسألة إعجاز القرآن بغيباته أمر تحدث فيه العلماء وأفاضوا قديماً وحديثاً ، وإن كان تناول الشيخ لهذه الأمور قد جلى ما أشكل في كثير الأمور ، ولا سيما في حديثه عن حواجز الماضي والحاضر والمستقبل ، وتعرضه لهذه المسألة تطبيقياً ، وفي محاولة ربطه الدقيق لهذه الآراء وأحداث القرآن .

كل ذلك في دعوة دقيقة للربط بين إعجاز القرآن في أسلوبه البياني ، وفي كونه كتاب هداية وارشاد .

الفصل الثالث

من دراسات المحدثين حول الإعجاز في القرآن

- ١ - الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني في كتابه :
« مناهل العرفان في علوم القرآن »
- ٢ - الشيخ محمد الصادق عرجون في كتابه :
« القرآن العظيم : هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين »

تعريف بالشيخ الزرقاني وكتابه مناهل العرفان

الشيخ عبد العظيم الزرقاني من مواليد إحدى القرى بمحافظة الغربية بمصر من أسرة عريقة عرفت بالصلاح والتقوى . . . درس إلى أن أصبح أحد علماء الأزهر البارزين . . .

وقد امتاز بالنشاط العلمي والاجتماعي في المجال الإسلامي ، فكان رئيساً لجماعة التربية الإسلامية ، وعضواً بارزاً بجماعة جبهة علماء الأزهر .

له مؤلفات أشهرها هذا الكتاب العظيم : « مناهل العرفان في علوم القرآن » . كان أستاذاً للدراسات العليا بكلية أصول الدين . توفي في السبعينات من هذا القرن ، أي : منذ حوالي عشرين عاماً تقريباً رحمه الله^(١) . أي بعد ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م تقريباً بسنوات قلائل .

(١) راجع في الترجمة كتاب الدراسات القرآنية المعاصرة - لمحمد عبد العزيز السديس - (٢٢٥) - طبعة ١٣٩٢ هـ - الطبعة الأولى .

الشيخ عبد العظيم الزرقاني ونظرته للإعجاز في كتابه « مناهل العرفان »

ومن اهتم بالقرآن وأولاه عناية فائقة الشيخ عبد العظيم الزرقاني في
كتابه « مناهل العرفان في علوم القرآن » .

يقول : « إن القرآن الكريم كتاب هداية وإعجاز ، من أجل هذين
المطمحين نزل ، وفيهما تحدث ، وعليهما دل ، فكل علم يتصل بالقرآن
من ناحية قرآنيته ، أو يتصل به من ناحية هدايته أو إعجازه ، فذلك من
معلوم القرآن وهذا ظاهر في العلوم الدينية والعربية »^(١) .

هذا والشيخ الزرقاني يرى الإعجاز من عدة وجوه :

يرى الإعجاز في ألفاظ القرآن فيقول : « إن الإعجاز منوط بألفاظ
القرآن ، فلو أبيض أداؤه بالمعنى لذهب إعجازه ، وكان مظنة للتغيير
والتبديل ، واختلاف الناس في أصل التشريع والتنزيل »^(٢) .

كما يرى في نزوله مُنَجِّماً مظهراً من مظاهر إعجازه : « إن في كل نوبة
من نوبات هذا النزول المنجم معجزة جديدة غالباً حيث تحداهم كل مرة أن
يأتوا بمثل نوبة من نوبات التنزيل ، فظهر عجزهم عن المعارضة ، وضاعت
عليهم الأرض بما رحبت .

ولاشك أن المعجزة تشد أزره وترهف عزمه ، باعتبارها مؤيدة له
ولحزبه ، خاذلة لأعدائه ولخصمه »^(٣) .

كما يرى في نزوله منجماً على حسب الأحداث متدرجاً مع التشريعات
تدرجاً حكيماً لتحقيق الغاية المرجوة إعجازاً بيّناً للقرآن .

« التمهيد لكمال تحليهم بالعقائد الحقّة ، والعبادات الصحيحة ،
والأخلاق الفاضلة ، بمثل تلك السياسة الرشيدة السابقة . ولهذا بدأ
الإسلام بقطامهم عن الشرك والإباحية ، وإحياء قلوبهم بعقائد التوحيد

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن - للإمام الزرقاني - ج ١ - (٢٤) .

(٢) المرجع السابق (٥١) .

(٣) المرجع السابق (٥٤) .

والجزاء ، من جراء ما فتح عيونهم عليه من أدلة التوحيد ، وبراهين البعث بعد الموت وحجج الحساب والمسؤولية والجزاء .

ثم انتقل بهم بعد هذه المرحلة إلى العبادات ، فبدأهم بفرضية الصلاة قبل الهجرة ، وثنى بالزكاة والصوم في السنة الثانية من الهجرة ، وختم بالحج في السنة السادسة منها وكذلك كان الشأن في العادات : زجرهم عن الكبائر وشدد النكير عليهم فيها ، ثم نهاهم عن الصغائر في شيء من الرفق ، وتدرج بهم في تحريم ما كان مستأصلاً فيهم كالخمر . . . تدرجاً حكيماً حقق الغاية ، وأنقذهم من كابوسها في النهاية ، وكان الإسلام في انتهاج هذه الخطة المثلى أبعد نظراً ، وأهدى سبيلاً ، وأنجح تشريعاً ، وأنجع سياسة من تلكم الأمم المتمدنة المتحضرة التي أفلست في تحريم الخمر على شعوبها أفضع إفلاس وفشلت أمر فشل . وماعهد أمريكا في مهزلة تحريمها الخمر ببعيد ؟

أليس ذلك إعجازاً للإسلام في سياسة الشعوب ، وتهذيب الجماعات وتربية الأمم ؟

بلى ، والتاريخ على ذلك من الشاهدين .

كما يرى الإعجاز في دقة السبك وقوة الاتصال^(١) والترابط مع الاتساق بين أجزاء وأسلوب هذا الكتاب العظيم : « إن القرآن الكريم تقرؤه من أوله إلى آخره ، فإذا هو محكم السرد ، دقيق السبك ، متين الأسلوب ، قوي الاتصال ، أخذ بعضه برقاب بعض في سورة وآياته وجمله يجري روح الإعجاز فيه كله من ألفه إلى يائه كأنه سبيكة واحدة ، ولا يكاد يوجد بين أجزائه تفكك ولا تخاذل ، كأنه حلقة مفرغة ، أو كأنه سمط وحيد وعقد فريد يأخذ بالأبصار : نظمت حروفه وكلماته ، ونسقت جملة وآياته ، وجاء آخره مساوقاً لأوله ، وبدا أوله مؤاتياً لآخره !

وهنا نتساءل : كيف اتسق للقرآن هذا التآلف المعجز ؟ وكيف استقام له هذا التناسق المدهش ؟ على حين أنه لا يتنزل جملة واحدة بل تنزل آحاداً مفرقة تفرق الوقائع والحوادث على أكثر من عشرين عاماً ؟!

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن - للزرقاني - ج ١ (٥٦ - ٥٧) .

الجواب : إننا نلمح هنا سرّاً جديداً من أسرار الإعجاز ونشهد سمة
فذة من سمات الربوبية ، ونقرأ دليلاً ساطعاً على مصدر القرآن ، وأنه كلام
الواحد الديان ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا
كَثِيرًا ﴾ (النساء : ٨٢) .

والا فحدثني - بربك - كيف تستطيع أنت ؟ أم كيف يستطيع الخلق
جميعاً أن يأتوا بكتاب محكم الاتصال والترابط ، متين النسيج والسرد ،
متألف البدايات والنهايات ، مع خضوعه في التأليف لعوامل خارجة عن
مقدور البشر هي وقائع الزمن وأحداثه التي يجيء كل جزء من أجزاء هذا
الكتاب تبعاً لها ومتحدثاً عنها : سبباً بعد سبب وداعية إثر داعية ، مع
اختلاف بين هذه الدواعي ، وتغاير ما بين تلك الأسباب ، ومع تراخي
زمان هذا التأليف ، وتطاول آماذ هذه النجوم إلى أكثر من عشرين
عاماً^(١) .

ويرى الزرقاني من مناحي الإعجاز تنوع القراءات :

« وذلك ضرب من ضروب البلاغة يبتدىء من جمال الإيجاز وينتهي
إلى كمال الإعجاز^(٢) . أضف إلى ذلك في تنوع القراءات من البراهين
الساطعة ، والأدلة القاطعة على أن القرآن كلام الله ، وعلى صدق ما جاء به
وهو رسول الله ﷺ فإن هذه الاختلافات في القراءة على كثرتها لا تؤدي إلى
تناقض في المقروء أو تضاد ، ولا إلى تهافت وتخاذل بل القرآن كله على تنوع
قراءاته يصدق بعضه بعضاً ، ويبين بعضه بعضاً ، ويشهد بعضه لبعض ،
على نمط واحد في علو الأسلوب والتعبير ، وهدف واحد من سمو الهداية
والتعليم ، وذلك من غير شك يفيد تعدد الإعجاز بتعدد القراءات
والحروف ، ومعنى هذا أن القرآن يعجز إذا قرئ بهذه القراءة ، ويعجز
أيضاً إذا قرئ بهذه القراءة الثانية ، ويعجز أيضاً إذا قرئ بهذه القراءة
الثالثة ، وهلمّ جراً .

ومن هنا تتعدد المعجزات بتعدد تلك الوجوه والحروف !

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن - لمحمد عبد العظيم الزرقاني - ج١ (٦٠ - ٦١) .
(٢) مناهل العرفان - للزرقاني - ج١ (١٤٩) .

ولاريب أن ذلك أدل على صدق محمد ﷺ لأنه أعظم في اشتمال القرآن على مناح جمة في الإعجاز وفي البيان ، على كل حرف ووجه ، وبكل لهجة ولسان .

﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (الأنفال : ٤٢) .

كما ارتأى الإعجاز في الحروف التي جاءت في أوائل السور :
« إن هذه الحروف من أعجب المعجزات والدلالات على صدق النبي ﷺ وهذا مما ترضاه النفوس . ألا ترى أن حروف الهجاء لا ينطق بها إلا من تعلم القراءة ، وهذا النبي الأمي ﷺ قد نطق بها ، والذي في أول السور أربعة عشر حرفاً منها ، وهي كلها ثمانية وعشرون حرفاً ، إن لم تعدّ الألف حرفاً برأسه ، فالأربعة عشر نصفها .
وقد جاءت في تسع وعشرين سورة ، وهي عدد الحروف الهجائية إذا عدت فيها الألف .

وقد جاءت من الحروف المهموسة العشرة وهي : « فحثة شخص سكت » بنصفها وهي : الحاء والهاء والصاد والسين والكاف «^(١) .
كذلك الإعجاز في نزول هذا الكتاب المقدس على رجل أمي لا يقرأ ولا يكتب ، فبهر بفصاحته أهل الفصاحة والبيان .
« خصوصاً إذا لاحظت أن هذا الذي جاء بتلك المعارف الخارقة كان رجلاً أمياً ، نشأ وعاش وشب وشاب ، وحي ومات ، بين أمة أمية ، كانت لا تدري ما الكتاب ولا الإيمان »^(٢) .

وفي إخباره بالغيبات وهي كثيرة : « اقرأ قوله سبحانه مخاطباً لنبيه في موقف من مواقف الخصومة والمحااجة بينه وبين أعدائه اليهود : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١٦) وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ (البقرة : ٩٤ ، ٩٥) .

(١) مناهل العرفان - للزرقاني - ج١ (٢٣٢) .

(٢) نفس المرجع (٨٢) .

وهذا من أبرز شواهد الإعجاز والتحدي^(١) : إذ كيف يتسنى لرجل عظيم في موقف من المواقف الفاصلة بينه وبين أعدائه ، أن يجرؤ على تحديهم بشيء من شأنهم وحدهم ، وكان في استطاعتهم عادة بل في استطاعة أقل واحد منهم أن يقول - ولو ظاهراً - : « إني أتمنى الموت » ليظفروا بذلك التمني على محمد ﷺ ويُبطلوا بها دعوته ويستريحوا منه على زعمهم ، ولكن كل ذلك لم يكن ، فما تمنى أحد منهم الموت ، بل صرفوا ومازالوا مصروفين عنه أبداً . ثم سجل القرآن عليهم ما هو أبعد من ذلك إذ قال عقيب تلك الآية : ﴿ وَلَنَجْذِثَّهُمْ أَهْرَاصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرْضِيهِ مِنْ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ (البقرة : ٩٦) .

والإعجاز المتمثل فيما احتواه كتاب الله من أسرار بلاغية وبيانية : « كذلك القرآن قد شهد المتخصصون الفاقهون في اللغة العربية في أزهى عصور التوفر عليها والتمهر فيها ، أنه كتاب فاق الكتب ، وكلام بزّ سائر الكلام وبلغ في سموه وتفوقه حدود الإعجاز ، من ناحية الفصاحة والبلاغة وما يحمل منهما من أسرار ! ثم نقل إلينا ذلك كله نقلاً متواتراً قاطعاً لا ظل فيه للشك والنكران ... »^(٢) .

وأخيراً الإعجاز العلمي في القرآن : « إن القرآن الكريم في طريقة عرضه للهداية والإعجاز على الخلق قد حاكم الناس إلى عقولهم ، وفتح عيونهم إلى الكون ، وما في الكون من سماء وأرض^(٣) وبر وبحر ، وحيوان ونبات ، وخصائص وظواهر ، ونواميس وسنن . وكان القرآن في طريقة عرضه هذه موفقاً كل التوفيق ، بل كان معجزاً أبهر الإعجاز ، لأن حديثه عن تلك الكونيات كان حديث العليم بأسرارها ، الخبير بدقائقها ، المحيط بعلومها ومعارفها ، على حين أن هذا الذي جاء بالقرآن رجل أمي ، نشأ في أمة أمية لا صلة لها بتلك العلوم وتدوينها ، ولا إلمام لها بكتبتها

(١) مناهل العرفان (٨٣) .

(٢) مناهل العرفان (٨٤) .

(٣) نفس المرجع (٢٥) .

ومباحثها ، بل إن بعض تلك العلوم لم ينشأ إلا بعد عهد النبوة ومهبط
الوحي بقرون وأجيال ، فأتى يكون لرجل أمي كمحمد ﷺ ذلك السجل
الجامع لتلك المعارف كلها إن لم يكن تلقاه من لدن حكيم عليم ؟ قال
سبحانه مقررًا لهذا الإعجاز العلمي : ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَسْأَلُونَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا
يُخَطِّئُ يَمِينُكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَنْتَظِرُ فِي صُورِ الَّذِينَ
أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴾ (سورة العنكبوت : ٤٨ ،
٤٩) .

ولعل من الحكمة أن نسوق نموذجين من القرآن على سبيل التمثيل :
أولهما في سورة النور إذ يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُرْسِئُ سَحَابًا ثُمَّ
يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ
بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴾
(النور : ٤٣) .

قل لي بربك : ألا يملكك العجب حين تقرأ هذا النص الكريم الذي
يتفق وأحدث النظريات العلمية في الظواهر الطبيعية من سحب ومطر
وبرق ؟!

النموذج الثاني : يقول تعالى مبيناً كمال اقتداره على إعادة الإنسان
وبعثه بعد موته : ﴿ أَلَيْحَسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ يَجْمَعَ عِظَامُهُ ﴿٢﴾ بَلَى قَدَرِينْ عَلَى أَنْ تُسَوَّى بَنَاتُهُ ﴾
(القيامة : ٣ ، ٤) .

أرجو أن تقف قليلاً عند تخصيصه «البنان» بالتسوية في هذا المقام .
ثم نستمع بعد ذلك إلى هذا العلم الوليد « علم تحقيق الشخصية » في
عصرنا الأخير وهو يقرر أن أدق شيء وأبدعه في بناء جسم الإنسان هو
تسوية البنان ، حتى إنه لا يمكن أن تجد بناناً لأحد يشبه بنان آخر بحال من
الأحوال ، وقد انتهوا من هذا القرار إلى أن حكموا البنان في كثير من
القضايا والحوادث ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ (المؤمنون : ١٤) .

والله وحده هو المحيط بأسرار كتابه ، ولا يزال الكون وما يحدث في
الكون من علوم وفنون وشؤون لا يزال كل ذلك يشرح القرآن ويفسره ،
ويميط اللثام عن نواح كثيرة من أسرارهِ وإعجازه مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ سَزِيهَةٌ ءَاتَيْنَا فِي آلَافٍ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ الْحَقَّ أَوْلَمَ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنََّّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (فصلت : ٥٣) .

ثم يعقد الشيخ الزرقاني فصلاً يجعله جواباً لشبهة أثارها أعداء الله حيث يقولون : « إن إعجاز القرآن لا يدل على أن القرآن كلام الله ، بل هو كلام محمد ﷺ نسبه إلى ربه ليستمد قدسيته من هذه النسبة . وإعجازه جاء من ناحية أن محمداً كان الفرد الكامل في بيانه بين قومه ، لذلك جاء قرآنه الفرد الكامل أيضاً بين ما جاء به قومه ، ولم يستطيعوا لهذا الاعتبار وحده أن يأتوا بمثله ، شأن الرجل الفذ بين أقرانه في كل عصر ! »^(١) .

هذه الشبهة وقد اخذ الشيخ يفندوها ويجب عليها فيقول :

« إن كل من أوتي حظاً من حسن البيان وذوق البلاغة ، يفرق بين أسلوب القرآن وأسلوب الحديث النبوي فرقاً كبيراً ، يمثل الفرق الكبير بين مقدور الخالق ومقدور المخلوق ، وها هما القرآن الكريم والحديث الشريف لا يزالان قائمين بيننا يناديان بهذا الفارق البعيد . . . ولو كان لهذه الشبهة شيء من الوجاهة ، لكان أولى الناس أن يرفعوا عقيرتهم بها هم أولئك العرب الخالص الذين شافهم القرآن لأنهم كانوا أحرص الناس على تعجيز النبي وإسكاته . . . ولكنهم ما قالوا هذا ، بل كانوا أكرم على أنفسهم من أن يقولوه . . . »^(٢) .

ثانياً : « إن القرآن قد جاء الناس من أوسع الأبواب ، ودخل عليهم من طريق العرب الخالص ذوي اللسن والبيان ، وتحذاهم من الناحية البيانية التي نبغوا فيها وهي صناعة الكلام ، تلك الصناعة البيانية الفائقة التي وقفوا عليها مواهبهم وأنفقوا فيها حياتهم حتى صارت موضع تنافسهم وسبقهم . . . »

ومن هنا نعلم والتاريخ يشهد أن القرآن لو كان مصدره نفس محمد ﷺ - كما يقول أولئك الملاحدة - لأمكن هؤلاء العرب البارزين في البيان أن يعرفوا أنه كلامه ، بما أوتوا من ملكة النقد ، وما وهبوا من نباهة

(١) مناهل العرفان (٨٤) .

(٢) نفس المرجع (٨٥) .

الحس والدوق ، ثم لا يمكنهم مجاراته ولو شوطاً قريباً إن لم يمكنهم مجاراته شوطاً بعيداً . لاسيما وأن القرآن قد اكتفى منهم في معرض التحدي بأن يأتوا بسورة من مثل أقصر سورة منه . . .

ومعلوم أن النابغة الفذ في أي عصر من العصور يستطيع أقرانه يسر وسهولة أن يحاكيه مجتمعين أو منفردين في الشيء القليل أو الكثير ، على فرض أنهم لا يستطيعون معارضته في الجميع أو في الشيء الكثير . . . (١)

ثالثاً : « إن القرآن لو كان مصدره نفس النبي ﷺ لكان من الفخر له أن ينسبه إلى نفسه ولأمكن أن يدعي به الألوهية فضلاً عن النبوة ، ولكان مقدساً في نظر الناس وهو إله ، أكثر من قداسته في نظرهم وهو نبي ، ولما كان في حاجة إذاً إلى أن يلتمس هذه القدسية الكاذبة بنسبته القرآن إلى غيره ، فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ؟ » (٢)

رابعاً : « إن هؤلاء الملاحدة غاب (٣) عنهم أنهم يتحدثون عن أكرم شخصية عرفها التاريخ طهراً ونبلاً ، وذهلوا عن أنهم يمسّون أسمى مقام اشتهر أمانة وصدقاً . . . والعقل المنصف قال ولا يزال يقول : ما كان هذا الأمين الصدوق ليذر الكذب على الناس ثم يكذب على الله » ولكن المنافقين لا يعملون .

خامساً : « إن هذه الشبهة (٤) وليدة الغفلة عن المضامين العلمية للقرآن الكريم وأنبائه الغيبية وهداياته الخارجة عن أفق العادة في كافة النواحي البشرية ، فردية كانت أو اجتماعية ، لاسيما أن الآتي بهذا القرآن رجل أُمي في أمة أمية كانت حياتها من أظلم عهود الجاهلية ، أضف إلى ذلك ما سجل القرآن على النبي ﷺ من أخطاء في بعض اجتهاداته ، ومن عتاب تحس تارة بلطفه وأخرى بعنفه ، ولو كان هذا التنزيل كلامه ماسمح أن يسجل على نفسه ذلك كله ، ولكن الملاحدة سفهوا أنفسهم وزعموا على الرغم من هذه البراهين اللائحة أن محمداً افترى القرآن على ربه . كذبوا

(١) مناهل العرفان (٨٦) .

(٢) المرجع السابق (٨٦) .

(٣) المرجع السابق (٨٧) .

(٤) المرجع السابق (٨٧) .

وضلّوا . ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَٰكِن تَصَدِّقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (يوسف : ١١١) .
أقول : وما شتمل عليه هذا الكتاب العزيز من أخبار جاءت مصدقة ومؤكدة لما جاء في كتب أهل الكتاب كالطورا والإنجيل « ومصدقاً لما بين يديه من الكتاب » ، ورب العزة والجلال يقول : ﴿ وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ (الحاقة : ٤٤-٤٥) .

ترجمة الشيخ محمد صادق عرجون

تاريخ الميلاد ومكانه ١٩٠٣ م في أدفو - محافظة أسوان ، حفظ القرآن في أدفو ، ثم التحق بالأزهر على النظام القديم (ابتدائي وثانوي وعالي) ومدة كل مرحلة ٤ سنوات .

نال في المرحلة الأخيرة العالمية النظامية ، وكان ذلك سنة ١٩٢٩ م ، ثم التحق بالتخصص وحصل على شهادة التخصص سنة ١٩٣٥ م ومدة ذلك التخصص ٣ سنوات .

ثم عين مدرساً بالمعاهد الأزهرية .

ثم شيخاً لمعهد دسوق ، ثم شيخاً لمعهد أسيوط ، ثم شيخاً لعلماء الإسكندرية ، ثم عين مدرساً في كلية اللغة ، ثم مدرساً بكلية أصول الدين ، ثم عميداً لكلية أصول الدين سنة ١٩٦٤ م ، لمدة أربعة أعوام .

عمله في البلاد الإسلامية :

- ١ - اختيار مديراً لمعهد الدراسات العليا بأم درمان .
- ٢ - أستاذاً بالجامعة الإسلامية بالكويت .
- ٣ - أستاذاً زائراً في بني غازي بليبيا .
- ٤ - أستاذاً للدراسات العليا للحديث بجامعة أم القرى .

من أساتذته :

- ١ - الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الأزهر الأسبق .
- ٢ - الشيخ إبراهيم الجبالي وكان آخر مناصبه عميداً لكلية اللغة العربية بالأزهر .

ومن الأقطار الإسلامية التي زارها أو عمل بها :

- ١ - أندونيسيا ، وقد طاف بها دارساً وباحثاً ومحاضراً واجتمع بالكثير من علمائها .
- ٢ - السودان ، وقد عمل فترة من حياته بمعهد الدراسات العليا بأم

درمان ،

- ٣ - الكويت ، وقد عمل بجامعة .
- ٤ - ليبيا ، وكان أستاذاً زائراً في بني غازي .
- ٥ - السعودية ، وكان أستاذاً للحديث بجامعة أم القرى في الدراسات العليا .

مؤلفاته :

- ١ - خالد بن الوليد .
- ٢ - عثمان بن عفان .
- ٣ - القرآن العظيم هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين .
- ٤ - التصوف .
- ٥ - موسوعة في سماحة الإسلام في جزئين .
- ٦ - حجة الإسلام الغزالي (الفكر الثائر) .
- ٧ - الأمة الإسلامية كما يريد القرآن .
- ٨ - من رياض القرآن .
- ٩ - سنن الله في المجتمع من خلال القرآن .
- ١٠ - محمد رسول الله من نبوته إلى بعثته .
- ١١ - حرية الفكر الإسلامي .
- ١٢ - الأدب بين القديم والحديث .
- ١٣ - الدين منبع الإصلاح الاجتماعي .
- ١٤ - الحياة الأدبية عند العرب قبل الإسلام .
- ١٥ - محمد رسول الله منهج ورسالة . بحث وتحقيق أصدر بعد وفاته .

تاريخ الوفاة : ١ من المحرم ١٣٩٨ هـ ، ١٢ من نوفمبر ١٩٨٠ م .

الشيخ محمد الصادق عرجون وإعجاز القرآن في هدايته

والشيخ الصادق عرجون ممن يرى الإعجاز كامناً في الهداية وأن الهداية في القرآن إعجاز باهر لا يمكن أن يكون لها مثيل في أي كتاب آخر . وقد تحدث عن هذا بإسهاب ، بل عقد له فصلاً في كتابه القيم : « القرآن العظيم هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين » .

يقول : وهذا الضرب من الإعجاز في الهداية هو لباب هدايات القرآن ، وزبدة رسالته لأنه يحقق المعاني الآتية :

أولاً : حجّية القرآن لنفسه بوجوب اعتقاد صحة وصدق جميع ما جاء به من ضروب الهداية علماً وعملاً ، فهو بهذه الحجّية شاهد نفسه لنفسه .
ثانياً : حجّيته على صدق من أرسل به النبي العربي محمد بن عبد الله ﷺ ووجوب متابعتة في جميع ما ثبت عنه من قول أو فعل أو تقرير^(١) .

ومن ثم كان لابد لثبوت حجّية القرآن لنفسه ، وحجّيته على صدق من أنزل عليه وبعث به أن يثبت إعجازه لجميع الأمم والشعوب وكافة الأجناس على اختلاف ألسنتهم في جميع الأزمنة والأمكنة أفراداً وجماعات^(٢) .

كما يرى الإعجاز في الأسلوب والتفوق البياني يقول :
« فالتحدي بالبراعة في الأسلوب والتفوق البياني وبلوغ الذروة البلاغية حتى لا يلحق به في درجته وعلو طبقة أسلوب ، ولا يساميه في مرتبته كلام ، ولا ينافسه في براعته وفصاحته بيان » .

هذا التحدي لون من ألوان الإعجاز التي اشتمل عليها القرآن . ويرى الإعجاز بالهداية ، وما اشتمل عليه من معانٍ ومقاصد تهدف

(١) القرآن العظيم هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين لمحمد الصادق عرجون (١٣٣) ط ١٣٨٦ هـ .

(٢) القرآن العظيم هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين - لمحمد الصادق عرجون (١٣٣) ط ١٣٨٦ هـ .

إلى هداية البشرية وإصلاح شأنها .
 « وهناك مرتبة من مراتب التحدي وهداية الإعجاز جاءت نصاً في
 مناط التحدي وبياناً للجهة التي منها أعجز القرآن ويعجز جميع الذين
 تحداهم ويتحداهم من أبناء البشر قاطبة في كل زمان ومكان من كل جنس
 وأمة على أية درجة من العلم والمعرفة . . .
 هذه الجهة هي التي سماها القرآن إلى ذروة الفضل والإحسان ، وبها
 سبق فلا يلحق ، وانفرد مخلقاً في آفاقها فلا يدرك ، وهي الجهة التي تحقق
 رسالته وخلودها لأنها خالدة بخلوده ، عامة بعموم رسالته ، ولاسيما في
 عالمنا المعاصر الذي فتن بالعلوم التجريبية والمعارف المادية ، وفتن بجولات
 العقل في ظواهر الطبيعة وبعض حقائق الكون في الكوكب الأرضي الصغير
 المحدود .

وقد أعمته ظواهر الحياة المادية عن النظر في القيم الروحية وهداية
 السماء ، فضل الطريق حتى كاد يهوي إلى منحدر لا يعرف له نهاية . وفي
 القرآن الحكيم دواؤه لو وجد المهرة من الأطباء ، تلك الجهة هي الهداية ،
 وهي أساس دعوة القرآن ، وأصل أصوله^(١) . عنها تفرعت جميع آدابه
 وشرائعه وبها قامت أركان علومه ومعارفه ، وعلى دعائمها نهضت حكمه
 وأحكامه ، فيها نزل ، وإليها قصد ، وهي الحق الذي أنزله الله به ﴿وَبِالْحَقِّ
 أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿١٠٥﴾ وَقُرْآنًا فَفَرَّقْنَاهُ لِقِرَاءٍ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ
 وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا ﴿١٠٦﴾ (الإسراء : ١٠٥ ، ١٠٦) ، وهداية القرآن دروس في
 التربية للأفراد والجماعات والأمم والشعوب ، ودروس التربية إنما تكون
 على حسب الاستعداد والتقبل ، فلا تكون جملة ولا بد فيها من التفصيل
 والتدرج .

ثم يورد الأمثلة التي تكشف عن أهمية الإعجاز والتحدي بالهداية :
 قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أَوْفَىٰ مِثْلَ مَا أُوفِيَٰ مُوسَىٰ
 أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوفِيَٰ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ ﴿١٤٨﴾

(١) القرآن العظيم هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين لمحمد الصادق عرجون (١٤٨ -
 ١٤٩) ط ١٣٨٦ هـ .

قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِمَّامَا أَتَيْتُمَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ (القصص : ٤٨ ، ٤٩) .

والذي نريد أن نلفت إليه النظر هنا هو أن الآية الأولى من هاتين الآيتين وردت على المعهود من موقف المعاندين للرسالة الإلهية من التعنت بعدم النظر فيما بين أيديهم من الآيات العقلية المعجزة الدالة على صدق من أرسل إليهم اقتراح آيات مادية سمعوا أنها أنزلت على الرسل قبل محمد ﷺ فهنا لما جاءهم محمد بالحق من عند الله قالوا متعنتين : هلا أنزل عليه من الآيات مثل ما أنزل على موسى ، من قلب العصا حية ، وفلق الحجر والبحر ، فرد الله عليهم بأنهم لم يكونوا صادقي العزيمة في هذا الطلب ولم يطلبوه بإخلاص وجد وإنما هو محض تعنت وعناد ، لأنهم لم يؤمنوا بالذي أنزل على موسى وكفروا به ، ولما رأوه متوافقاً مع القرآن في أصول الهداية أشاحوا بأعطافهم وأنغضوا رؤوسهم وقالوا : توراة موسى وكتاب محمد ﷺ سحران تعاونا على الموافقة ، ثم سجّلوا على أنفسهم الكفر بهما فقالوا : ﴿ إِنَّا بِكُلِّ كَافِرٍ ﴾ .

وهنا تجيء الآية الثانية على سنة القرآن ومعهود أسلوبه البديع ردّاً لتعنتهم وكسراً لشوكة عنادهم ، صارخة في وجوههم ، متحدية ، والتحدي هنا بالهداية ، ولكنها هداية لا ينفرد بها القرآن الكريم بل يدخل فيها معه توراة موسى عليه السلام ، وهذا من أدل الدلائل على أن القرآن الكريم كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

ولاشك في أن هذه الهداية المعجزة قد أخذت أساليب شتى من أجل التأثير في النفوس . . .

ومن هنا كان الإعجاز أيضاً في أسلوب القرآن المتمكن وفي دقة الأداء^(١) وبراعة القول ، واحتواء الموقف ، ومن البيان ما يسحرك وتعجز عن التعبير عنه . . .

(١) القرآن العظيم هدايته وإعجازه - لمحمد الصادق عرجون - (١٥٨) - طبعة ١٣٨٦ هـ .

« ولعل هذه القوة الكامنة في أسلوب هذا الكتاب هي السر في إعجازه البياني ، ذلك السر الفني الذي يملأ الإحساس به نواحي الشعور الإنساني دون أن يستطيع أبرع الناس بياناً وأبلغهم عبارة ، وأنصعهم مقالاً التعبير عنها بعبارة محدودة مضبوطة بقواعد العلم ، ومن هنا قال السكاكي رحمه الله : « إن إعجاز القرآن يدرك ولا يمكن وصفه »^(١) .

ومن هذا قوله تعالى : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۚ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۖ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۖ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً ۖ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۖ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۖ وَأَكْوَابٌ ۖ مَوْضُوعَةٌ ۖ وَنَارٌ مَّصْفُوعَةٌ ۖ وَزَرَّائِي مَبْنُوتَةٌ ۖ ﴾ (الغاشية : ٨ ، ١٦) .

أسلوب هامس ناعم مطمع ، ولفظ رقيق لين حلو ، وفواصل ذات إيقاع صوتي ورنين مبهج ، فمن من الناس الذين نالوا حظاً من علم وأدب ، وتمرسوا بنصوص فصاحة العرب لا يطعمه هذا الأسلوب في مباراته هذه السماحة المعبرة في أسلوب الآيات ، وهذه الرقة الباسمة في ألفاظها ، وهذه الحلاوة في رنين فواصلها ، تغري بالجرى على سننها^(٢) .

أيضاً من مظاهر إعجاز هذا الأسلوب مراعاته لمقتضى الحال ، ومراعاة مقتضى الحال هي مهمة علم المعاني وهو أحد علوم البلاغة ، مع التنويع في الموعظة والدعوة إلى التوحيد . . .

« ومن بدائع أسلوب القرآن أنه لا يطيل الحديث في مقام واحد دون أن يجعل في البين حكمة بالغة أو موعظة حسنة ، لأن الإطالة على سنن واحد مدعاة - في الغالب - إلى الألفة والفترة ، والألفة ماحية لأثر الكلام في النفس ، والفتور خدور للعقل يعيقه عن متابعة المعاني واستيفاء الإحاطة بها .

تأمل هذه الآيات التي وردت في وصف ما يحيق بالظالمين من الفرع المرعب وأليم العذاب يوم القيامة : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِيلاً عَمَّا يَعْمَلُ

(١) مفتاح العلوم - للسكاكي .

(٢) القرآن العظيم هدايته وإعجازه - لمحمد الصادق عرجون - (١٧١) طبعة ١٣٨٦ هـ .

الظالمين ﴿١٢﴾ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿١٣﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِبِينَ رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿١٤﴾ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبِ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ أَوْلَمَ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ﴿١٥﴾ وَسَكَنتُمْ فِي مَسْكَانٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ﴿١٦﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿١٧﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿١٨﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٩﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٢٠﴾ سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطَرَانٍ وَتُفْشَى وُجُوهُهُمْ النَّارُ ﴿٢١﴾ (إبراهيم : ٤٢ ، ٥٠) .

فتأمل كيف جاء بدء الآيات جامعاً بين الوعيد الصريح ، ووصف حال الظالمين بأوصاف لو وضع غيرها من ألفاظ التفضيع ما جاءت هذا المجيء ، ثم أخذت تذكر ندمهم على ما فرط منهم ولات حين مندم ، كما تصف تمنيتهم تحسراً لو أخرت آجالهم فيجيبوا داعي الله ويتبعوا الرسل . . . بل سكنوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم وعرفوا بما عاينوا من آثارهم ما نزل بهم من عذاب الله ، ولكنهم لم يعتبروا بهم . . . » (١) .

وواضح من تناول الشيخ عرجون لقضية الإعجاز أنه ركز على جانب الإعجاز بالهداية وإن كان لا ينكر دور الأسلوب المعبر عن تلك الهداية . يقول في الإعجاز بالهداية وإنه الوارث والسبيل الأمثل . . . (٢) « وكما يقتضي عموم دعوة القرآن وخلود رسالته أن بيان هدايته هو الغاية القصوى لتحقيق رسالته ، وهو الطريق الصالح لتبليغ رسالة الإسلام على ما يستطيع من بلاغ يقتضي عموم الدعوة وخلود الرسالة إن التحدي بالهداية - كما جاء بها القرآن - يجب أن يكون الطريق الأعم لبيان إعجاز القرآن كما تحدى بها خالصة منفردة من دون التحدي بروعة النظم وبراعة الأسلوب ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هُمْ أَقْنَمٌ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ

(١) القرآن العظيم هدايته وإعجازه - للصادق عرجون - (١٦٢) .

(٢) نفس المرجع (١٥٤) .

أَجْرًا كَبِيرًا ﴿ (الإسراء : ٩) .
وأسلوب الهداية القرآنية في إشعار الفرد بتحمل مسؤولية عمله كاملة
يقوم على ربط الجزاء بالعمل ، فلا جزاء على غير عمل ، ولا عمل بغير
جزاء .

وفي تقرير ذلك يقول سبحانه : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا
كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ (البقرة : ٢٨٦) .
وقد تضمن هذا النص من البيان القرآني قضيتين :

القضية الأولى : تصوير السماحة كما في الهداية القرآنية وأنها
لا تتعنت في تكاليف العباد بشرائعها وآدابها ، ولا تشتط في المطالبة بالعمل
التكليفي ، ولكنها تنظر إلى طاقة الإنسان واستعداده الفطري والعقلي
والروحي والبدني ، فتكلفه من العمل ما يطبق في حدود هذا الاستعداد جبلة
وكسباً ، وهذه القضية هي مضمون قوله تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا
وُسْعَهَا ﴾ ، وهي قضية تصوّر سماحة الشريعة ، ويسر تكاليفها تحقيقاً لما
ألهمه المؤمنون في مناجاة الشكر لله ودعاء التعبد من رفع أثر التكاليف في
حالاتي النسيان والخطأ الذي لا يتجه إلى القلب والضمير بعقد ونية ، ورفع
الأصار والأنقال في مطلق التكاليف لتكون في حدود الطاقة والاستعداد .

كما حكى الله عنهم هذه المناجاة في قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لَا تَأْخُذْنَا إِنْ
نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ، رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ،
رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ، وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا ، أَنْتَ مَوْلَانَا
فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ .

والقضية الثانية : تبين أن كل نفس عاملة في الحياة إنما تنال جزاء
عملها ، فلها جزاء ما كسبت من خير وبر وإصلاح ، وعليها جزاء
ما اكتسبت من شر وفجور وإفساد .

وهذا تقرير لقانون العدل الذي تقوم على أساسه مسؤولية الأفراد
وروابطهم الاجتماعية ، فلا تظلم نفس شيئاً من جزاء عملها^(١) ،

(١) القرآن العظيم هدايته وإعجازه / لمحمد الصادق عرجون - ١٣٨٦ هـ - (١٠٣) -
(١٠٤) - الناشر : مكتبة الكليات الأزهرية

ولا تتحمل نفس آثار عمل نفس أخرى لم تعمل ذلك العمل فتبوء بجزائها .
وفي إطار هذا القانون الذي تقرره الآية الكريمة في طرفيها ، من يسر
التكاليف وعدالة الجزاء ساق البيان القرآني آيات الهداية التي تقصد إلى تربية
الفرد تربية سلوكية في تحمل مسؤولية العمل تحملاً كاملاً يربطه بالجزاء كسباً
واكتساباً .

كما ساق الشيخ عرجون نموذجاً آخر تتمثل فيه آيات الإبداع
بالهداية ، قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا
زَوْجَهَا ﴾ (الأعراف : ١٨٩) .

بيد أن هذه الآية الكريمة - جرياً على سنة القرآن في عدم التكرار
المحض - زادت قيداً أبانت فيه عن الحكمة الربانية في وشيجة الزوجية بين
النفس الأصلية في الإبداع ، وبين النفس المنشعبة منها .

تلك الحكمة هي سكون النفس الأصلية من قلق الوحدة ووحشة
الانفراد عن الملائم إلى أنس الزوجية وتلاطفها في نموذجها المنشعب منها .
ويلاحظ أن الحديث هنا جرى على النوع الإنساني في نموذجيه قبل أن
ينبث منهما أفراداه ، وقد كشف عود ضمير النفس الأصلية خصيصة
نوعها ، فكانت هي الرجل ، كما كشف عود ضمير النفس المنشعبة عن
خصيصة نوعها ، فكانت هي المرأة .

وقد صور هذا المنهج في إبراز الفكرة الاتساق بين إعجاز الأسلوب
وإعجاز الهداية في إيجاز البراعة البيانية بقول تعالى : ﴿ لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾
وقضية سكون الزوج إلى زوجه والرجل إلى امرأته سيقّت في آية أخرى مساق
التوجيه للعقل الإنساني إلى التعرف على عظمة القدرة الإلهية ، وللامتنان
على أفراد النوع الأول في وجود الإنسان وهم الرجال لبيان الحكمة في خلق
نوع النساء ممثلاً في أفراداه من ذات نفس الرجال ، بمعنى المنشأ أو البضعية
أو إكمال المماثلة في الخصائص النوعية مما يحقق أكمل الانسجام والممازجة .

وزيد هنا قيود على مجرد السكون تتلاءم مع دائرة الأفراد المنبئين من
النوعين في الامتنان عليهم بعد الامتنان على خصوص أصلهم في نموذجه
الأول باعتباره المنبع الأصل للإبداع الإنسان وخلقه ، قال تعالى : ﴿ وَمِنْ

ءَايَاتِهِمْ أَنِ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً
وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ (الروم : ٢١) .

هذه لوحة فنية في إطار من الذكر الحكيم ترمز إلى آفاق
السعادة^(١) الزوجية بين كل زوجين أرادها وسعيها إليها سعيًا جاداً
مستهدفاً .

فالتعبير بقوله تعالى : ﴿ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ إشعار بمكانة
الزوجة من زوجها ، وتوجيه لما يجب أن تكون الزوجة من زوجها .
وفي قوله : ﴿ لَكُمْ ﴾ إغراء بالحرص على أن يفتح الزوج قلبه لحب
زوجته لأنها له وحده روحاً وعقلاً وجسماً .

وفي قوله : ﴿ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ بيان لما يجب أن يكون من الانسجام
والتمازج بين الزوجين لأنهما نفس من نفس ، فهو أبلغ في بث السكينة في
قلب الزوج ، لأنه بطريق الإيحاء كأنما يسكن إلى نفسه .

وفي الآيتين السابقتين كان الأسلوب : ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ
وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ ولذلك كان الحديث هناك مع الأفراد في نموذج النوع
بطرفيه .

أما هنا فالحديث مع الأفراد المنبئين كل فرد من النوع الأول مقصود
بالخطاب والمنة بالنعمة .

وفي هذه الآية لمحة لطيفة ونكتة ذوقية في الأسلوب القرآني .
ذلك أن الآية تجعل السكون مطلوباً من الرجال إلى نسائهم ، ولم
تجعله مطلوباً من النساء إلى الرجال ، لأنه فيهن فطرة وطبيعة ، وفي الرجال
عادة مكتسبة ومغالبة للفطرة .

ثم أخبرت الآية بشيء جديد كل الجدة على الآيتين السابقتين وذلك
قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ .

فالمودة والرحمة شركة بين الزوجين يتساقيان عذب شراهما ،
ويتقاسمان حلاوتهما ، أما السكون فإنه مطلوب من الرجل ليغالب به
طبيعته القوامة .

(١) القرآن العظيم هدايته وإعجازه - لمحمد صادق عرجون (٣٦ - ٣٨) .

وختاماً فإن لي وقفة وتعليقاً على كلام أورده الدكتور أحمد الحوفي في كتابه « مع القرآن الكريم » - يقول : « ذكر الباقلاني فيما ذكر من وجوه الإعجاز أن الله تعالى بعث النبي ﷺ وجعل معجزته الكبرى القرآن ليقع به الاهتداء ، ولا يكون كذلك إلا وهو حجة ، ولا تكون حجة إن لم تكن معجزة^(١) .

قال تعالى : ﴿الرَّكَتَبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (إبراهيم : ٩١) .
وقال سبحانه : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ (التوبة : ٦) .

فلولا أن سماعه حجة عليه ، ما كانت حمايته حتى يسمعه ، ولا يكون حجة إلا وهو معجزة ، فهل هذا دليل على الإعجاز ؟

سؤال يطرحه الدكتور الحوفي ثم يجيب فيقول : لا . لأن الهداية إلى التوحيد ، ولأن بيان الرشد من الغي ، لأن التشريع الذي يفصل للناس ماعليهم من واجبات ، ومالهم من ثواب ، وماعليهم من عقاب ، كل هذا لا ينهض دليلاً على أن القرآن معجز .

فقد نزل الزبور والتوراة والإنجيل هداية للناس ، ولكن بيانها لم يكن معجزاً لهم ، ولم يتحداهم المولى بها .

ولأن المذاهب الإصلاحية كثيرة ولا إعجاز في واحد منها ، إذ أن المذهب قد يبهز حيناً ، ثم لا تمضي فترة حتى يصوب إليه النقد ، والمعارضة والتفنيد ، فيفتر نشاطه ويذهب سلطانه^(٢) .

وهكذا لا يرى الدكتور الحوفي إعجازاً في الهداية القرآنية ، إنما يرى الإعجاز في أسلوبه وليس فيما خلا ذلك .

يقول : « وأريد بالأسلوب أو النظم الكلمة المفردة في موضعها من الجملة ، والجملة المنسوقة في تعبيرها عن معنى ، والمعنى الذي تضمنته الجملة ، وما يتصل بالأسلوب والمعنى من أفانين البلاغة والتصوير

(١) إعجاز القرآن - للباقلاني - الطبعة الثالثة (٩) .

(٢) مع القرآن الكريم - د . أحمد الحوفي - (٣٣) - دار نهضة مصر للطبع والنشر . .

والخيال ، أي أن الأسلوب أو النظم يشمل الألفاظ المعبرة عن المعاني ، والمعاني التي عبرت عنها الألفاظ ، لأنه امتزاج بين الصياغة ماتؤديه من مضمون^(١) .

وأرد على الدكتور الحوفي في دعواه هذه : « إن الإعجاز لا يتأتى بالهداية ، لأن الهداية هي دليل على أن القرآن من عند الله وليست طريق إعجاز وتعليله هذا أن الكتب السماوية جميعاً نزلت للهداية ، ولكن لا إعجاز وقع بها » .

أرد على الدكتور الحوفي بأن الهداية القرآنية معجزة قائمة بذاتها ، ومظهر من مظاهر إعجاز هذا الكتاب العظيم .

ذلك أن في لفت الأنظار إلى مافي هذا الكتاب الكريم من مناهج ودرسات ترسم الحياة الصحيحة السليمة والمجتمع الصالح السليم ، سواء أكان ذلك من الناحية الاجتماعية أو الاقتصادية ، أو في القيم الأخلاقية ، والتعامل على نطاق الفرد والجماعة ، ومافيه من قوانين إصلاحية ونظم تحدد قانون الأحوال الشخصية في التعامل والتكافل والزواج والطلاق والميراث ... الخ .

مايدفعنا إلى الاعتراف بحقيقة هذا الإعجاز .

إعجاز شامل لتحقيق العدالة ، والهداية والمجتمع السليم ، مما لم يتحقق فيما عداه من كتب أخرى ومذاهب مهما كانت تدعو إلى الإصلاح . وأقول : لربما لو سلمت الكتب السماوية من يد التحريف والتبديل لكانت الهداية مظهراً من مظاهر الإعجاز فيها ، وإن لم تكن بشمول هداية القرآن ، لأنه معجزة عالمية وليست خاصة بأمة من الأمم ... على أن كل شيء قد ورد في القرآن فهو عين الإعجاز .

(١) المرجع السابق (٣٧) .

الباب الثاني

المنهج القرآني في الهداية والتوجيه

الفصل الأول :

عنصر الزمان في توجيهات القرآن

الفصل الثاني :

عنصر المكان في الهداية والتوجيه

الفصل الثالث :

الهداية القرآنية بين أسلوب الترهيب والترغيب

الفصل الرابع :

الجانب الخلفي في أسلوب القرآن الكريم

الفصل الأول

عنصرُ الزمان في توجيهات القرآن

الزمن الماضي في توجيهات القرآن

نعم إن هذا الكتاب المعجز الخالد لم يكن سوى رسالة خلود لإنقاذ البشرية من مجاهل التعبط والعشوائية ، فهو كتاب هداية ودستور حياة .
ولقد فطن البشر الذين هم في أمس الحاجة إلى هذه الهداية فطنوا إلى روح هذه الهداية ، فكانت دعوتهم في فاتحة الكتاب : ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (الفاتحة : ٦) .

وجاءهم الجواب في فاتحة سورة البقرة : ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة : ٢) .

ثم جاءهم هذا التأكيد من خلال آيات الذكر الحكيم جميعها .
وصدق الله العظيم القائل : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (الشورى : ٥٢) .

وإن المتتبع لأي الذكر الحكيم يستشعر هذه الهداية في كل آية من آياته وفي كل جانب .

أجل . . . إن الهداية القرآنية كانت المرتكز في كتاب الله والقاسم المشترك بين آياته .

وقد اتخذت آيات القرآن من دائرة الزمان بأكمله - في ماضيه وحاضره ومستقبله - مجالاً للهداية والتوجيه .

ولقد حكى لنا القرآن الكريم العديد من الأحداث التي ذخرها الزمن الماضي لنستلهم منها مواطن العظة والعبرة ، قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى ﴾ وفي إطار العظة والعبرة بتحقيق الهدف المنشود من سياق هذا القصص وهو الهدي والرشاد : ﴿ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (يوسف : ١١١) .

ولنأخذ صوراً من هذا القصص القرآني في الزمن الماضي ، قال تعالى :

﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُنْقَبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَا أَقْبَلُكَ قَالَ إِنَّمَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَيْنًا بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِغْيَايَ وَإِنَّكَ فَتَكُونُ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيرِيَهُ كَيْفَ يُؤَرِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يُوتِلَتَانِ أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَرِّي سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ (المائدة : ٢٧ ، ٣١) .

هذه صورة حبة تحكي قصة الصراع الأبدي من الأزل على هذه المتع الزائلة ، حين يقدم الأخ على قتل أخيه في غيبة القيم الروحية ، والإقدام على مثل هذه الجريمة النكراء في تسلط من النفس الأمارة بالسوء : ﴿ فطوَّعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين ﴾ .

واضحاً بذلك حجر الأساس لجريمة القتل العمد مع سبق الإصرار والترصد ، وتكتمل الصورة حينما يحاول إخفاء أثر جريمته بدفن أخيه ومواراة الجسد في التراب ، وكان تأنيب الضمير يظل مرافقاً للجاني طالما هو يشاهد ضحيته^(١) .

﴿ قَالَ : يَا وَيْلَتَى أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَرِّي سَوْءَةَ أَخِي ... ﴾ .

من هنا قال رسول الله ﷺ : « لَا تَقْتُلْ نَفْسٌ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا ، لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ » .

إنها نتيجة حتمية لغياب الوازع الديني وتسلط النفس الأمارة بالسوء .

(١) ﴿ فأصبح من الخاسرين ﴾ : خسر نفسه فأوردها موارد الهلاك والعطب ، وخسر أخاه ففقد الناصر والمعين ، وخسر دنياه فما تنها لقاتل حياة ، وخسر أخراه فباء بإثمه الأول والآخر .

ولا أدل على أنه أول قاتل على وجه البسيطة حيرته المتناهية في كيفية إخفاء الجثة حتى دله الغراب على العمل ﴿ فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سَوْءَةَ أَخِي ، قَالَ : يَا وَيْلَتَى أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَرِّي سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ .

من هنا كان في مثل هذا القصر سياجاً لنا في كبح جماح النفس الأماره بالسوء والاقتداء بمنهج الله .

وفي قصة قارون ما يدعو إلى التدبر والتبصر وعدم الاغترار بمظاهر هذه الحياة وزينتها ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُتُوبِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءَ بِالْمُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَاتَّبَعَ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بَلِّغْنَا لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَاثُرُ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَاثُرُ لَا يَفْلَحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ (القصص : ٧٦ ، ٨٣) .

هذا نموذج لفئة من الناس أعماهم حب الدنيا والركون إلى ملذاتها الفانية ، فهذا قارون بن يصهر بن قاهث وهو ابن عم موسى بن عمران بن قاهث .

وكان عظيم الثراء كثير المال قيل : إن مفاتيح خزائنه كانت تحمل على أربعين^(١) بغلاً ، فبماذا قابل هذه النعمة ؟ لقد قابلها بالجحود والإنكار ، وادعى بأن ما هو فيه من نعمة إنما هو نتيجة ذكاء وتفرد وعلم بوسائل الكسب مع عقلية تجارية فذة ﴿ قال إنما أوتيته على علم عندي ﴾ ، وغاب

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير الجزء الأول الطبعة (١١٥) .

أما الكلبي موسى عليه السلام فقد نجاه الله عز وجل ، وأثبت براءته كما قال تعالى : ﴿ فَبَرَأَهُ اللَّهُ عَمَّا قَالُوا ، وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾ .

عن بال هذا الكفور بأن المولى عز وجل قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وغنى ﴿ أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ﴾ ، ولم يزد إلا غطرسة وتبجحاً ، فخرج على قومه في زينتته بالمراكب والثياب المعصفرة ، وضرب عليه صفائح الذهب حتى أن المولعين بالدنيا قالوا : ﴿ ياليت لنا مثل ما أوتي قارون ﴾ ، ولكن أولي العلم والعمل ردوا عليهم بأن هذه مظاهر فانية ، فالمال ظل زائل وعرض حائل ﴿ قال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ﴾ .

فلما طلب نبي الله موسى منه (الزكاة) استكثرها ، فأراد الكيد لنبي الله ، فاتفق مع امرأة بغية أن ترمي موسى عليه السلام بنفسها . وتنطق المرأة ببراءة الكليم أمام الملأ . وهنا يدعو الكليم عليه السلام بالخسف على قارون ﴿ فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين ﴾ .

وهذا من أعظم العبر في أن مجانبية المنهج الرباني عاقبته الوبال وسوء الخاتمة ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين ﴾ .

وهكذا تظهر لنا جلياً العظة والعبرة في عدم الاغترار بهذه المظاهر الفانية ، وإلا فالخاتمة ما آل إليه قارون ، والعياذ بالله .

الزمن الحاضر في توجيهات القرآن

هذا وإذا كان القرآن قد حكى لنا قصصاً من الزمن الماضي لقصد الهداية والعظة والاعتبار ، إلا أنه لم يغفل الزمن الحاضر ودوره في الهداية . ذلك أن القرآن الكريم هو الدستور الخالد والصالح لكل زمان ومكان ، يعيش مع الناس حياتهم خطوة بخطوة ، يبعث فيهم الأمل بالله فتنتعش نفوسهم ، ويربطهم بحبل الله المتين فتطمئن قلوبهم ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ .

وهكذا تواكب آيات الله حياتنا وتنظم مسارنا ، وتحدد اتجاهاتنا في المسار الصحيح ، ومن أمثلة الآيات التي تأخذ بأيدي الناس في حاضرهم الذي يعيشون فيه وتهديهم للتي هي أحسن قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَيْلِ وَالْيَمِينِ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكَُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكَُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (الأنعام : ١٥١ ، ١٥٢) .

نعم ، إن أعظم نعم الله علينا هي نعمة الإيمان بالله ووحدانته التي إذا خالطت شغاف القلوب حصل التوازن بين نزعات النفس الإنسانية ، وتحركت في إطار منتظم حيث أشبعت غريزتها الفطرية وانتفت جوعتها الروحية ، وبذا تنتظم في إطار سديد .

ثم قرن المولى عز وجل الأمر بوحدانته ببر الوالدين ، فقال تعالى : ﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾ تعظيماً لشأنهما .

وفي الوقت الذي اهتم فيه بالأصل لم يغفل أهمية الفرع ، فقال تعالى : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم من إملاق ﴾ ولتكتمل عمارة الكون ونعيش في مجتمع

متكامل سليم نظيف ، قال تعالى : ﴿ ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾ ^(١) .

ولما وصّاهم الله بالأسرة وصّاهم بالقاعدة التي تقوم عليها - كما يقوم عليها المجتمع كله ، وهي قاعدة النظافة والطهارة والعفة ، فمنهاهم عن الفواحش ظاهرها وخافئها .
إنه لا يمكن قيام أسرة ولا استقامة مجتمع في وحل الفواحش ، ما ظهر منها وما بطن

ولأن هذه الفواحش ذات إغراء وجاذبية شيطانيتين خبيثتين كان التعبير ﴿ ولا تقربوا ﴾ للنهي عن مجرد الاقتراب سداً للذرائع واتقاء

(١) ولعل ما ظهر من أمراض في هذا العصر (كالإيدز ، والهريس ، ونحوهما) نتيجة هذه الفواحش ظاهرة وباطنة تعليل صارخ على العواقب والكوارث التي تقع بكل من جانب شرع الله والمنهج الإيماني السليم .

يقول الإمام السيوطي رحمه الله : « ختمت الآية الأولى بقوله ﴿ تعقلون ﴾ ، والثانية بـ ﴿ تذكرون ﴾ ، والثالثة بـ ﴿ تتقون ﴾ ، لأن الوصايا التي في الآية الأولى إنما يعمل على تركها عدم العقل ، الغالب على الهوى ، لأن الإشراك لعدم استكمال العقل ، الدال على توحيده وعظمته ، وكذلك عقوق الوالدين لا يقتضيه العقل ، لسبق إحسانهما إلى الولد بكل طريق ، وكذلك قتل الأولاد بالوَاد من الإملاق ، مع وجود الرازق الحي الكريم .

وكذلك إتيان الفواحش لا يقتضيه عقل ، وكذلك قتل النفس لغيظ أو غضب في القتال ، فحسن بعد ذلك ﴿ يعقلون ﴾ .

وأما الثانية : فتعلقها بالحقوق المالية ، والقولية ، فإن من علم أن له أيتاماً قد يخلفه عليهم غيره من بعده لا يليق به أن يعامل أيتام غيره ، إلا بما يجب أن يعامل به أيتامه إذا مات ، ومن يكيل أو يزين أو يشهد لغيره لو كان ذلك الأمر له لم يجب أن يكون فيه خيانة ، وكذا من وعد لو وعد لم يجب أن يخلف ، ومن أحب ذلك عامل الناس به ليعاملوه بمثله ، فترك ذلك إنما يكون لغفلة عن تدبره وتأمله ، فلذلك ناسب الختم بقوله ﴿ لعلمكم تذكرون ﴾ .

أما الثالثة : فلأن ترك اتباع شرائع الله الدينية مؤد إلى غضبه وإلى عقابه ، فحسن ﴿ لعلمكم تتقون ﴾ أي : عقاب الله بسببه .

الإتقان في علوم القرآن - للإمام السيوطي - دار المعرفة بيروت ، الجزء الثاني (١٣٠) .

للجاذبية التي تضعف معها الإرادة ، لذلك حرمت النظرة الثانية .
وكان التبرج حتى بالتعطر في الطريق حراماً . وكانت الحركات
المثيرة ، والضحكات المثيرة ممنوعة في الحياة الإسلامية النظيفة .
فهذا الدين لا يريد أن يعرض الناس للفتنة ، ثم يكلف أعصابهم عتاً
في المقاومة ، فهو دين وقاية قبل أن يقيم الحدود ، وربك أعلم بمن خلق .
كذلك نعلم ما الذي يريده بهذا الدين ، وبالحياة المجتمع كله وبالحياة
الأسرة من يزينون للناس الشهوات ، ومن يطلقون الغرائز من معاقلها
بالكلمة ، والصورة ، والقصة ، والفيلم ، وبالمعسكر المختلط ، وبسائر
أدوات التوجيه والإعلام .

ويكثر في السياق القرآني مجيء النهي عن هذه المنكرات الثلاثة
متتابعة : الشرك ، والزنا ، وقتل النفس ، ذلك أنها كلها جرائم قتل في
الحقيقة ، الجريمة الأولى جريمة قتل للفطرة ، والثانية جريمة قتل
للجماعة ، والثالثة جريمة قتل للنفس المفردة^(١) .

وفي وصية لقمان لابنه منهجاً ودستوراً هادياً لحياة كريمة ملؤها الحب
والطمأنينة ، قال تعالى يحكي ما قاله لقمان وهو يوصي ابنه : ﴿ يَبْنِىْ أَقِمِ
الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ
الْأُمُورِ ۝١٧ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخَالٍ
فَخُورٍ ۝١٨ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾
(لقمان : ١٧ ، ١٩) .

يا بني أقم الصلاة إنها عمود الدين ، والصلاة تنهى عن الفحشاء
والمنكر فإذا ما تحقق الغرض وأقيمت الصلاة تحققت بقية الخلال المبنية على
إقامة الصلاة ، وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، واصبر على ما
أصابك لأن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد .
واعلم أن الالتزام بهذه الخلال يعد من عظام الأمور التي لا يلتزم بها
إلا أقوياء الإيمان وذوو الثبات على العقيدة .
﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ والصعر داء يصيب الإبل فيلوي

(١) في ظلال القرآن - سيد قطب - الطبعة العاشرة (١٢٣٠) .

أعناقها ، والأسلوب القرآني يختار هذا التعبير للتغفير من الحركة المشابهة للصعر ، حركة الكبر والازورار وإمالة الخد للناس في تعال واستكبار .
والمشي في الأرض مرحاً هو المشي في تخايل وقلة مبالاة بالناس ، وهي حركة كريمة يمقتها الله ويمقتها الخلق ، وهي تعبير عن شعور مريض بالذات ﴿ إن الله لا يحب كل مختال فخور ﴾ ، ومع النهي عن مشية المرح وبيان للمشية المعتدلة القاصدة : ﴿ واقصد في مشيك ﴾ والقصد هنا من الاقتصاد وعدم الإسراف وعدم إضاعة الوقت في التبخر والتشني والاختيال ، ومن القصد كذلك لأن المشية القاصدة إلى هدف لا تتلأ ولا تتخايل ولا تبخر ، إنما تمضي لقصدها في بساطة وانطلاق .

والغض من الصوت في أدب وثقة بالنفس واطمئنان إلى صدق الحديث وقوته ، وما يغلظ في الخطاب برفع صوته إلا سيء الأدب أو شاك في قيمة قوله أو قيمة شخصه ، يحاول إخفاء هذا الشك بالحدة والغلظة .

والأسلوب القرآني يرفض هذا الفعل ، ويقبحه في صورة منفرة محتقرة بشعة حين يعقب تعالى بقوله : ﴿ إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴾ .

فيرتسم مشهد مضحك يدعو إلى الهزء والسخرية مع النفور والبشاعة^(١) .

(١) في ظلال القرآن - سيد قطب - الطبعة العاشرة - (٢٧٨٩ و ٢٧٩٠) .

الزمن المستقبل في توجيهات القرآن

هذا وإذا كنا قد تعرضنا للزمن الماضي والحاضر واستعمالهما في مجال الهداية والتوجيه الماضي . . . من حيث الكشف عن حقيقة ماجرى للأمم الماضية عندما ضلت وحادت عن منهج الله والمصير الذي آلت إليه لناخذ منها العظة والعبر .

وأما عن الحاضر ، فما ترشدنا إليه آيات الله الهاديات مما ينظم حياتنا ويرشدنا إلى المنهج السليم ،

ومع ذلك كله فإن الآيات لم تغفل دور الحديث عن المستقبل بما يشتمل عليه من الهداية والتوجيه ، وإذا بآيات الله الهاديات تأخذ طريقها إلى الحديث عن المستقبل لتكمل بذلك دائرة الزمن من الماضي والحاضر والمستقبل .

وها نحن أمام مشاهد عديدة نتحدث عن حسن الخاتمة أو سوء الختام ، وكل هذا المصير أو ذاك هو نتيجة حتمية للسير على هدى الله أو مجافاته .

وقد ذخرت آيات الكتاب العزيز بهذه الصور التي تتحدث عن المصير المحتوم حيث النعيم المقيم أو العذاب الأليم . . .

قال تعالى : ﴿ حَقَّ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۚ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۚ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ۚ ۝۱۱۱ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۚ ۝۱۱۲ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ۚ ۝۱۱۳ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ۚ ۝۱۱۴ أَلَمْ تَكُنْ أَتَقَى تَتْلُو عَلَيْهِمْ فَاكْتُمُ بِهَا تُكَذِّبُونَ ۚ ۝۱۱۵ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ۚ ۝۱۱۶ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ۚ ۝۱۱۷ قَالَ اخْسَرُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ ۚ ۝۱۱۸ إِنَّهُمْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ۚ ۝۱۱۹ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ۚ ۝۱۲۰ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا إِنَّهُمْ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۚ ۝۱۲۱ قُلْ كَمْ لَيْسَتْ فِي الْأَرْضِ عِدَّةٌ

سِينَ ﴿١١٦﴾ قَالُوا لَيْتَنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَتَشَلَّ الْعَادِينَ ﴿١١٧﴾ قُلْ إِنْ لَيْسَ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٨﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿المؤمنون : ٩٩ ، ١١٥﴾ .

يبدأ المشهد هنا بمنظر الاحتضار ، وإعلان التوبة لدى قدوم الموت ، وطلب الرجعة إلى الدنيا لتدارك مافات ، وكأنما نحن شخوص نشاهد المنظر ، فإذا الرد على هذا التمني لا يوجه إلى صاحبه ، بل يوجه إلى النظارة عامة ! « كلاً إنها كلمة هو قائلها » ، فهي كلمة لا معنى لها ولا تجوز العناية بقائلها هي كلمة الموقف الرهيب ، فلا ثمرة لها ولا استجابة ، وهو هناك حيث فارقه الروح ، ﴿ ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ﴾ . ولا يطول المكوث ، فقد نفخ في الصور ، فاستيقظوا وقد تقطعت بينهم الروابط ﴿ فلا أنساب بينهم يومئذ ﴾ ، وشملهم الهول بالصمت فهم ساكنون لا يتحدثون ﴿ ولا يتساءلون ﴾ . ثم يعرض السياق ميزان الحسنات والسيئات مجسماً - كما مر في مشهد آخر - لايقف طويلاً ، فهناك مشهد جديد .

لقد تمت عملية الوزن هنا بسرعة وانتهت ، فلتتبع خطوات ﴿ الذين خسروا أنفسهم ﴾ هاهم أولاء ﴿ تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون ﴾ ، وهذا العذاب الحسي في كفة ، وما يلقونه من الإحراج والتبكيت في كفة أخرى ، فلنستمع لهذا الحوار الطويل : ﴿ ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون ؟ ﴾ وهنا يخيل إليهم أنهم مأذونون في الحديث ، مسموح لهم بالرجاء ، وأن الاعتراف قد يجدي في قبول الرجاء : ﴿ قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين ﴾ ، وهو اعتراف تبدو فيه المرارة والشقوة ، ﴿ ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون ﴾ ، وكأنما قد تجاوزوا حدّهم وأساءوا أديهم ، فلم يكن مأذوناً لهم إلا بالإجابة على قدر السؤال ، بل لعله سؤال لا يطلب عليه جواب ، فهم يُزجرون زجراً قاسياً عنيفاً : ﴿ قال : اخسؤوا فيها ولا تكلمون ﴾ احرصوا ، واسكتوا سكوت الأذلاء المهينين ، فإنكم لتستحقّون ما أنتم مقارفون ، ﴿ إنه كان فريق من عبادي يقولون : ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا

وأنت خير الراحمين ، فاتخذتموهم سخرية حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون ﴿ ، فلم يكن جرمكم أنكم قد كفرتم واقتصرتم على أنفسكم ، إنما بلغ بكم السفه أن تسخروا ممن يؤمنون وممن يرجون رحمة الله من المؤمنين ، وتضحكوا عليهم فانظروا : ﴿ إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون ﴿ .

ومشهد ثان نراه في سورة الزمر ، قال تعالى : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدُكُمْ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِيَةً مِن حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ (الزمر : ٧١ ، ٧٥) .

وهكذا يتجلى الموقف بتسجيل النتيجة الحتمية لكل فريق :

وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً ، هكذا يساقون كالقطيع إلى دار الكآبة والحزن ، حتى إذا ماوقفوا على الباب كانت الأسئلة تلاحقهم والتبكي يقرعهم : ﴿ ألم تأتكم رسلٌ منكم ينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ ﴿ قالوا : بلى ولكن لم يكن لنا في السعادة نصيب ، قيل : ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ، تفضلوا بالدخول ، فهنا الخلود وهنا الجزاء ، وهنا تصفية الحساب ، فبئس مَثْوًى المتكبرين .

وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها - زيادة في حسن التكريم وجلال الاستقبال - قال لهم الخزنة : ﴿ سلام عليكم ﴿ لا ينقطع البتة طبتم وطاب ممشاطكم ، فادخلوا مكرمين معززين خالدين إن شاء الله .

وفي حرية مطلقة يكون تبادل الخطاب ، قالوا : الحمد لله الذي

صَدَقْنَا وَعَدَهُ ، وَأَوْرَثْنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ، فَنُفَعُّمُ الثَّوَابَ
وَالْجِزَاءَ جِزَاءَ الْعَامِلِينَ ﴿ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ ﴿ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ
جِزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً ﴾ .

ثم يَخْتَمُ الْمَشْهَدُ بِمَا يُلْقَى فِي النَّفْسِ وَالْحَسَنِ رُوحَةً وَرَهْبَةً وَجَلَالاً تَتَسَّقُ
مَعَ الْمَشْهَدِ كُلِّهِ ، وَتَخْتَمُهُ خَيْرُ خَتَامٍ : ﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ
الْعَرْشِ يَسْتَبِحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ، وَقُضِيَ بَيْنَهُمُ بِالْحَقِّ ، وَقِيلَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ ﴾ .

فَإِذَا مَا انْتَهَتْ السُّورَةُ فَكَأَنَّمَا سَدَلَ السُّتَارَ عَلَى الْمَشْهَدِ وَفِي الْعَيْنِ مِنْهُ
بَقِيَّةٌ ، وَالْخَيَالُ يَسْتَعْرِضُهُ وَيَتَمَلَّأُهُ ، وَالْحَسَنُ مُسْتَغْرَقٌ فِي طَيُوفِهِ وَرَوْاهُ ^(١) .
وَهَكَذَا تَتَعَدَّدُ ^(٢) الْمَشَاهِدُ ، وَهِيَ تَحْكِي لَنَا صَوْرًا عَمَّا سَيَحْدُثُ فِي
الْمُسْتَقْبَلِ ، كُلُّ هَذَا فِي إِطَارِ تَصْوِيرِ النَتَائِجِ الْمُرْتَبَةِ عَلَى الْأَعْمَالِ وَأَنَّ كُلَّ
أَمْرٍ مَجْزِيٍّ بِعَمَلِهِ : إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ . . .
وَهَكَذَا كَانَ لِلْعَنْصَرِ الزَّمَانِيِّ دَوْرُهُ فِي تَوْجِيهَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ الَّذِي
بَلَغَ الذَّرْوَةَ فِي الْهَدَايَةِ وَالْإِرْشَادِ .

(١) مشاهد القيامة في القرآن - سيد قطب - الطبعة السابعة (١٧١) .

(٢) والعجيب حقاً أن تعدد هذه المشاهد - وأساسها واحد - لم ينشأ نوعاً من
التكرار ، فكل مشهد يختلف عن سابقه في كلياته أو جزئياته ، وذلك لون من
الإعجاز شبيه بالإعجاز في خلق الملايين من الناس ، كلهم ناس ، ولكن لكل
سحنة وسمه في هذا الخلق الإلهي العجيب !!!

مشاهد القيامة في القرآن (١٠) الطبعة السابعة .

الفصل الثاني

عنصر المكان في الهداية والتوجيه

الكعبة ودورها في الهداية والتوجيه

وكما تحدثنا عن دور الزمان في توجيهات القرآن ، فإن عنصر المكان هو الآخر لم يكن أقل أهمية في إبراز دور الهداية القرآنية ، حيث تحدث القرآن عن دور المكان وما يشغله من حيز في الهداية والتوجيه والارتباط بالتشريع الكريم .

والحديث عن الأماكن في القرآن الكريم ودورها في الهداية والتوجيه متنوع ومتعدد

ومن أشرف الأمكنة التي تحدث القرآن عنها بيت الله الحرام ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴾ (١٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ عَلِيمٌ ﴾ (آل عمران : ٩٦ ، ٩٧) .

وقال تعالى ﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهُدًى وَالْقَلِيدَ ذَلِكَ لِيَتَلَمَّذُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (المائدة : ٩٧) .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا وَانْخَضُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ وَعِهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ (١٢٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَتِيسَ الْمَصِيرُ ﴾ (١٢٦) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (البقرة : ١٢٥ ، ١٢٨) .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتِ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ فِي شَيْءٍ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ (٢٦) وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا أَنَّمَا اللَّهُ فِي أَيَّامِ مَقْلُومَتِي عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكَلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْبَاسِ الْفَقِيرَ ﴾ (٢٨) ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا

نَذُورَهُمْ وَلِيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٦﴾ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ حُرْمَتَ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ
لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأَجَلْتُ لَكُمْ الْأَنْعُمَ إِلَّا مَا يَتَلَنَ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا
الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٢٧﴾ (الحج : ٢٦ ، ٣٠) .

إذن فالغرض الرئيسي من هذه المعالم هو ارتباط المخلوق بالخالق في
أقدس البقاع وأحبها إلى الله : ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت
واسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾ .

وهكذا نجد أن المغزى من حرص إبراهيم على رفع القواعد من البيت
هو توثيق الصلة بين المولى وعباده في هذا المعلم الخالد الذي ترتبط به أفئدة
المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، وليكون القبلة والحبل الوثيق بين
الخالق وعباده في أروع مظاهر التقديس وأسمائها ، ثم الحرص على أن يكون
مصدر الطمأنينة والثقة بين الخالق والمخلوق ﴿ ومن دخله كان آمناً ﴾ ،
﴿ وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً ﴾ .

وهكذا فالأمان المتحصّل في الدنيا لمن دخل هذا البيت هو صورة
للأمان الآخروي لمن استشرفت نفسه لهذه البقاع وحرصت روحه على
التعلق بها ، ثم هو ميدان الطهر والذكر ﴿ وطهر بيتي للطائفين ﴾
﴿ ليذكروا اسم الله في أيام معلومات ﴾ .

وهكذا نستجلي منابع الهداية في هذا المكان العظيم والمعلم الخالد
بيت الله العتيق ، مهوى أفئدة المسلمين ومنطلق تجمعهم واعتصامهم
بحبل الله ، والسير على نهجه وهداه ﴿ ثم ليقيموا تقىهم ﴾ في أعظم تجمع
إيماني ومؤتمر روحي ﴿ وليؤفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق ﴾ .

وما تزال أفئدة من الناس تهوي إلى البيت الحرام ، وترفّ إلى رؤيته
والطواف به ، وستظل كذلك إلى الأبد .

ويقدم الحجيج من كلّ فجّ ومن كلّ قطر ، يتجمّع كله في البلد الحرام
في موسم واحد ، فهو موسم تجارة ومعرض نتاج ، وسوق عالمية تقام في
كل عام .

موسم عبادة تصفو فيه الأرواح ، وهي تستشعر قربها من الله في بيته
الحرام ، وهي ترفّ حول هذا البيت وتستروح الذكريات التي تحوم عليه

وتترف كالأطراف من قريب ومن بعيد .

والحج بعد ذلك مؤتمر جامع للمسلمين قاطبة . مؤتمر يجدون فيه أصلهم العريق الضارب في أعماق الزمان منذ أبيهم إبراهيم الخليل وآدم عليهما السلام ، ﴿ ملّة أبيكم إبراهيم هو سماءكم المسلمين من قبل ﴾ ، ويجدون محورهم الذي يشدهم جميعاً إليه : هذه القبلة التي يتوجهون إليها جميعاً ويلتقون عليها جميعاً . . . ويجدون رأيهم التي يفيثون إليها راية العقيدة الواحدة التي تتوارى في ظلها فوارق الأجناس والألوان والأوطان ، ويجدون قوتهم التي قد ينسونها حيناً ، قوة التجمع والتوحد والترابط الذي يضم الملايين ، الملايين التي لا يقف لها أحد لو فاءت إلى رأيها الواحدة التي لا تعدّد . . . راية العقيدة والتوحيد .

وهو مؤتمر للتعارف والتشاور وتنسيق الخطط وتوحيد القوى ، وتبادل المنافع والسلع والمعارف والتجارب وتنظيم ذلك العالم الإسلامي الواحد الكامل المتكامل مرة في كل عام في ظلّ الله بالقرب من بيت الله وفي ظلال الطاعات البعيدة والقريبة ، والذكرات الغائبة والحاضرة في أنسب مكان وأنسب جو وأنسب زمان^(١) .

(١) في ظلال القرآن - سيد قطب - المجلد الرابع (٢٤١٨) الطبعة العاشرة .

مهبط الوحي ودار الهجرة ودورهما في الهداية والتوجيه

بل لا أدل على أهمية المكان ودوره في مجريات أحداث الحياة أن الخالق عز وجل قد فضل بعض الأمكنة على بعض لما تقوم به من دور هام في ارتباط القلوب وجمع الشمل .

فمكة المكرمة وفيها بيت الله العتيق قد شملها التكريم الإلهي ، فهي هو المولى عز وجل يقسم بها تكريماً لشأنها : ﴿ وَهَذَا الْبَلَدُ الْأَمِينُ ﴾ (التين : ٣) ، ﴿ لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۚ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ (البلد : ١ ، ٢) ، وحظر على غير المسلمين الاقتراب منها لما تحمله من طابع مقدس ، ففيها الحرم ، وإليها تصبو الأفئدة والقلوب تعلقاً بخالقها حيث القبلة المشرفة والمشاعر المقدسة ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة : ٢٨) .

وقال تعالى : ﴿ وَاللَّيْنِ وَالزَّيْتُونِ ۚ وَطُورِ سِينِينَ ۚ وَهَذَا الْبَلَدُ الْأَمِينُ ﴾ (التين : ١ ، ٣) (١) .

فأقسم المولى عز وجل بهذه الأماكن الثلاثة ، أقسم « بالتين والزيتون » ، وهي إشارة إلى بيت المقدس مسقط رأس المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ، « طور سينين » وهو الجبل الذي كلم عليه المولى عز وجل نبيه موسى عليه السلام .

كما أقسم « بهذا البلد الأمين » ، وهي مكة المكرمة بلد سيد المرسلين وإمام المتقين سيدنا رسول الله ﷺ .

(١) جاء في التوراة ذكر هذه الأماكن الثلاثة ، جاء الله من طور سيناء يعني الذي كلم الله عليه موسى بن عمران - وأشرق من ساعير - يعني جبل المقدس الذي بعث الله منه عيسى بن مريم - واستعلن من جبال فاران - يعني جبال مكة التي أرسل الله منها محمداً ﷺ فذكرهم مخبراً عنهم على الترتيب الوجودي حسب ترتيبهم في الزمان ، ولهذا أقسم بالأشرف ثم الأشرف منه ثم بالأشرف منهما .
تفسير ابن كثير الجزء الرابع (٥٢٦) .

وقد أقسم المولى عز وجل بهذه الأمكنة تشریفاً لقدرها وتكريماً لها
لارتباطها بهؤلاء السادة من أولي العزم من الرسل عليهم السلام وعلى نبينا
أفضل الصلاة والسلام .

وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ
وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ
خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوَفِّ شَخْ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (الحشر : ٩) .

﴿ والذين تبوؤوا الدار ﴾ ، أي : دار الهجرة مدينة الرسول ﷺ
وهو تعبير ذو ظلال ، وهو أقرب ما يصور موقف الأنصار من الإيمان ،
وكأنه منزل لهم ودار .

لقد كان دارهم ومنزلهم ووطنهم الذي تعيش فيه قلوبهم وتسكن إليه
أرواحهم .

﴿ يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ﴾
ولم يعرف تاريخ البشرية كله حادثاً جماعياً كحادث استقبال الأنصار
للمهاجرين ، بهذا الحب الكريم وبهذا البذل السخي ، وبهذا التسابق إلى
الإيواء واحتمال الأعباء ، حتى ليروى أنه لم ينزل مهاجر في دار أنصاري إلا
بقرعة ، لأن عدد الراغبين في الإيواء المتزاحمين عليه أكثر من عدد
المهاجرين .

﴿ ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ﴾ مما يلقي ظلال النظافة
الكاملة لصدورهم والبراءة المطلقة لقلوبهم .

﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ والإيثار على النفس
مع الحاجة قمة عليا ، وقد بلغ الأنصار في كرم النفس مبلغاً لم تشهد البشرية
له نظيراً في ماضيها ولا حاضرها ولا مستقبلها ﴿ ومن يوق شخ نفسه
فأولئك هم المفلحون ﴾ بذل في المال ، وبذل في الروح ، وبذل في المهج ،
وبذل في العاطفة ، وهذا هو الفلاح في حقيقته ومعناه .

إنها صورة باهرة تمثل حقيقة قائمة ، كما تمثل أرفع وأكرم مثال
للإنسانية يتصوره قلب كريم صورة تبدو كرامتها ووضاءتها على أتمها حين
تقرن مثلاً إلى صورة الحقد الذميم ، والهدم اللثيم التي تمثلها وتبشر بها

الشيوعية في إنجيل كارل ماركس صورة الحقد الذي ينغل في الصدور ، وينخر في الضمير على الطبقات وعلى أجيال البشرية السابقة ، وعلى أممها الحاضرة التي لاتعتنق سوى الحقد الطبقي الذميم ، ونظائرها في تحريفات اليهود والنصارى للتوراة والإنجيل .

صورتان لا التقاء بينهما في لمحة أو سمة أو لمسة ، ولا ظلال : صورة ترفع البشرية إلى أعلى مراقيها ، وصورة تهبط بها إلى أدنى دركاتهما .

صورة تمثل الأجيال من وراء الزمان والمكان والجنس والوطن والعشيرة والنسب متضامنة مترابطة متكافلة متوادة متعارفة صاعدة في طريقها إلى الله بريئة الصدر من الغل طاهرة القلوب من الحقد .

وصورة تمثل البشرية أعداء متناحرين يلقي بعضهم بعضاً بالحقد والدغل والغش والخداع والالتواء حتى وهم في المعبد يقيمون الصلاة ، فالصلاة ليست سوى أحبولة ، والدين كله ليس إلا فخاً ينصبه أصحاب رأس المال للكادحين ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (الحشر : ١٠) .

هذه هي قافلة الإيمان ، وهذا هو دعاء الإيمان ، وإنها لقافلة كريمة وإنه لدعاء كريم^(١) .

(١) في ظلال القرآن - لسيد قطب - الطبعة العاشرة (٣٥٢٦) .

المساجد ودورها في الهداية والتوجيه

ولعل الحديث عن بيوت الله ، وقد وجد فيه القرآن الكريم منبر هداية وإشعاع أمان حتى استفاض في الحديث عن هذه المحافل النورانية القدسية ، والتي يتواصل فيها لقاء الأرض بالسماء حتى قال تعالى : ﴿ فِي بُيُوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۖ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ۚ لِيَجْزِيَ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۚ ﴾ (النور : ٣٦ ، ٣٨) .

تلك البيوت ﴿ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ ﴾ - وإذن الله هو أمر للنفاذ - فهي مرفوعة قائمة ، وهي مطهرة رفيعة يتناسق مشهدها المرفوع مع النور المتألق في السموات والأرض ، وتناسق طبيعتها الرفيعة مع طبيعة النور السني الوضيء ، وتتهيا بالرفعة والارتفاع لأن يذكر فيها اسم الله ﴿ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ ، وتتسق معها القلوب الوضيئة الطاهرة المستبحة الواجفة المصلية الواهية قلوب الرجال الذين ﴿ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ﴾ والتجارة والبيع لتحصيل الكسب والثراء ، ولكنهم مع شغلهم بهما لا يغفلون عن أداء حق الله في الصلاة وأداء حق العباد في الزكاة ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ ، تتقلب فلا تثبت على شيء من الهول والكرب والاضطراب ، وهم يخافون ذلك اليوم فلا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، وهم مع هذا الخوف يعلقون رجاءهم بثواب الله ﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۚ ﴾ (١) .

وأما ثالث المساجد التي نص الشارع على الاهتمام بها حتى قرن شد الرحال إليها بشد الرحال إلى المسجد الحرام والمسجد النبوي ، ذلك هو أولى القبليتين وثالث الحرمين الشريفين المسجد الأقصى مسرى النبي ﷺ قال

(١) في ظلال القرآن - سيد قطب - الطبعة العاشرة (٢٥٢٠) .

تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا حَوْلَهُ لِنُبَيِّنَ لِرَبِّهِ مِنْ ءَايَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (الإسراء : ١) .

نعم ذلكم هو المسجد الأقصى في بيت المقدس الذي لازالت وللأسف الشديد تمتد إليه يد العدوان الصهيوني البغيض محاولة تدنيس مقدسات المسلمين ، والتعرض لها بالإساءة إلى المصلين ، ومحاولة إحراق المسجد بحجة البحث عن هيكل سليمان عليه السلام ، وهذا ليس غريباً من اليهود الذين مافتتوا يسيثون إلى كل شيء مقدس ، فافتراءاتهم على ربهم وأنبيائهم^(١) قديمة عتيقة . وأخيراً دخولهم إلى هذه الأرض وادعاءهم أنها الأرض الموعودة ، والله يعلم إنهم لكاذبون يحاولون تشويه الحقائق واغتصاب الأرض وطرد السكان الأصليين وترويع المؤمنين والاستهتار بالقيم والمعتقدات ، وإننا لنرجو من الله أن يعيد الحق إلى نصابه وأن يسترد المسلمون حقهم المغتصب وأن ينصر الله المؤمنين ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء . . .

﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً ﴾ : تبدأ السورة بتسبيح الله أليق حركة نفسية تتسق مع جو الإسراء اللطيف ، وأليق صلة بين العبد والرب في ذلك الأفق الوضيء .

وتذكر صفة العبودية ﴿ أسرى بعبده ﴾ لتقريرها وتوكيدها في مقام الإسراء والعروج إلى الدرجات التي لم يبلغها بشر ، وذلك كي لاتنسى هذه الصفة ، ولايلتبس مقام العبودية بمقام الألوهية كما التبسا في العقائد المسيحية بعد عيسى عليه السلام بسبب ما لابس مولده ووفاته ، وبسبب الآيات التي أعطيت له فاتخذها بعضهم سبباً للخلط بين مقام العبودية ومقام الألوهية ، وبذلك تبقى للعقيدة الإسلامية بساطتها ونصاعتها وتنزيهاها

(١) جاءوا يوماً إلى المسيح عيسى بن مريم عليه السلام فقالوا له : يا روح الله ، ماذا نقول في هذه الدنانير التي يأخذها منا ملوك الروم ؟ وهم يريدون بهذا أن يوقعوا بينه وبين ملوك الروم ليقتلوه إذا قال : إنها إتاوة فلا تدفعوها لهم . فقال المسيح عليه السلام : « أدوا ما لقيصر لقيصر ، وأدوا ما لله لله » هذه صورة من صور المكر اليهودي البغيض ا وعلى من ؟ على نبي كريم !!

للذات الإلهية عن كل شبهة أو شرك من قريب أو من بعيد .
والإسراء : من السرى ، وهو السير ليلاً ، فكلمة « أسرى » تحمل
معها زمانها ، ولا تحتاج إلى ذكره ، ولكن السياق ينص على الليل ﴿ سبحان
الذي أسرى بعبده ليلاً ﴾ للتظليل والتصوير على طريقة القرآن الكريم ،
فيلقى ظلّ الليل الساكن ، ويخيم جوّه الساجي على النفس وهي تتملى حركة
الإسراء اللطيفة وتتابعها .

والرحلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى رحلة مختارة من اللطيف
الخبير تربط بين عقائد التوحيد الكبرى من لدن إبراهيم وإسماعيل عليهما
السلام إلى محمد خاتم النبيين ﷺ ، وتربط بين الأماكن المقدسة لديانات
التوحيد جميعاً ، وكأنما أريد بهذه الرحلة العجيبة إعلان وراثته الرسول الخاتم
عليه السلام لمقدسات الرسل قبله عليهم السلام ، واشتمال رسالته على هذه
المقدسات وارتباط رسالته بها جميعاً ، فهي رحلة ترمز إلى أبعد من حدود
الزمان والمكان ، وتشمل آماداً وآفاقاً أوسع من الزمان والمكان .

والنقلة العجيبة بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى في البرهة
الوجيزة التي لم يبرد فيها فراش رسول الله ﷺ آية من آيات الله تفتح القلب
على آفاق عجيبة في هذا الوجود^(١) .

(١) في ظلال القرآن - سيد قطب - الطبعة العاشرة (٢٢١٢) .

والعجيب في أمر الإسراء أن سيدنا رسول الله ﷺ لم يتخذها حجة على نبوته على
الرغم من حرص القوم على الأدلة المادية ، فلم يكن جهر رسول الله بها ناشئاً عن
اعتماده عليها في شيء من رسالته ، وإنما كان جهرّاً بالحقيقة المستيقنة .

وبالرغم من غرابة هذه الحادثة إلا أن أبا بكر حينما بلغه الخبر بواسطة أبي جهل قال
له : إن كان قالها رسول الله ﷺ فقد صدق : من هنا سمى أبو بكر الصديق .

أما المطعم بن عدي فقال : كان أمرك قبل اليوم أمراً يسيراً ، فإذا بك اليوم تعجب
وتغرب ! نحن نضرب أكباد الإبل إلى بيت المقدس ، نصعد شهراً ، وننحدر شهراً ،
وأنت تزعم أنك أتيت في ليلة واحدة ، واللات والعزى لا أصدقك أشهد أنك كاذب .

ولعل الحادثة كانت اختباراً حقيقياً للنفوس تحص الله بها النفوس الخيرة من
الشريرة ، فأما من لا خير فيه فلعل من الخير أن يخرج من صفوف المسلمين إذ لا نفع لهم
في مذبذب مضطرب .

الجبال

والجبال من الأماكن التي لفت الله الأنظار إليها . . . هداية وعبرة لأولي البصائر والأبصار ، وهنا أيضاً تتعدد الآيات التي تتحدث عن الجبال .

قال تعالى : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الحشر : ٢١) .

وقوله تعالى : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ (الأنبياء : ٧٩) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرِنِي وَلَكِنِ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ ثُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ^(١) (الأعراف : ١٤٣) .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (الأحزاب : ٧٢) .
في كل هذه الآيات نجد أن الجبال وهو الجبل يتفاعل في حركة حية فهو يحس وهو يستشعر مدى المسؤولية وخطر المهمة ، فهو في مراقبة مستمرة لربه عز وجل خاشعاً متضرعاً مسبحاً . . . ﴿ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ ، وهو يعلم خطر الأمانة وعظم المسؤولية لذلك أشفق من تحملها وتبرأ منها .

(١) ﴿ فلما تجلَّى ربه للجبل جعله دكاً ﴾ تراباً ﴿ وخر موسى صعباً ﴾ مغشياً عليه ، وقيل : بل انقعر الجبل فدخل تحت الأرض فلا يظهر إلى يوم القيامة . وفي الحديث عن رسول الله - ﷺ - « لا تخيروني من بين الأنبياء ، فإن الناس يصعقون يوم القيامة ، فأكون أول من يفيق ، فإذا أنا بموسى أخذ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور » .

راجع تفسير ابن كثير الجزء الثاني (٣٤٥) ط ١٣٨٨ هـ - دار إحياء التراث العربي - بيروت .

وهذه صورة من صور الهداية القرآنية التي اتضحت جلياً في هذا الطود من مخلوقات الله سبحانه ، والتي تحكي مدى تأثر هذه الكائنات وإحساسها بعظم الحدث وفداحة المسؤولية ، فهي خاضعة خاشعة مشفقة ترجو الثواب وتخشى العقاب .

وفي نفس الوقت تخاطب النفوس البشرية بجلال الموقف وأن النجاة إنما هي في السير على منهج الله والاهتداء بهداه ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾ .

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ (الحج : ١٨) .

البحر

والبحر : أيضاً شهد من الآيات العظام والأحداث الجسام ما جعله مجالاً خصباً للاعتبار .

قال تعالى : ﴿ فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴾ (١٠) فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَذْكُونٌ ﴿ ١١ ﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿ ١٢ ﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿ ١٣ ﴾ وَأَزَلْنَا تَمَّ الْآخِرِينَ ﴿ ١٤ ﴾ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿ ١٥ ﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴿ ١٦ ﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿ ١٧ ﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿ (الشعراء : ٦٠ ، ٦٨) .

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا تُخْشَى ﴾ (٧٧) فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿ ٧٨ ﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى ﴿ (طه : ٧٧ ، ٧٩) .

نعم لقد أفصح النهار لذي عينين وتبين بنو إسرائيل الغي من الرشاد ، وأن ماجاء به موسى هو الحق فانحازوا إليه يلتمسون منه الرحمة والهداية ، وهم الذين عانوا سوء الخسف وسيموا سوء العذاب .

وسار موسى بقومه أول الليل إلى الأرض المقدسة ، وقد سهل الله لهم الطريق إليها فساروا سيراً حثيثاً ، فلما قطعوا رقعة اليابسة إذا بهم أمام بحر لحي يقف حائلاً وفرعون من ورائهم ، فأيقنوا بالهلاك فتقدم موسى فضرب البحر بعصاه فانفلق ، فكان كل فرق كالطود^(١) العظيم ، وصار فيه اثنا عشر طريقاً لكل سبط^(٢) طريق ، فقال كل سبط : هلك أصحابنا ، فأمر الله الماء فصار كالشباك ، فكان كل سبط يرى من عن يمينه وعن شماله حتى خرجوا .

ودنا فرعون وأصحابه من البحر ، فرأى الماء على هيئته والطرق فيه ، فقال لأصحابه : ألا ترون البحر قد فَرَّقَ مني وانفتح لي حتى أدرك أعدائي ، فلما وقف فرعون على الطريق لم تقتحمه خيله ، فنزل جبريل على

(١) الطود : الجبل .

(٢) السبط : الفريق من اليهود .

فرس أنتى وديق^(١) فشمت الحصن رائحتها ، فاقتحمت على أثرها حتى إذا هم أولهم أن يخرج ودخل آخرهم ، انطبق عليهم فأغرقهم أجمعين فصاروا مثلاً للآخرين .

وفي هذا الوقت العصيب الذي تترأى فيه الحقائق للعيان وحين لا ينفع نفس إيمانها قال فرعون : ﴿ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (يونس : ٩٠) ، ولكن هيهات ولات ساعة مندم ﴿ ءَلَكُنَّ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (يونس : ٩١) .

وهنا عادت غريزة تأصلت في نفوس بني إسرائيل وباطل تمكن من قلوبهم فإذا بهم يقولون : إن فرعون لم يمت ، فدعا موسى ربه (فأخرج الله فرعون غريقاً ، فأخذه بنو إسرائيل يتمثلون به) . ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾ (يونس : ٩٢) .

(١) أنثى وديق : « يقال لذات الخافر إذا اشتهد الفحل أنثى وديق » .
الكامل في التاريخ - لابن الأثير - الطبعة الثانية - المجلد الأول (١٠٦) .
يقول جبريل عليه السلام : لو رأيتني وأنا أدس من حاة البحر في فم فرعون ،
خفاة أن يقول كلمة يرحم الله بها .

القرى

كما حكى القرآن لنا حال القرى وما حل بأهلها ، وكيف أن الجزاء من جنس العمل ، فمن أحسن فله جزاء الحسن ، ومن أساء كان له سوء الخاتمة ، وهكذا ﴿ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ (النجم : ٣٩) .

حكى لنا المولى عز وجل حال تلك القرية التي كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله عليها وجحدت اليد التي امتدت إليها بالإحسان ، وقابلت الشكر بالكفر ، قال تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ (النحل : ١١٢ ، ١١٣) .

وكما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ﴾ (الشعراء : ٢٠٨ ، ٢٠٩) .

وقال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقَرْيَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ (١٠٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ تَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴿١٠٧﴾ وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُعَدودٍ ﴿١٠٨﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلُمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٩﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١١٠﴾ خَلِيلَيْنِ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿١١١﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فِي الْجَنَّةِ خَلِيلَيْنِ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ يُجْذَوْنَ ﴿١١٢﴾ (هود : ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢) .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقَرْيَ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ (هود : ١١٧) .

وقال تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَنَلَكَ مَسَكِنُهُمْ لَمْ تَسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾ (٥٨) وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقَرْيَ حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ؕ أَيْنَتُنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقَرْيَ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾ (القصص : ٥٨ ، ٥٩) .

وقال تعالى : ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوْ
 آمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا
 يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (الأعراف : ٩٧ ، ٩٩) .

وهكذا يستبين لنا مما تقدم من آيات أن الجزاء من جنس العمل وأن
 من عمل شيئاً فهو مجزيٌّ به ، وأن القرى عندما كفرت بأنعم الله أذاقها
 لباس الجوع والخوف ، من هذه القرى مكة المكرمة ، فقد كانت آمنة مطمئنة
 يأتيها رزقها رغداً تجيء إليها ثمرات كل شيء في هناءة ورغد ، فكفرت
 بأنعم الله ، ومن أعظم هذه النعم نعمة الإسلام وبعثة سيد الأنام .
 ولكنهم قابلوا هذه النعم بالجحود والكفران ، قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَر
 إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ
 الْقَرَارُ ﴾ .

فماذا كانت النتيجة ؟ الجوع والخوف ، الجوع حيث دعا عليهم
 رسول الله بسبع كسبع يوسف سنين عجافاً أكلت الأخضر واليابس .
 والخوف فكانوا يخافون رسول الله ﷺ بعد الهجرة ، وظلَّت حالهم
 أسوأ حال ، ذلك بكفرهم وعنادهم وجحدهم للنعم .
 وعلى النقيض كان حال المؤمنين ، فقد أبدل الله خوفهم آمناً ورزقهم
 بعد العيلة ، وجعلهم أمراء وحكاماً ، وهكذا فالجزاء من جنس العمل .
 وكما قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا
 مَصْلُحُونَ ﴾ . ﴿ وَمَا كُنَّا مَهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾ .
 وأما المؤمنون فلهم الجزاء الأوفى كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ
 ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا
 كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (الأعراف : ٩٦) .

وكما قال تعالى : ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ
 لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (يونس :
 ٩٨) .

فلأن قوم يونس عليه السلام في قرية نينوى من أرض العراق خرج لهم
 يونس بن متى نبياً ، فدعاهم إلى الله عز وجل ولكنهم لم يجيبوه إلا بمكابرة

الغوغاء المتعنتين وردوا دعوته وكفروا بها ، فلما لم يجد لدعوته أذنًا صاغية لم يطق صبراً حتى خرج مغاضباً لقومه ، وهنا وافتهم نذر العذاب واقتربت منهم طلائع الهلاك فاغترّ الجو من حولهم واربذ ثم تغيرت ألوانهم ، وهنا داخلهم الفزع والخوف وعلموا أن دعوة يونس حقا وقوله صدقا ، فبحثوا عنه فلم يجدوه ووقع في أنفسهم أن يخرجوا إلى شعاف الجبال ويطون الأودية باكين مستغفرين ، وفرقوا بين الأمهات وأطفالها ، والإبل وفصلائها ، والبقر وأولادها ، والغنم وحملاتها ، ثم أعول الجميع فصاحت الأمهات ورغت الإبل وخارت البقر وثغت الغنم ، وكانت ساعة بسط الله عليهم فيها رحمته ورفع عنهم سحائب نقمته ، وتقبل منهم التوبة والإنابة إذ كانوا صادقين في إيمانهم ، فرجعوا إلى دورهم آمنين مؤمنين وتمنّوا لو كان يونس عليه السلام بينهم .

أما يونس فقد ركب البحر ، وفي لجة البحر تضاربت الأمواج وأرغى البحر وأزبد ، فقال ريان السفينة : إن في السفينة رجلاً عاصياً ، وعملت القرعة فخرجت على الرجل الصالح يونس بن متى ، فتردّد القوم وهم يكررون القرعة وهي تصيبه ، حينئذ أدرك يونس غلظته في العجلة ومغادرة القوم ، وهنا يقذف في البحر فيلتقمه الحوت ، ويظلّ راکعاً في جوفه ساجداً مسبحاً حتى عفى الله عنه وأمر الحوت بقذفه على اليابسة ، قال تعالى : ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ الْمُسَبِّحِينَ لِلْبَيْتِ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ .

وهنا أنبت الله عليه شجرة من يقطين ، وبعد أن تمت له العافية عاد إلى قومه فوجدهم في انتظاره ، وماراعه إلا أنه خلفهم وليس فيهم إلا من هو عاكف على الأصنام ، وعاد إليهم وما فيهم إلا ألسنة تلهج بذكر الرحمن .

قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (١٢٤) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٢٥﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٢٦﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٢٧﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٢٨﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٢٩﴾ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٣٠﴾ وَأَبْلَسْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ ﴿١٣١﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٣٢﴾ فَآمَنُوا

فَسَتَّعْتَهُمْ إِلَى حِينٍ ﴿١﴾ (الصافات : ١٣٩ ، ١٤٨) .

وهكذا فالجزاء من جنس العمل . . .

أيضاً وجدنا أن القرآن الكريم حينما تحدّث عن عنصر المكان بمختلف جهاته في البر والبحر ، في السهل والوعر ، في الجبل والوادي ، في السماء والأرض ، في القرية والمسجد ، اتخذ من كل هذه الأمكنة شاهداً ودليلاً على أن الجزاء من جنس العمل ، وأن كل هذه الأمكنة جاءت تحمل في طياتها الهداية والعظة والاعتبار .

(١) « فَأَمَّنُوا فَمْتَغْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ » : يذكر أن شخصاً أقسم أن لا يقرب زوجه حيناً من الزمان ، فأتى رسول الله ﷺ يسأله فوجده نائماً ، فذهب إلى دار الصديق فقال له : لا تقربها العمر كله ، فأتى الفاروق فقال له : لا تقربها أربعين عاماً ، فذهب إلى ذي النورين ، فقال له : لا تقربها عاماً كاملاً ، فأتى أبا الحسنين فقال له : لا تقربها يوماً وليلة . . . فأتى رسول الله ﷺ علّه يجد عنده رخصة أيسر من يوم وليلة ، فأخبره القصة ، فقال له الرسول : ادع أصحابي ، فدعاهم ، فقال له : من أين يا أبا بكر هذا الجواب ؟ قال من قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّنُوا فَمْتَغْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾ أي : إلى حين انقضاء آجالهم ، وأنت يا عمر ؟ قال : من قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً ﴾ ، وآدم مكث طينة على باب الجنة أربعين عاماً . وأنت يا عثمان ؟ قال : من قوله تعالى : ﴿ تَوَدَّى أَكُلَهَا كُلَّ حِينٍ يُبَاذَن رَّبَّهَا ﴾ ، والنخلة تطرح في العام مرة واحدة فقلت له : لا تقربها عاماً كاملاً ، وأنت يا علي ؟ قال : من قوله تعالى : ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ وَعَشِيّاً وَحِينَ تُظْهِرُونَ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ . . ﴾ .

فقال سيدنا رسول الله ﷺ ﴿ خذ برأي علي فهو أيسر لك ﴾ ثم قال ﷺ : « أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » . .

الجنة والنار

فإذا ما انتقلنا إلى مشاهد القيامة والدار الآخرة ، وجدنا ما تحمله هذه الصور من ظلال محبة للنفوس في ذكر الجنة وما أعد الله للمتقين من ثواب .
قال تعالى : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۖ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۖ ﴿٨﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٩﴾ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً ﴿١٠﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١١﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٢﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٤﴾ وَزَوَاجٌ مِّثْنَةٌ ۖ ﴿١٥﴾ (الغاشية : ٨ ، ١٦) .

وقال تعالى : ﴿ وَأَزْلَفَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ ﴿٣٢﴾ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَّهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ۖ ﴿٣٥﴾ (ق : ٣١ ، ٣٥) .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ۖ ﴿١٠٨﴾ (الكهف : ١٠٧ ، ١٠٨) .

وقال تعالى : ﴿ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّاتٍ عَدْنٍ مُّفْتَحَةٌ لَّهُمْ ﴿٥٠﴾ الْأَبْوَابُ ﴿٥١﴾ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَكَهْمٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥٢﴾ وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْطَّرَفِ ﴿٥٣﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمٍ الْحِسَابِ ﴿٥٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَكُمْ مِنْ قَدَافٍ ﴿٥٥﴾ (ص : ٤٩ ، ٥٤) .

وقال تعالى : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِئِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾ (الزمر : ٧٣ ، ٧٥) .

وقال تعالى : ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَى سُرُرٍ مَوْضُوعَةٍ ﴿١٥﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخْلَدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِنْ مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَا يَصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَكَهَمَتِ مِمَّا يَخْتَارُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَخُورٌ عَيْنٍ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَلِ اللَّوْلِيِّ الْمَكُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ فِي سِدْرٍ

مَنْصُورٌ ﴿٢٨﴾ وَطَلَحَ مَنْصُورٌ ﴿٢٩﴾ وَظَلَّ مَمْدُودٌ ﴿٣٠﴾ وَمَاوَى مَسْكُوبٌ ﴿٣١﴾ وَفَكَهَمَ كَثِيرٌ ﴿٣٢﴾ لَا
مَقْطُوعَةٌ وَلَا مَمْنُوعَةٌ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٌ مَرْقُوعَةٌ ﴿٣٤﴾ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً ﴿٣٥﴾ فَعَمَلْنَهُنَّ أَنْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرَا
أَثَرًا ﴿٣٧﴾ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثَلَاثَةٌ مِنْ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾ (الواقعة :
١٠ ، ٤٠) .

على سرر موضونة : مشبكة بالمعادن الثمينة ﴿ متكتن عليها ﴾
متقابلين ﴿ في راحة وخلقو بال واطمئنان ﴾ يطوف عليهم ولدان مخلدون ﴿
لا يفعل فيهم الزمن ، ولا تؤثر في شبابهم السن ، ﴾ بأكواب وأباريق وكأس
من معين ﴿ من خمر صافية سائغة ، ﴾ لا يصدعون عنها ولا ينزفون ﴿ لا هم
يفرقون عنها ، ولا هي تنقطع أو تنفد ، ﴾ وفاكهة مما يتخيرون ، ولحم طير
مما يشتهون ، وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون ﴿ واللؤلؤ المكنون : هو
اللؤلؤ المخبئ الذي لم يعرض بعد للأنظار ، ولم تחדشه عين ولم تثقبه يد ،
وفي هذا كناية عن معانٍ حسية ونفسية لطيفة في هؤلاء الحور العين ، ذلك
كله ﴿ جزاء بما كانوا يعملون ﴾ فهو استحقاق ومكافأة ، وهم مع ذلك في
هدوء وسكون بعيدون عن كل لغو في الحديث وكل جدل وكل
مواخذه ^(١) ، ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا ﴾ (الواقعة :
٢٥ ، ٢٦) .

وفي المقابل يأتي ما أعدّه الله من عذاب أليم لمن حاد عن طريق الهدى
واتبع الهوى والشهوات ، فإن الجحيم هي المأوى هي المستقر وبئس دار
الإقامة هي .

﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ
الْوَعْدِ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ
غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عِتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ
عِتِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَتَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٌ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ
الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ (ق : ١٩ ، ٢٦) .

لقد جاءت النفس الإنسانية ومعها هذان الحارسان ، وهذا
هو الخطاب يتوجه بالتبكييت والتأنيب : ﴿ لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا

(١) مشاهد القيامة في القرآن - سيد قطب - الطبعة السابعة (١٢٨) .

عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ﴿ نافذ يبصر ماكان محجوباً بالغفلة والتكذيب ، ثم يتقدم القرين - ونفهم من السور الأخرى في القرآن أنه شيطان يرافق الضالّ ويملي له في الضلال وإن كان يوم القيامة يتبرأ منه ويشهد عليه - .

يتقدم هذا القرين ليقول : إن ماعنده من أخبار هذا المخلوق مهيباً حاضر ﴿ وقال قرينه : هذا مالدّي عتيد ﴿ عندئذ يصدر الأمر الذي لايرد : ﴿ ألقيا في جهنم كل كفار عنيد متاع للخير معتد مريب الذي جعل مع الله إلهاً آخر فآلقياه في العذاب الشديد ﴿ .

وتعرض جهنم مشخصة مخلوقة حية تشترك هي الأخرى في الحوار وتدل على هولها بلفظها ، ليتم التناسق بين جزئيات المشهد وأفراده في طريقة الاستعراض : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ ؟ !

وبهذا السؤال يفتح المجال للخيال لتصوير المشهد من وراء الحوار وتخيل الصورة من وراء الظلال ، هذه هي الأجسام تقذف إلى جهنم وقد فتحت فاهها حتى إذا توالى القذف وتكدس الوقود قيل لها : هل امتلأت ؟ وإنها لتتحرق وتتلمظ إلى وقود جديد ، وتقول : هل من مزيد .

إنه لمشهد مؤثر في الوجدان مثير للمشاعر والخيال يؤدي غرضه الديني من هداية ورشاد في يسر وسهولة ، ثم ينطلق إلى عالم الفن الطليق ، فלغة الجمال الفني تستطيع أن تخاطب الوجدان الديني مادامت صادقة فاللهجة الصادقة دائماً هي الهادية إلى الحق والرضوان . . . (١) .

وهكذا نجد النقلات القرآنية ، فلا يرد ذكر النار إلا ويعقبها ذكر الجنة في معظم آي القرآن ، كربط بين الوعد والوعيد والزجر والترغيب . في صورة من التمازج والتساوق بين الخوف والرجاء ، وبذا يكون المرء دائماً في مراقبة لله عز وجل في كل عمل ، في كل خفقة ، في كل شعور ، ومن ثمّ تتحقق له الهداية المرجوة .

والاندماج قلباً وقالباً في رحاب الله ، وهذا ماتسعى له آيات الكتاب الحكيم في كل صورة ، في كل آية ، في كل أمر ، في كل نهي ، في كل وعد ،

(١) بتصرف من مشاهد القيامة في القرآن - سيد قطب - طبعة سابعة (٩٠) .

وفي كل وعيد . . .

وهكذا نجد الارتباط الوثيق بين كل معاني أي الذكر الحكيم ، سواء
أكان ذلك من الناحية الزمانية أو المكانية أو التشريعية . . . إلخ .

كما نجد أن القرآن يساير شعور النفس الإنسانية ، فلا يرد ذكر النار
إلا وهو مرتبط بهدف كالتحذير أو الأمر أو النهي أو الزجر .

كما قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهُ إِذِ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢١﴾
إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿١٢٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ
رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٤﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَابَةً تَصَنُّونَ ﴿١٢٥﴾ وَتَسْخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ
تُخَلَّدُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٢٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿١٢٨﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَّكُمْ
يَوْمَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٩﴾ أَمَّكُمْ بِأَنعَمٍ وَبَيْنَ وُجُوهِكُمْ وَوُجُوهُنَّ ﴿١٣٠﴾ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ
عَظِيمٍ ﴿١٣١﴾ (الشعراء : ١٢٣ ، ١٣٥) .

ففي ظلال الأمر بعبادة الله وطاعة رسوله هود عليه السلام ، جاء
الزجر في سياق الأمر والوعيد في إطار الوعد ، فمن أطاع الله ورسوله الذي
أنعم عليه بمختلف النعم كانت له النجاة والفوز ، وإلا فالخوف من عذاب
يوم عظيم وارد ومتحصل .

وفي ذلك ماوراءه من فتح أبواب الهداية على مصاريعها للناس
أجمعين .

الفصل الثالث

الهداية القرآنية بين أسلوب الترغيب والترهيب

تقديم

إن القرآن الكريم المعجز ببيانه وبلاغته ، وقوة تأثيره في النفوس والقلوب ، ليرز الجمال الفني المحض في تضاعيفه ، حتى ليستملي الإنسان هذا الجمال مستقلاً بجوهره فيغنيه ، ثم ينظر في ملاءمته مع الأغراض الدينية ، فإذا به يزداد جمالاً وإبهاراً ، وكيف لا ؟ وقد استحوذ على العرب من قبل ، واجتمع على الإقرار بسحره المؤمنون والكافرون على السواء !! يسمعه الذين تهيؤوا للإيمان ، فيسارعون إليه خاشعين ، ويسمعه الذين يستكبرون عن الإذعان ، فيقولون : ﴿ إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّيْتٌ ﴾ (المائدة : ١١٠) ، أو يقولون : ﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (فصلت : ٢٦) ، فيقرّون بالإعجاب الغلاب من حيث لا يشعرون ، أو يشعرون !^(١) .

إنها ألفاظ إذا اشتدت فأمواج البحار الزاخرة ، وإذا هي لانت فأنفاس الحياة الآخرة ، تذكر الدنيا فمنها عمادها ونظامها ، وتصف الآخرة فمنها جنتها وضرامها ، ومتى وعدت من كرم الله جعلت الثغور تضحك في وجوه الغيوب ، وإن أوعدت بعذاب الله جعلت الألسنة ترعد من حمى القلوب^(٢) .

إن الجمال الفني يكمن في هذا البيان المعجز ، ومنه الأسلوب الذي تتعدّد أفنائه ، وتكثر ألوانه ، والذي نحاول في هذا الفصل جاهدين الوقوف فيه على روعة الإبداع وجمال التصوير في أسلوب الترغيب والترهيب .

والمعروف أن الترغيب إنما يكون بكل ما يشوق إلى الاستجابة وقبول الحق والالتزام به والثبات عليه .

كما أن الترهيب يكون بكل ما يخيف ويحذر من عدم الاستجابة أو رفض هذا الحق أو عدم الالتزام به أو الثبات عليه .

(١) التصوير الفني في القرآن - لسيد قطب - الطبعة السابعة (٩) .

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية - لمصطفى صادق الرافعي - الطبعة الثامنة (٣٠) .

والملاحظ أن كتاب الله تعالى مليء بما يرغب الناس في قبول دعوة الحق ، وإلى ما فيه خيرهم وسعادتهم دنيا وآخرة .
 كما أنه مليء كذلك بكل ما ينفر الناس من الضلال والكفر ومن اتباع طريق الهوى والشيطان ، طريق الشرور والآثام .
 ولئن دلت هذه الكثرة من آيات الترغيب والترهيب في كتاب الله الحكيم على شيء فإنما تدل على أهمية هذا الأسلوب ومنزلته على طريق الهداية والتوجيه .
 والأصل في الترغيب أن يكون في نيل رضا الله ورحمته وجزيل ثوابه في الآخرة .

وأن يكون الترهب بالتخويف من غضب الله وعذابه الأليم في الآخرة ، وكان هذا هو نهج القرآن الكريم في كل من الترغيب والترهيب .
 وبين مجالي الترغيب والترهيب نجد كتاب الله الحكيم قد أبعد وأعجز في اتخاذ هذا الأسلوب القوي المحكم ، بل الأسلوب السهل الممتنع الذي يلذ الأسماع ، ويلمس شغاف القلوب ، هذا الأسلوب الذي يميز لغة الضاد ، والذي استطاع أن يفتح القلوب حين فتح المسلمون الأمصار ، فإذا أهلوها مبهورون مشدوهون ، وإذا هم يهجرون لغاتهم التي درجوا عليها منذ نعومة أظفارهم إلى لغته الصافية الشفافة ، ولم لا ؟ وأسلوب القرآن دائماً مطرد في جودة الأفهام وروعته مع سهولة لفظه ومتانته وسلامته من التكلف .

وهاهو القرآن الكريم في ملاطفاته يتحدث عن رحمة الله ومغفرته ، ويبشر بما أعد الله للمؤمنين في الآخرة من نعيم مقيم يأخذ بالمجامع فتيه فرحاً وطرباً ، في أسلوب ترغيبي رائع ، يترك الضالين في هم ، لأنهم لم يظفروا بمثل ذلك .

قال تعالى : ﴿ جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ (٣٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَعْطَانَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَسْتَأْذِنُ فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَسْتَأْذِنُ فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ (فاطر : ٣٣ ، ٣٥) .

هذا مشهد يصور مالاً أصحاب الجنة فيها من نعيم مقيم ، وقد تكشف
المشهد عن نعيم مادي ملموس ونعيم نفسي محسوس ، فهم يحلون فيها من
أساور من ذهب ولؤلؤاً ، ولباسهم فيها حرير ، وذلك بعض المتاع المادي
الذي يلي رغبة الترف في كثير من النفوس ، وبجانبه ذلك الرضى ، وذلك
الأمّن ، وذلك الاطمئنان ﴿ الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ﴾ .

والدنيا بما فيها من قلق على المصير ومعاناة للأمور تعدّ حزناً بالقياس
لهذا النعيم المقيم ، والقلق يوم الحشر على المصير مصدر حزن كبير ﴿ إن
ربنا لغفور شكور ﴾ غفر لنا وشكر لنا أعمالنا بما جازانا عليه من فضله
﴿ الذي أحلنا دار المقامة ﴾ للإقامة والاستقرار ﴿ من فضله ﴾ فما لنا عليه
من حق ، وإنما هو التفضل والإنعام ﴿ لا يمئتنا فيها نصب ولا يمسنا فيها
لُغوب ﴾ ، بل تجمع لنا فيها النعيم والراحة والسعادة والاطمئنان .

فالجو كله يسرّ وكله ملاطفة ، والألفاظ كلها مختارة للنسق بجرسها
وإيقاعها مع الجو الحاني الرحيم حتى (الحزن) لا يتكأ عليه بالسكون
الجازم ، بل يقال : (الحزن) بالتسهيل والتخفيف .

كل هذا في جو روحاني بديع ، وتجليات ربانية مشرقة فيها الرضا
وفيهما الجلال .

فإذا مانظرنا إلى الجانب الآخر رأينا مشهداً مغيراً تمام المغيرة ، ففيه
نذير ووعيد بما ينتظر الكافرين : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ
عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ
يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا
يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴾
(غاطر : ٣٦ ، ٣٧) .

إنه مشهد يصور التوتر والقلق الذي يعيشه هؤلاء الكافرون ﴿ الذين
كفروا لهم نار جهنم ﴾ لقد أصبحت ملكاً لهم لا ينازعهم فيها منازع
﴿ لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ﴾ انتهى اليأس
والقنوط وضيق الحال ، لا راحة ثواتهم بموت ولا عذاب يصرف فتعقبه
راحة .

نعم إن الموت قد ذبح بين الجنة والنار ، والخلود حاصل لأهل الجنة وأصحاب النار ، وكفى بالمرء داء أن يرى الموت شافياً .

وهنا يطرق أسماعنا صوت غليظ محشر مختلط الأصداء متناوح من شتى الأرجاء إنه صوت المنبوذين في جهنم ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا ﴾ .

وجرس اللفظ نفسه يلقي في الحس هذه المعاني جميعها فلنتبين ذلك الصوت الغليظ ماذا يقول ؟ : ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ ، إنه الاعتراف بعد فوات الأوان ، ولات ساعة مندم .

وهنا يأتي الرد : ﴿ أَوَلَمْ نَعْمَرَكُمْ مَا تَذَكَّرُ فِيهِ مِنْ تَذَكَّرُ ﴾ ؟؟

لقد عشتُم أمداً فيه معذر ، ولكنكم أضعتم الفرصة سدى ، ولم تهتبلوا ساعات العمر بالطاعة ، ولم تنتفعوا بهذه الفسحة من العمر وهي كافية للتذكر والذكرى .

« وجاءكم النذير » زيادة في التنبيه والتحذير ولكنكم لم تزدادوا سوى غطرسة وكبرياء .

﴿ فذوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِير ﴾ نعم تجرّعوا غصص ما قدمتم من عناد وكفر وبغي إن حاسة الذوق إنما تكون في الأشياء المستطعمة ، ولكنها هنا مبالغ في التبكيت جاءت في استطعام الألم والحسرة .

إنهما صورتان متقابلتان صورة الأمن والراحة ، تقابلها صورة القلق والاضطراب ، ونعمة الشكر والدعاء ، تقابلها صيحة الاضطراب والنداء ، ومظهر العناية والتكريم ، يقابله مظهر الإهمال والتحقير ، والجرس اللين والإيقاع الرتيب ، يقابلهما الجرس الغليظ والإيقاع العنيف .

وهكذا يتم التقابل والتكافؤ ، ويتم التناسق في الجزئيات والكليات على حدّ سواء ، وتلك عدالة الله عز وجل .

وهذه صورة أخرى ترغيبية ، يتجلى فيها فوز المؤمنين بما وعد الرحمن

وأي وعد !!

﴿ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا ﴾ (١١) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًا ﴿١٢﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ

كَانَ تَقِيًّا ﴿ (مريم : ٦١ ، ٦٢) .

صورة للجنة هادئة ساكنة رتيبة ﴿ لا يسمعون فيها لغواً إلا
سلاماً ﴾ ، فلا فضول في الحديث ، ولا فسوق ولا جدال ، إنما هي
أصوات تتناسب وهذا الجو الراضي الكريم ، إنه صوت السلام .
أما الرزق فهو مضمون مكفول لا عناء ولا مجشمة في نيله ولا كد في
إحرازه .

هذا هو الفوز ، وهذا الرضا هو ميراث مكفول لمن كان تقياً .
إنها الدار التي أعدها الله لأبي البشر آدم يتوارثها أبناؤه عنه من كان
تقياً ﴿ تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً ﴾ .

وننتقل إلى الجانب الآخر لنرى مشهداً لحزى الكافرين الذين ينكرون
البعث والجزاء ﴿ فَوَرَّيْكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ
جِئِيًّا ﴾ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ
أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنْجِي الَّذِينَ
اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِئِيًّا ﴿ (مريم : ٦٨ ، ٧٢) .

إنه منظر يثير السخط والاشمئزاز أن يكون الكفور المحشور مع
الشیطان وهم جاثون على الركب حول النار إنهم في انتظار زجهم إلى هذا
السجن الم هول ﴿ ثم لننزعن من كل شيعه أيهم أشد ، على الرحمن عتياً ﴾ .
وتتعدد المشاهد في ذلك اليوم العظيم الأهوال . . .

﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ﴿١٠﴾ يَوْمَ لَا يَغْنِي مَوْلَىٰ عَنْ مَوْلَىٰ شَيْئًا وَلَا
هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١١﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢﴾ إِنَّ شَجَرَةَ
الزَّقُونِ ﴿١٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿١٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿١٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿١٦﴾
خَذُوهُ قَاعِثُلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿١٨﴾ ذُقْ
إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿١٩﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿ (الدخان : ٤٠ ، ٥٠) .

نعم لقد تحدد ميقات الحساب والجزاء إنه يوم الفصل ﴿ يوم لا يغني مولى عن مولى لا يغني
مولى عن مولى شيئاً ولا هم ينصرون ﴾ ، يقضى فيه بين الناس بالعدل .
﴿ إن شجرة الزقوم طعام الأثيم ﴾ وما هي ؟ إنها كالمهل :

الرصاص المذاب ، أو الزيت الحار ﴿ يغلي في البطون كغلي الحميم ﴾ الماء الشديد الغليان ﴿ خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم ﴾ خذوا هذا الباغي أيها الزبانية ، شدّوه بقوة واسحبوه إلى وسط جهنم ، وهناك صبوا فوق رأسه من الماء الحار الذي يشوي الوجوه ، قمة الإهانة والإيلام والتشويه ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ في أسلوب يحمل كل معالم الترهيب والتخويف .

وفي المقابل صورة المتقين : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَلِكَ زُوجْنَاَهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْخُلُونَ فِيهَا بِكُلِّ فُكْهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّلتُهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضَلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (الدخان : ٥١ ، ٥٧) .

هذا هو الثواب : نعيم مقيم ﴿ إن المتقين في مقام أمين ﴾ إنه مقام آمن لاكد فيه ولا نكد ، إنهم منعمون يرفلون في أنواع الحرير ، يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين . قمة التنعم والتلذذ وصبوة العيش أن يلتقي الأحبة في أهناً عيش وأرغده متقابلين مستأنسين ، كذلك وزوجناهم بحور عين .

وكذلك تكتمل عناصر السعادة في الجنات الوارفة ، والأنهار الجارية ، والأزواج المطهرة من الحور العين .

﴿ لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ﴾ ، هذا فيه مافيه من طمأنة الخاطر فإذا ما أحس الإنسان بالخلود ازداد بهجة ونعيماً .

﴿ ووقاهم عذاب الجحيم ﴾ فهم في وقاية وحصانة منه إنه أسلوب الترغيب والتبشير .

وقال تعالى : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ (الكهف : ٢٩) .

إنها النار تحيط بأعداء الله في هيئة السرادق ، فإن استغاثوا من الحر والظماً كان الغوث ماء كالزيت المغلي يشوي الوجوه والجلود ، بله الحلق والامعاء . ﴿ بشس الشرابُ وساءت مرتفقاً ﴾ نعم إنها أسوأ مكان للإقامة

والارتفاق .

وفي المقابل نرى مشهداً آخر هو مشهد المؤمنين في الجنة ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعَمَ الثَّوَابِ وَحُسْنَتِ مَرْتَفَقًا ﴾ (الكهف : ٣١) .

هذا هو الجزاء جنات وارفة الظلال تجري بالري واعتدال النسيم
نعيم وأحسن بها من صحبة ورفقة ﴿ نِعَمَ الثَّوَابِ وَحُسْنَتِ مَرْتَفَقًا ﴾ .
وهذه صورة أخرى أيضاً توضح ما للمتقين عند ربهم من نزل ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكَّهُونَ ۖ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ۖ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ ۖ ﴿٥٧﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴾ (يس : ٥٥ ، ٥٨) .

إن أصحاب الجنة مشغولون ملتذون متفكهون ، وإنهم لفي ظلال مستطابة يستروحون نسيمها وعلى الأرائك متكئون في راحة ونعيم .
وعلاوة على تلك اللذائذ الحسية يأتي التكريم المعنوي ، ﴿ سلام قولاً من رب رحيم ﴾ .

ويتساءل الجاحظ : وهل لهم فراغ أبداً حتى يتشاغلوا ؟؟
ثم يجيب : إنه شغل بأكل فواكه الجنة ، وافتضاض الأبكار ، وزيارة الإخوان على نجائب الباقوت . . . (١) .

وأما المشهد الآخر فهو مشهد الكافرين وهم يتلقون الزجر والتحقير والتأنيب ، وهذا الأمر يصدر إليهم ﴿ وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ أَنَّهُا الْمُجْرِمُونَ ۖ ﴿٥٩﴾ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَن لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ۖ ﴿٦٠﴾ وَإِنْ أَقْبَدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۖ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِثْلًا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ۖ ﴿٦٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ۖ ﴿٦٣﴾ أَصَلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ

(١) أثر القرآن في تطوير النقد العربي إلى آخر القرن الرابع الهجري - د . محمد زغلول سلام - الطبعة الثانية (٨٦) .

استفدت في هذا البحث بكتاب سيد قطب « مشاهد القيامة في القرآن » .

تَكْفُرُونَ ﴿٦٦﴾ أَلَيْسَ لَخَبِيرَاتِهِمْ عَلَىٰ آفَافِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيَهُمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٩﴾ (يس : ٥٩ ، ٦٧) .

وإنه لمشهد عجيب يثير الخيال ويحرك الوجدان حيث تنقلب الأحوال^(١) وحيث يواجه الإنسان هذا الحادث الفذ يخذل بعضه فيه بعضاً ، وتشهد جارحة على جارحة ، وتتفكك الشخصية الإنسانية إلى أجزاء وآحاد ، وبينما نحن في دهش لهذا المشهد الفريد العجيب ، إذ هو يحرك خيالنا ليستعرض مشهداً آخر يفرضه جديلاً ، ولكنه يتمثل للخيال واقعاً ، مشهد هؤلاء القوم وقد طمست أعينهم وأطلقوا يستبقون الصراط فهم لا يتلمسون ولا يتحسسون بل يستبقون ويتخطون ﴿ فأنى يبصرون ١٩ ﴾

وبينما الخيال مستغرق في تملي هذا المشهد وتتبع حركاتهم فيه وهم عميان مطموسون يتسابقون ويتخطون ، إذا بحركة جديدة تقف هذه الحركات فجأة ، فهؤلاء هم قد جمدوا في مكانهم واستحالوا تماثيل لا يمضون ولا يرجعون بعد أن كانوا منذ لحظة عمياناً يستبقون ويضطربون ﴿ ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضياً ولا يرجعون ﴾ . وفي قوله تعالى : ﴿ كَلَّا لَيُبَدِّلَنَّ فِي الْخَطْمَةِ ١١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْخَطْمَةُ ١٢ نَارُ اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ ١٣ أَلَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْعَدَةِ ١٤ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ١٥ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ١٦ ﴾ (الهمزة : ٤ ، ٩) .

نعم لقد اكتملت عناصر الصورة بتوالي الصفات وزادها وضوحاً ما يسمى في علم المعاني بالاعتراض والتذييل ، وما إليها من الأساليب التكميلية مما يتمم الصورة ويجعلها أشد تأثيراً في نفس السامع^(٢) . إنها النار تحطم العظام وتأكل اللحوم ، حتى تهجم على القلوب ،

(١) مشاهد القيامة في القرآن - سيد قطب - الطبعة السابعة (١١٠) .

(٢) أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الرابع الهجري - لمحمد زغلول سلام - الطبعة الثانية (٣٧٢) .

هذه هي نار الله الموقدة ، إنها مستعرة لا تخمد أبداً ، وفي الحديث : « أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت فهي سوداء مظلمة » (١) .

﴿ التي تطلع على الأفئدة ﴾ التي يبلغ ألمها ووجعها إلى القلوب فتحرقها .

﴿ إنها عليهم مؤصدة ﴾ : مطبقة مغلقة ، ﴿ في عمَدٍ ممددة ﴾ ، وفي هذا إيذان بالخلود (٢) إلى غير نهاية .

وتحس بالهول والخوف . يثيرة الاستفهام في قوله تعالى : ﴿ الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَذْرَكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴾ (الحاقة : ١ ، ٣) .

وفهم التهويل من الاستفهام لأنك توحى إلى المخاطب بأن ما ذكر لا يليق (٣) أن يمر به المرء مرّ الكرام بل من الواجب التريث والتمهل وفهم حقيقته ومدلوله .

إن الألفاظ بجرسها ومعانيها ، وباجتماعها في التركيب وبدلالة التركيب كله ، تشترك في خلق هذا الجوّ وتصويره فهو يبدأ فيلقبها كلمة مفردة لا خبر لها في الظاهر ﴿ الحاقة ﴾ ثم يتبعها باستفهام حافل بالاستهوال والاستعظام لماهية هذا الحدث العظيم ﴿ ما الحاقة ﴾ ، ثم يزيد هذا الاستهوال والاستعظام بالتجهيل وإخراج المسألة عن حدود الإدراك ﴿ وما أدراك ما الحاقة ﴾ ؟

ثم يدعك فلا يجيب على هذا السؤال ، يدعك واقفاً أمام هذا الأمر المستعظم المستهول الذي لا تدريه ، ولا يمكن أن تدريه يدعك لحظة مفعم الحس بالاستهوال والاستعظام ليدور بك هنيهة حول الموضوع ، مادامت مواجهته غير مستطاعة ! (٤) .

واقراً قوله تعالى : ﴿ وَوَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ (القيامة : ٢٤ ، ٢٥) .

-
- (١) الحديث عزاه صاحب صفوة التفاسير إلى الترمذي عن أبي هريرة . .
 (٢) صفوة التفاسير - للصابوني - الجزء العشرون - تفسير جزء عم .
 (٣) من بلاغة القرآن - أحمد بدوي - دار نهضة مصر للطبع والنشر (١٦٤) .
 (٤) مشاهد القيامة في القرآن - سيد قطب - الطبعة السابعة (٢١١) .

لقد جاءت ألفاظ القيامة والعذاب مروّعة بجرسها ﴿ تَنْظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ ، والفاقرة : الداهية ، والقرآن يشير بهذه الألفاظ استدعاءات وجدانية تروع الناس وتخوّفهم لأنهم اعتادوا أن يقرنوا بين هذه الألفاظ وبين مدلولاتها من الدواهي ، وجاءت في القرآن تؤدي دورها في إثارة معاني الفرع والخوف وتعويد النفوس رهبة القيامة لتبتعد عن المعاصي وترك الذنوب^(١) .

وأرى بأن أختتم هذا الفصل بصورة محبة للنفوس صورة الجنة وقد تجلت كالعروس ليلة عرسها ، قال تعالى : ﴿ وَسَيَقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طُبْتُمْ فَأَدْخَلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ (الزمر : ٧٣) .

والمعنى : سيقّت مراكبهم إلى دار الكرامة والرضوان ، لأنه لا يذهب بهم إلا راكبين كما يفعل بالوافدين على الملوك .

﴿ حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ ، والحكمة في زيادة الواو هنا ﴿ وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ أن أبواب السجون تكون مغلقة إلى أن يجيئها أصحاب الجرائم ، فتفتح لهم ثم تغلق عليهم ، بخلاف أبواب السرور والفرح ، فإنها تفتح انتظاراً لمن يدخلها ، فناسب دخول الواو هنا دون التي قبلها^(٢) .

﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا : سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طُبْتُمْ فَأَدْخَلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ ، وقال لهم حراس الجنة : سلامٌ عليكم أيها المتقون الأبرار فادخلوا الجنة دار الخلود ... خالدين ...

وجواب إذا محذوف للدلالة على أن لهم من الكرامة والتعظيم مالا يحيط به الوصف^(٣) والبيان ، وتقديره إذا كان هذا سعدوا وطابوا وسرّوا وفرحوا بقدر ما يكون لهم من النعيم .

كأنه قيل : حصلوا على النعيم المقيم الذي لا يشوبه التنغيص والتكدير

(١) أثر القرآن في تطور النقد العربي نقلاً عن كتاب معاني القرآن للفراء (٦١) .

(٢) صفوة التفاسير - للصابوني - نقلاً عن تفسير الصاوي .

(٣) صفوة التفاسير - للصابوني - نقلاً عن تفسير البضاوي .

ولانما صار^(١) الخذف في مثل هذا أبلغ من الذكر ، لأن النفس تذهب فيه كل مذهب ، ولو ذكر الجواب لقصر عن الوجه الذي تضمنه البيان .
والطرافة في الآية : في ظهور النكتة بعد الفهم لشرح الجملة ، وإحضار المعنى في أقل ما يمكن من العبارة^(٢) .

وهكذا تشترك مشاهد الأرض والسماء ، ومشاهد النعيم والعذاب ، مع ما يقع فيهما من الأحداث ، مع الأحاسيس الفطرية التي تلجئ الإنسان إلى القوة الكبرى عند الشدة . . . تشترك في مخاطبة الحس والعقل ، ولمس البصيرة والوجدان لتركيز عقيدة التوحيد في النفوس ، والثبات عليها ، وتلك هداية القرآن^(٣) .

وهكذا جاءت آيات الترغيب في القرآن الكريم كلها حث على فعل الخير وأداء الطاعات والاستقامة على أمر الله .

كما جاءت آيات التهيب في كتاب الله كفاً عن ولوج أبواب الشر والرذيلة وتخويفاً مما يعقبها من آلام ومنغصات ، مما يجعل النفوس حريصة على الاندفاع نحو الخير والفضيلة خوفاً من مغبة التراخي والتفريط .

وهكذا تؤكد آيات الله المحكمات في أسلوب الترغيب والتهيب أنه كما تقاد النفس عن طريق الرغبة ، فإنها تقاد كذلك عن طريق الرهبة ، ومن هنا تبدو أهمية أسلوب الترغيب والتهيب في الهداية والإرشاد والتقويم .

(١) صفوة التفسير - للصابوني - نقلاً عن مختصر تفسير ابن كثير .

(٢) النكت في إعجاز القرآن - للإمام أبي الحسن الرماني - ضمن ثلاثة رسائل في الإعجاز - تحقيق محمد خلف الله ، ود . محمد زغلول سلام - الطبعة الثالثة (٧٧)

(٣) بتصرف من كتاب سيد قطب التصوير الفني في القرآن الطبعة الثامنة (٢٣٢) .

الفصل الرابع

الجانب الخلقى فى أسلوب القرآن الكريم

تقديم

هذا الكتاب العظيم الذي أنزله الله دستوراً ومنهج حياة ، نزل على أمة أمية لا تحيد القراءة ولا الكتابة منعزلة في جزيرتها ، يغير بعضها على بعض لأتفه الأسباب ، ويستبد فيها القوي بالضعيف ، شأنها في هذا شأن الجاهليات البشرية في كل زمان ومكان .

في الوقت الذي عرفت فيه الدنيا اثنتين من القوى الكبرى يومئذ هما الفرس والروم ، ومن العجيب أن ترى هذه الأمة الأمية وهي تحمل لواء المدنية والحضارة والتقدم إلى كل أمم الأرض .
فما السر في هذا التغير المفاجيء الذي هز الدنيا وغير صفحات

التاريخ ؟!

والسر في هذا من الواضح بمكان يتجلى في قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (آل عمران : ١٦٤) .

ثم لماذا حملت هذه الأمة هذه الرسالة وهناك من الأمم من هم أقدم حضارة منها ؟!

ولا غرابة في الأمر فقد توافرت في هذه الأمة من المزايا والسمات ماجعلها جديرة بحمل رسالة السماء ، هذه المزايا والخلال هي التي قال فيها رسول الله ﷺ : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .
إذن فقد وجدت أخلاق ، وقد جاء الرسول ﷺ لإتمامها .

والسؤال : ماهذه الأخلاق التي جعلت رب العزة والجلال يصطفي - وهو أعلم حيث يجعل رسالته - أزكى وأعز رسول منها ومن أكرمها بيتاً ؟ ! ؟

في الواقع أن هذه الخلال لا تخفى على أي متتبع لتاريخ العرب في جزيرتهم السماء البكر . . .

إنها خلال يتطلع إليها كل إنسان ويعتز بها كل منصف ، ويود أن

ينتسب إليها كل من يحترم حقائق الأشياء ، ويجنح إلى العدالة والإنصاف .
من هذه الخلال : الغيرة ، الشجاعة ، الشهامة ، النجدة ،
المروءة ، الكرم ، الإيثار ، الوفاء ، حفظ العهد صدق الوعد . . . إلى غير
تلك المزايا النبيلة والصفات الجليلة .

أليس بعد هذا كله يحقّ لأمة هذه خلالها وتلك مفاخرها أن تعتر بما
أسند إليها من هدف نبيل ومغزى جليل هو هداية الإنسانية وإرشادها إلى
المنهج القويم والصراط المستقيم ؟

والقرآن الكريم يحث على المكارم ويدعو إلى التحلي بها ، ولاعجب
فهو إنما جاء لتبثيثها وتدعيمها في النفوس ، وآيات الكتاب العزيز جاءت
تذخر بهذه الأخلاق ، وتضيف إليها أنبل الصفات وأجلها .
ولامكان للأخلاق بدون عقيدة .

فالعقيدة هي المحرك الذي تركز عليه الأخلاق ، فإذا استشعر المسلم
بأن هناك رقابة إلهية تشدّه نحو التحلي بالخلق الكريم وترشده إلى فضل هذا
الخلق وعظم ثوابه حينئذ سوف يكون هناك وازع يحضه على التحلي به .
وما الخلق إلا سلوك الإنسان سلوكاً يميز فيه بين الخير والشر ،
فيحب الخير ويختاره ، ويمقت الشر ويعافه .

سلوك تتصافر فيه جميع قوى الإنسان نحو تحقيق الخير والحرص
عليه ، ولن يتأتى هذا إلا إذا أصبحت الأخلاق هي ذلك النشاط الذي يربط
بين تعاليم القرآن وبين الإنسان فرداً وجماعة ، بحيث تتحول هذه التعاليم
إلى حياة يومية يعيشها المسلم ويحيا لها وبها . . .

والأخلاق منها ما هو فطري ، ومنها ما هو مكتسب .

هناك ما يأتى على هيئة غريزة تولد مع الإنسان وتنمو بنموه .

وهناك ما هو كسبي يكتسبه الإنسان في حياته ، ومحاولة التحلي
بالأخلاق الكريمة وتعويد النفس عليها والتمثل بأنبلها وهو مادعا إليه
القرآن الكريم ، وحرص عليه الدعاة والمرشدون قال تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا
سَوَّاهَا ﴾ (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿١٠﴾
(الشمس : ٧ ، ١٠) .

فالنفس البشرية قابلة للتقويم والتعديل ، فمن استنار قلبه بهدي الله
انطبع ذلك كله على سلوكه ، فكان الإنسان المفلح ﴿ قد أفلح من
زكّاهما ﴾ ، ومن اتبع داعي الهوى فقد ضلّ وخاب ﴿ وقد خاب من
دساها ﴾ .

ودليل ذلك هو قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ اتَّبَعَ هِدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ،
وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي . . . ﴾ .

وأول الطريق في تحقيق الأهداف الخلقية ، إنما هو ضبط النفس
بمعيار العبودية لله ، فلا يظهر خلق من أخلاقها إلا في الحدود التي
حدّها الله عزّ وجل . ومن أجل ذلك كان منهج التربية الخلقية في القرآن
الكريم .

من الجوانب الخلقية في توجيهات القرآن الكريم

القرآن الكريم دستور شامل لمرافق الحياة المختلفة ، فقد ذخرت آياته بالعديد من الجوانب الخلقية التي تشمل الحياة الأسرية ، والاجتماعية ، والدينية ، والدولية ، والفردية .

فمن الناحية الخلقية الأسرية نجد أن ركني ، أو زاويتي الأسرة هما الأب والأم ، وارتباطهما ببعض إنما كان بالعلاقة الزوجية المقدسة .

وهذا الرباط المقدس يعتمد على ركائز لتحقيقه ، هذه الركائز تتمثل في العقد ، وإذن الولي والصداق ، وهذا ما أشار إليه القرآن ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ ، فأشار إلى الرباط المقدس وهو النكاح .

ثم تترسل الآية : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَيِّئَتِكُمْ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَأَنْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ ﴾ إشارة إلى الولي وإذنه ﴿ وَءَاتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ إشارة إلى الصداق ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصِيرُوا خَيْرَ لَكُمْ ﴾ (النساء : ٢٥) .

وفي نفس الوقت يوضح القرآن أهمية هذه العلاقة وقديسيته فهي الأساس نحو مجتمع إسلامي خلقي متكامل .

قال تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (النساء : ١) .

ثم ما الغاية من هذه العلاقة ؟ إنها علاقة سلام ومودة ورحمة قال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الروم : ٢١) .

أمر ثان هو انتشار النوع وتكاثر النسل لعمارة الكون ، وخلافة الأرض وتحقيق الغاية من هذا الخلق وهو عبادة الله سبحانه
فإذا ما قامت الأسرة فهناك واجبات وحقوق لكلا الطرفين من

الآخر ، قال تعالى : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾
(البقرة : ٢٢٨) .

وقال تعالى : ﴿ وَأَتِمُّوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ ﴾ (الطلاق : ٦) ، على أن تكون
المعاشرة بالمعروف حتى في حال الكراهية .

قال تعالى : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا
شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (النساء : ١٩) .

فإذا ماتفاقم الخلافُ وزادت حدّته بين الطرفين ، هناك التربية الخلقية
التي تقوم على الهجر في المضاجع ، والضرب غير المبرح قال تعالى : ﴿ وَالَّذِي
تَخَافُونَ نُشُوزَهُمْ فَعِظُوهُمْ بَعْضُهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ وَآخِرُهُمْ فَإِنْ
أَطَعَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا ﴾ (النساء :
٣٤) .

فإن لم ينجح ذلك كله فهناك محاولة التحكيم كما قال تعالى : ﴿ وَإِنْ
خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا
يُوفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾ (النساء : ٣٥) .

فإذا لم تنجح كل هذه المحاولات ، فإذن لاسبيل إلى استمرار هذه
العلاقة مادام قد تسرب التصدع إلى جدار هذا البيت .

وهنا يأتي الأمر الحاسم لإنهاء هذا الرباط حيث لافائدة من استمراره
فيأتي الطلاق : « وأبغض الحلال إلى الله الطلاق » .

وهكذا نجد القرآن الكريم يحمي كيان الأسرة من الانهيار في الوقت
الذي يعطينا الملامح التي يجب اتباعها في سبيل بناء مجتمع أسري سعيد غايته
إرضاء الله ، وسعادته في تطبيق شريعة الله وتنفيذ هذه الغاية ، وهذه هي
أخلاق القرآن .

من الجوانب الاجتماعية في توجيهات القرآن الكريم

ومن هذا الجانب نجد التوجيه السليم لبناء متماسك قوامه الترابط والتكافل والشعور المتبادل في المساواة والمحافظة على الحقوق وأداء الواجبات .

وفي هذا الإطار هناك المناهي ، وأيضاً هناك الأوامر .
فمن المأمورات الحفاظ على الأمانة كخلق إسلامي إنساني رفيع .
قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ (النساء : ٥٨) .

وقد كان رسول الله ﷺ وهو أشرف الخلق يوصف « بالصادق الأمين » .

وقد كان ألد أعدائه وهم كفار قريش يشهدون له بذلك ، والحق ما شهدت به الأعداء .

وقد امتدح الخالق عز وجل أقرب خلقه إليه بهذه السمة وهم الأنبياء والملائكة .

قال تعالى في شأن نوح عليه السلام : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نُنْفِقُونَ ﴿١٠٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٨﴾ ﴾ (الشعراء : ١٠٥ ، ١٠٧) .

وقال تعالى في شأن جبريل عليه السلام في حمله القرآن إلى أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا رسول الله ﷺ : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ (الشعراء : ١٩٣ ، ١٩٥) .

وحسبك بخلق تحلى به أشرف الخلق وهداة البشرية وحاملو مشاعل الإيمان ...

والتسامح والصفح والعفو عند المقدرة وأخلاق أحبها الإسلام وحث على التحلي بها لما فيها من إشاعة الحب والمودة في صفوف المسلمين من هنا قال تعالى مخاطباً خير خلقه : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ

الْجَاهِلِينَ ﴿ (الأعراف : ١٩٩) .

ولذا لما نزلت هذه الآية سأل رسول الله ﷺ جبريل عنها فقال له :
« إن الله يأمرك أن تَصِلَ من قطعك ، وتُعطيَ من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك » (١) .

والإيثار خلق إسلامي رفيع لما فيه من تنازل المسلم عن حقه لمسلم آخر
عن طيب نفس وسلامة خاطر ودماثة خلق ، من هنا وصف المولى عز وجل
أهل المدينة المنورة عندما أثروا المهاجرين على أنفسهم ، فقال تعالى فيهم :
﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي
صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ
شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (الحشر : ٩) .

﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ : والإيثار على
النفس مع الحاجة قمة عليا في مكارم الأخلاق ، وقد بلغ الأنصار بما لم
تشهد له البشرية نظيراً ، وكانوا كذلك في كل حال وفي كل أمر بصورة نادرة
في مألوف البشر قديماً وحديثاً ، فرضوان الله عليهم أجمعين .

وهكذا نجد القرآن يرشدنا إلى كل هذه المعاني الخلقية الرفيعة ، والتي
لا تدع جانباً من جوانب حياتنا إلا خاضته وأرشدتنا إلى الأحسن منه . . .
وفي الوقت الذي يرشدنا كتاب الله إلى مافيه صلاحنا من مأمورات ،
يتعرض لبعض المنهيات والتي في البعد عنها سدادنا في الدنيا والآخرة .

لنأخذ من هذه الصور الظلم ، فقد نهى تعالى عن الظلم ، يقول
تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَظْلِمِ مَنكُم نَذِقْهُ
عَذَابًا كَبِيرًا ﴾ (الفرقان : ١٩) .

وفي حديث قدسي طويل يقول الله سبحانه : « يا عبادي ، إني

(١) الحديث رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده - المجلد الرابع الناشر المكتب الإسلامي
بيروت . (١٤٨) .

وهو هكذا بنصه : عن عقبة بن عامر قال : لقيت رسول الله فابتدأته فأخذت
بيده ، فقلت : يا رسول الله ، أخبرني بفواضل الأعمال ، فقال : يا عقبة ، صل
من قطعك وأعط من حرمك وأعرض عمن ظلمك .

حرمتُ الظلمَ على نفسي ، وجعلته بينكم محرماً فلا تَظالموا ^(١) .
فناهيك بخلقِ حرمه جبّار السموات والأرض على نفسه ، وهو الذي
لا أمر له ولا ناهي يكفيه بشاعة ومقتاً ، أن حرّمه الله سبحانه على نفسه ثم
أصدر سبحانه الأمر بتحريمه على عباده في صورة النهي قائلاً سبحانه « فلا
تَظالموا » .

كل هذا التشديد والوعيد على النهي عن الظلم لما فيه من خطورة
واستبداد واضطهاد وقمع يؤدي إلى شياع الحقوق وتدهور المجتمعات
وتفشي الضرر في المجتمع حيث تشيع التعاسة والشعور بالإحباط ويقوض
بنيان المجتمع ويؤدي إلى تصدّع جدرانه .
وما أصدق ما قاله الشاعر في هذا :

لا تَظْلِمَنَّ إِذَا مَا كُنْتَ مُقْتَدِرًا فَالظُّلْمُ آخِرُهُ يَأْتِيكَ بِالنَّدَمِ
تَنَامُ عَيْنَاكَ وَالْمَظْلُومُ مُتَبِّهٌ يَدْعُو عَلَيْكَ وَعَيْنُ اللَّهِ لَمْ تَنَمْ
والغيبة والنميمة خلقتان ذميمتان نهى الإسلام عنهما ، قال تعالى :
﴿ يَأْتِيَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّكْ بِبَعْضِ الظَّنِّ إِثَّمٌ وَلَا يَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بََعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الحجرات : ١٢) .

فقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَغْتَبَ بََعْضُكُم بَعْضًا ﴾ مشهد تتأذى له أشد
النفوس كثافة ، وأقل الأرواح حساسية ، مشهد الأخ يأكل لحم أخيه
ميتاً . . . !

ثم يبادر القرآن فيعلن أنهم كرهوا هذا الفعل المثير للاشمئزاز ، وأنهم
إذن كرهوا الاغتياب !

ويسري هذا النص في حياة الجماعة المسلمة ، فيتحول إلى سياج حول
كرامة الناس وإلى أدب عميق في النفوس والقلوب ويتشدد فيه

(١) الحديث رواه مسلم في صحيحه تحت كتاب « البرّ والصلة والآداب » ، باب تحريم
الظلم - الطبعة الأولى - الجزء الرابع - تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي (١٩٩٤) - دار
إحياء الكتب العربية لعيسى البابي الحلبي وشركاه .
والإمام مسلم هو أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري .
(٢٠٦ - ٢٦١) هـ .

رسول الله ﷺ متمشياً مع أسلوب القرآن الكريم في إثارة الاشمئزاز والفرع من شبح الغيبة البغيض .

ففي حديث عن رسول الله ﷺ أنه سئل عن الغيبة فقال ﷺ : « ذكرك أخاك بما يكره » قيل : أفرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟ قال ﷺ : « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته » (١) .

وروى أبو داود بإسناده عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « لما عُرج بي إلى السماء ، مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم . قلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ، ويقعون في أعراضهم » (٢) .
ولما اعترف ماعز بالزنا ، وكذلك الغامدية رجما رسول الله ﷺ بعد إقرارهما متطوعين وإلحاحهما عليه في تطهيرهما ، سمع النبي ﷺ رجلين يقول أحدهما لصاحبه : ألم تر إلى هذا الذي ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رجم رجم الحمار !

ثم سار النبي ﷺ حتى مر بجيفة حمار فقال : « أين فلان وفلان ؟ انزلا فكلّا من جيفة هذا الحمار » قالوا : غفر الله لك يا رسول الله ! وهل يؤكل هذا ؟ قال ﷺ : « فما نلتما من أخيكما أنفاً أشدّ أكلاً منه ، والذي نفسي بيده إنه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها » .

والله سبحانه يحذر من هذا الخلق في أكثر من آية ، لما فيه من سوء المغبة والخاتمة والعياذ بالله .

وما أصدق ما قاله الشاعر وأحسنه حيث يقول :
احذر لسانك أيها الإنسان لا يلدغَنَّك إنه تُعبانُ
كم في المقابر من قتيلٍ لسانه كانت تهابُ لسانه الشجعانُ
هذا وقد ربط الإسلام الفرد بوشائج وعلاقات منها ما يتصل بالفرد

(١) الحديث في سنن الدارمي - الجزء الثاني - باب ما جاء في الغيبة (٢٩٩) - الناشر : دار إحياء السنة النبوية .

(٢) الحديث في سنن أبي داود - الجزء الخامس - الطبعة الأولى ١٣٩٤ هـ (١٩٤) تحت باب الأدب .

وربه ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ (الإسراء : ٢٣) .

وقال تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ (النساء : ٣٦) .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَهُ إِلَيُّكُمْ أَدْعُوا وَإِلَٰهُي مَثَابِ ﴾ (الرعد : ٣٦) .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ فِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ (الحج : ٢٦) .

ومنها ما يتصل بأسرته ، وهذه العلاقة تتحدد مساراتها في عدة اتجاهات منها ما يتعلق بعلاقة الفرد بأبويه ، وقد حدد الإسلام المسار نحو علاقة قدسية ثابتة في تعامل الفرد مع أبويه ، فإن للأبوين شأناً وأي شأن ، فلم يقرن المولى عز وجل بعبادته غير بر الوالدين .

قال تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍ وَلَا لَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝٢٣ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ (الإسراء : ٢٣ ، ٢٤) .

فعلى كلا الطرفين من الرجل والمرأة طاعة الأبوين والبر بهما وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما ، وكما تدين تدان ، كما جاء في الآثار : « بَرُّوا آبَاءَكُمْ تَبَرَّكُمْ أَبْنَاؤُكُمْ وَعَفَّوْا عَنْ نِسَاءِ النَّاسِ تَعَفَّ نِسَاؤُكُمْ »^(١) .

كيف وقد قرن الفوز برضاء الله ودخول الجنة برضاها ، كما قال ﷺ : « رَغِمَ أَنْفُهُ ، رَغِمَ أَنْفُهُ ، رَغِمَ أَنْفُهُ ، قِيلَ : مَنْ يَأْرُسُ اللَّهَ ؟ قَالَ : مَنْ أَدْرَكَ وَالِدَيْهِ عِنْدَ الْكِبَرِ أَحَدَهُمَا أَوْ كِلَيْهِمَا ثُمَّ لَمْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ »^(٢) .

(١) الحديث رواه الطبراني .

(٢) الحديث رواه مسلم في صحيحه - كتاب البر والصلة والآداب - باب رَغِمَ أَنْفٌ مِنْ أَدْرَكَ أَبَوَيْهِ - الجزء الرابع - الطبعة الأولى ١٣٧٥ هـ ص (١٩٧٨) .

بل لقد حث المولى على الإحسان إليهما حتى في حال كفرهما قال تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حَسَنًا وَإِنْ جَاهِدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَنْتُمْ كُمَّةٌ تَعْمَلُونَ ﴾ (العنكبوت : ٨) .

بل لقد قرن ﷺ عقوق الوالدين بالكبائر وأكبرها ، قال رسول الله ﷺ لأصحابه : « ألا أبتئكم بأكبر الكبائر ثلاثاً ؟ قلنا : بلى يا رسول الله ، قال : الإشراف بالله ، وعقوق الوالدين ، وكان متكئاً فجلس ، فقال : ألا وقول الزور وشهادة الزور ، فما زال يكررها حتى قلنا : ليته - يعني سكت »^(١)

ومنها ما يتصل بالفرد في إطار مجتمعه من هنا وسع نطاق التراحم الأسري من خلال الواجبات المنوطة بالرجل والمرأة على حد سواء حتى يفيد المجتمع من أخلاق الأسرة ووحدتها وترابط أعضائها وتعارفهم على الرحمة والمودة ، فيكثر المتحابون ويزيد عددهم ، وتصلح البيئة للوصال والتعاون على البر والتقوى وتتهيأ للمحبة واللقاء على الخير ونبد الضغائن والأحقاد ، فإنه لا يصح لأحد في المجتمع المسلم الذي تهيأت له هذه البيئة أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال ، كما أشار إلى ذلك ﷺ بقوله : « لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال ، يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا ، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام »^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءِ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ يَبْسُ الْإِتْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (الحجرات : ١١) .

نعم إن دعائم المجتمع الفاضل هي التوازن في المعاملة ومراعاة واحترام مشاعر الآخرين ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ ﴾ توجيه

(١) الحديث رواه البخاري تحت باب عقوق الوالدين من الكبائر من كتاب الأدب - الجزء الرابع - الطبعة ١٣٧٢ هـ (٣٥) ملتزم الطبع والنشر مصطفى البابي الحلبي بمصر .

(٢) الحديث في سنن أبي داود - كتاب الأدب - باب فيمن يهجر أخاه المسلم - (٢١٤) - الجزء الخامس - الطبعة الأولى ١٣٩٤ هـ .

سليم سديد نحو الخلق الفاضل .

وانظر إلى النداء الرباني الجميل العطوف : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بهذا النداء الحبيب ينهي القرآن أن يسخر قوم من قوم ، وفي التعبير إيجاء خفي بأن القيم الظاهرة التي يراها الجنسَان الرجال والنساء في أنفسهم ، والتي يزن العباد بعضهم بعضاً بها ، كأن يسخر الغني من الفقير ، والقوي من الضعيف ، وفي النساء تسخر الحسناء من القبيحة ، والشابة من العجوز ، هذه وأمثالها من قيم الأرض ليست هي المقياس ، فميزان الله يرفع ويخفض بغير هذه الموازين ، إن ميزانه تعالى (هو التقوى) .

ثم تأمل كلمة ﴿ وَلَا تَلْمِزُوا ﴾ « واللمز : العيب » لفظة ذات جرس أخذ ، فكأنما هي وخزة حسية « لا عيبة معنوية » .

والآية بعد الإيجاء بالقيم الحقيقية في ميزان الله ، وبعد استجاشة شعور الأخوة ، شعور الاندماج في نفس واحدة ، تستثمر معنى الإيمان وتحذر المؤمنين من فقدان هذا الوصف الكريم والانحراف عنه بالسخرية واللمز والتنازع ، شيء يشبه الارتداد عن الإيمان .

ثم في نداء حبيب متكرر يقول تعالى : ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّكُم بِبَعْضِ الظَّنِّ إِثْرٌ ﴾ (الحجرات : ١٢) ، سياج آخر لحماية المسلم ، فلا ينبغي أن تترك النفوس نهياً لكل هاجس حول الآخرين وباجتناب الإنسان لهذه الظنون يكون قد طهر ضميره من داخله أن يتلوث بالظن السيئ فيقع في الإثم ، وإنما الضمير النظيف هو الذي يكنّ الخير للآخرين فلا يחדشه ظن سوء ولا تلوّثه ريبة أو شك ، وما أرواح الحياة في مجتمع بريء من الظنون ! .

ولكن الأمر لا يقف في الإسلام عند هذا الأفق الكريم الوضيء في تربية الضمائر والقلوب ، بل إن هذا النص يقيم مبدأ في التعامل ، فلا يصبح الظن أساساً لمحاكمتهم ، كما قال ﷺ : « إِذَا ظَنَنْتَ فَلَا تَحْقُقْ » .

ومعنى هذا أن يظل الناس أبرياء مصونة حقوقهم وحرّياتهم حتى يتبين بوضوح أنهم ارتكبوا ما يؤاخذون عليه ، فأى مدى من صيانة كرامة الناس وحرّياتهم .

﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ مقاومة إسلامية لهذا العمل الدنيء من الناحية الخلقية ، ففي المجتمع الإسلامي الرفيع يعيش الناس آمنين على أنفسهم ، آمنين على بيوتهم ، آمنين على عوراتهم .

حتى ذريعة تتبع الجريمة وتحقيقها لاتصلح في النظام الإسلامي ذريعة للتجسس على الناس ، فالناس في ظواهرهم وليس لأحد أن يتعقب بواطنهم .

ثم يعرض القرآن مشهداً تتأذى له كل الناس مؤمنين وكافرين ، مشهد الأخ يأكل لحم أخيه ميتاً ، ثم يبادر فيعلن عنهم أنهم كرهوا هذا الفعل المثير للاشمئزاز ، وأنهم إذن كرهوا الاغتيال .

ثم يعقب على كل مانهاهم عنه في الآية من ظن وتجسس وغيبة باستجاشة شعور التقوى والتلويع لمن اقترف من هذا شيئاً أن يبادر بالتوبة تطلعاً للرحمة ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴾ .

وبذلك توضع قواعد الأدب النفسي لذلك المجتمع الفاضل الكريم ، ويمثل هذا العلاج الثابت تظهر المجتمعات الإسلامية وترتفع^(١) .

(١) استفدت من كلام الشهيد سيد قطب في هذا كثيراً على ضوء كتابه القيم « تفسير الظلال ... » .

بين الراعي والرعية في توجيهات القرآن الكريم

وكما حدد الإسلام العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، بي الراعي والرعية في إطار بناء كيان إيماني رفيع .

ففي علاقة الراعي مع الرعية ينبغي عليه ألا يغفل المشورة وما لها من دور بناء ، كما قال تعالى : ﴿ فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ كُنْتُمْ فَطَا غَلِظَ الْقَلْبُ لَا نَفْضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (آل عمران : ١٥٩) . فإذا تم تبادل وجهات النظر في جو حر خالٍ من الدكتاتورية وعن اقتناع من مجموع الأمة ، بدأ التنفيذ وإمضاء القرار ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ .

كما ينبغي على الحاكم أن يتحرى العدل ومراقبة الخالق في كل صغيرة وكبيرة : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ (النساء : ٥٨) .

أيضاً على الحاكم المحافظة على أموال المسلمين وعدم تبديدها فيما لا يعود عليهم بالنفع والفائدة ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (آل عمران : ١٦١) .

أيضاً للأقليات داخل المجتمع المسلم حقها في الحرية طالما أنها ملتزمة بتعاليم المجتمع المسلم .

قال تعالى : ﴿ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (المائدة : ٤٢) .

هذا ما يتعلق بالراعي . . .

أما الرعية فيجب عليها المحافظة على النظام الإسلامي لتمضي عجلة الحياة في مسارها الطبيعي نحو حياة إسلامية سعيدة في إطار مجتمع إسلامي سعيد .

قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَ رَبِّكَ ۚ وَمَا تَنبَهُنَّكَ عَنْ آلِهَتِهِمْ فَاتَّبِعْهُمْ إِنَّهُمْ أَكْثَرُ غَلَا ۖ ﴾ (الحشر : ٧) .

والاتحاد والتلاحم بين الراعي والرعية طبقاً لأمر الله : ﴿ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ ﴾ (آل عمران : ١٠٣) .

﴿ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۚ ﴾ (٣٦) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلٌّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ (الروم : ٣١ ، ٣٢) .

وإذا كان الحاكم مطالباً بمشاورة الرعية ، كذلك على الرعية التشاور فيما بينها في إطار الصالح العام ، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (الشورى : ٣٨) .

مع تجنب الفساد : ﴿ وَلَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (الأعراف : ٥٦) .

توجيهات قرآنية في معاملة غير المسلمين

برزت توجيهات القرآن واضحة في معاملة غير المسلمين في منهجها - وفي أسلوبها - وقد أخذت هذه التوجيهات أشكالاً متعددة .

فعن إعداد القوة للذود عن حياض الإسلام قال تعالى : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (الأنفال : ٦٠) .

مع تجنب موالاة العدو أو التعامل معه : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ (الممتحنة : ١) .

الحقوق المطالب بها المجتمع المسلم في حالة السلم والحرب

في حالة السلم :

وقد طُلب المجتمع المسلم ببعض الحقوق التي تظهر عدالته وحبه للخير في حال السلم والحرب ، فمنها في حال السلم :

الموعظة : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّ لَّهُم بِاللِّغَى هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (النحل : ١٢٥) .

دون إكراه : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ (البقرة : ٢٥٦) .

ولا إثارة للكراهية : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدَوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَلَيْهِمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (الأنعام : ١٠٨) .

مع ترك الاستعلاء والظلم والفساد : ﴿ تِلْكَ أَلْدَارُ الْأَخِرَةِ فَبَعَثَهَا لِلَّذِينَ لَا يُبِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (القصص : ٨٣) .

مع حسن الجوار والعدالة والبر : ﴿ لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (المتحنة : ٨) .

وفي حالة الحرب :

عدم مبادرة الشر : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالْقَوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (المائدة : ٢) .

عدم القتال في الأماكن المحرمة المقدسة : ﴿ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾ (البقرة : ١٩١) .

كما أن للحرب شروطاً ومواصفات تلتزم في حالة الدفاع عن النفس : ﴿ فَإِنْ لَمْ يَعْزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴾ (النساء : ٩١) .

مساعدة المستضعفين : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ (النساء : ٧٥) .

قتال المتقاتلين وحدهم : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (البقرة : ١٩٠) .

ولا هروب من ملاقات المعتدين : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيَهُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمْ الْأَذْبَارَ ﴾ (الأنفال : ١٥) .

الثبات والوحدة : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيَهُمُ فِئَةٌ قَاتِبَتُوا وَادَّكَّرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (الأنفال : ٤٥ ، ٤٦) .

الصبر والمصابرة : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران : ٢٠٠) .

لا استسلام : ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَهِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَكُمْ أَهْمًا لَّكُمْ ﴾ (محمد : ٣٥) .

الوفاء بالمعاهدات المبرمة : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ (المائدة : ١) .

مواجهة الخيانة بحزم : ﴿ وَإِنَّمَا تَخَافُ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٍ فَانْذِرْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ (الأنفال : ٥٨) .

وهكذا نجد أن الجوانب الخلقية في توجيهات القرآن قد تعددت مظاهرها وهي في كل منحى تعطينا سمات حقيقية في التعامل الفريد الذي يقودنا إلى حياة فاضلة كريمة تضمن لنا السعادة نحو مجتمع إسلامي جدير بأن يحمل هذه التوجيهات الإلهية . . . اسم الإسلام . . . (١) .

(١) استفدت في هذا البحث بكتاب دستور الأخلاق في القرآن للدكتور محمد عبد الله دراز .

توجيهات خلقية فريدة تنفرد بها سورة الحجرات

وإذا أردنا أن نتمثل الجانب الخلقى في القرآن وفي كيفية تعامل المسلم مع ربه ومع نبيه ﷺ ومع مجتمعه ، فإن سورة الحجرات تعتبر منهجاً مستقلاً في هذا الجانب الخلقى حيث تبرز فيها صور وضيئة من صور الأدب في التعامل ، وصور من التوجيه القويم .

ففي قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ١ ﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقَاةِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿ الآيات (٢ ، ٣) .

إن هذه السورة لا تتجاوز ثماني عشرة آية ، سورة جليلة ضخمة ، تتضمن حقائق كبيرة من حقائق العقيدة والشريعة ، ومن حقائق الوجود والإنسانية ، حقائق تفتح للقلب والعقل آفاقاً عالية وآماداً بعيدة ، وتثير في النفس والذهن خواطر عميقة ومعاني كبيرة ، وتشمل من مناهج التكوين والتنظيم ، وقواعد التربية والتهذيب ، ومبادئ التشريع والتوجيه ما يتجاوز حجمها وعدد آياتها مئات المرات . وهذا هو الفارق بين آيات الله وأقوال البشر .

وأول ما يبرز للنظر عند مطالعة السورة هو أنها تكاد تستقل بوضع معالم كاملة ، لعالم رفيع كريم نظيف سليم ، متضمنة القواعد والأصول والمبادئ والمناهج التي يقوم عليها هذا العالم ، والتي تكفل قيامه أولاً ، وصيانته أخيراً . . . عالم يصدر عن الله ويتجه إلى الله ويليق أن ينتسب إلى الله عالم نقي القلب نظيف المشاعر عف اللسان ، عف السريرة ، عالم له أدب مع الله ، وأدب مع رسوله ، وأدب مع نفسه ، وأدب مع غيره ، أدب في هواجس ضميره ، وفي حركات جوارحه .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَأَقْرَبُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ آية (١) .

أدب يتمثل في الإذعان والتسليم لأوامر الله ، فلا إرادة للعبد مع

إرادة الله ، تقوى منه وخشية وحياء منه وأدباً .

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝ (٢ ، ٣) .

هذا هو أدب المخاطبة مع سيدنا رسول الله ﷺ لزوم الاحتشام وغض الصوت والتزام السكينة والوقار مع سيد الخلق ﷺ ، إن التزام هذا السلوك تجاه حبيب الله دليل على الحب والإكبار والتعظيم ، وهذا ما ينبغي أن يتحلى به المسلم مع الحبيب الأعظم .

كيف وقد أحبه ربه وأكبره وبره ، فقال يخاطب حبيه في لهجة كلها تعاطف ورقة : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ .

﴿ لَعَنَّاكَ إِنَّمَتَّ لِفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْصُونَ ۝ .

﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَّبِعَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَذِبِينَ ۝ .

ومن كان هذا شأنه مع مولاه .

فما بالك بأمته معه ؟ أليس أقل ما يجب علينا تجاه حبيبنا ورسولنا هو أن نخفض الصوت ونلزم الأدب معه .

حينئذاك تكون القلوب قد أثبتت حبها وبرها واعترافها بالجميل للرحمة المهداة ، وتفوز بالرضا والغفران ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝ وإلا والعياذ بالله كانت الخسارة والنتحان ﴿ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝ .

وقد عرف علماء هذه الأمة الأدب مع رسول الله وقالوا : إنه يكره رفع الصوت عند قبره ﷺ كما كان يكره في حياته ﷺ احتراماً له على كل حال .

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكَ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنْ أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ فَتُصِيبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ تَتَدَمَّرُونَ ۝ (٦) .

﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَىٰ

الْآخَرَىٰ فَفَقِيلُوا أَلَيْسَ تَبْعَىٰ إِلَى اللَّهِ فإِنَّ فَاتَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ الْآيَات (٩ ، ١٠) .

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُونَ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءً مِنْ نِسَاءِ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَىٰكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ الْآيَات (١١ ، ١٣) .

وتتوالى التوجيهات في ثنايا هذه السورة الكريمة وهي ترسم العديد من الحلول لكثير من الملابس والظروف التي تعترض مسيرة الحياة وما ينبغي أن يتخذ حيالها من معالجات .

ومن هذا المنطلق تأتي الدعوة إلى التثبت في الأمور والتؤدة في علاج الأحداث فقد يتسرع الشخص في مواجهة موضوع « ما » ثم يتبين له أنه قد جانب الحكمة في تسرعه هذا .

ولعل أكبر شاهد قصة الوليد بن عقبة بن أبي معيط حين تقول على بني المصطلق ، وقد بعثه رسول الله ﷺ لأخذ الزكاة منهم فوقع في نفسه فرق وهو في الطريق وظن بأن القوم سيوقعون به فعاد إلى رسول الله ﷺ مدعياً بأن القوم منعوا الزكاة وأرادوا قتله ، فبعث لهم رسول الله ﷺ بعثاً بقيادة خالد بن الوليد ، وإذ بالأمر محض افتراء ، من هنا نزلت الآية التي تشنع على الوليد فعلته وتدعو المجتمع المسلم إلى التريث في اتخاذ القرار ، فإن بعض الظن إثم .

على أنه يبدو أنه كان هناك اندفاع من بعض المسلمين عند سماع الخبر الذي نقله الوليد ، وذلك حمية من هذا الفريق لدين الله وغضباً لمنع الزكاة ، وهو حماس مشكور بيد أن نتائجه كادت تكون وخيمة .

بيد أن عناية الله التي تظل هذا المجتمع تأبى عليه أن يقع ضحية هذا

الافتراء المكذوب فانكشفت هذه الكذبة واتضح الحق في الوقت المناسب .
وكيف يتسنى لمثل هذه الكذبة أن تنطلي في الوقت الذي يعيش فيه
المجتمع صلة الأرض بالسمااء ﴿ واعلموا أن فيكم رسول الله ... ﴾ .
فلاد تكاد تصدر قولة أو تقع فعلة أو تسري خالجة حتى يطلع علام
الغيوب عليها رسوله الكريم ﷺ فما كان ينبغي أن يغيب عن الوليد أو غيره
هذا حتى يتجراً ويجانب الجادة ...

وهذه قاعدة تشريعية عملية لصيانة المجتمع المؤمن من الخصام
والتفكك تحت النزوات والاندفاعات .

وهذه القاعدة تأتي تعقيباً على تبين خبر الفاسق ، وعدم العجلة
والاندفاع وراء الحمية والحماسة قبل التثبت والاستيقان .

وبهذا يشيع روح الأمن والاستقرار والحب في هذا المجتمع المسلم ،
﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على
الأخرى فقاتلتا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله ... ﴾ .

إن روح الإسلام هي العدل والإخاء ، وهذا لا يتأتى إلا بالإنصاف ،
ومن هنا حين يحصل خلاف بين أفراد هذا المجتمع فينبغي أن يعالج بالحكمة
والروية والإنصاف في إطار العدل والإصلاح .

فإن عدل أحد هذه الجماعات عن العدل وآثر البغي والإسراف في
اللجاجة والعناد ، فحينئذ ينبغي الضرب على يد الظالم تحت قاعدة قديمة
هي : انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً . أي : بالأخذ على يد الظالم ، فإن
فأت هذه الفئة فالصلح بالعدل والقسطاس والصلح خير .

تلك هي النتيجة الحتمية لروح هذا المجتمع الذي تسوده علائق المودة
والمحبة والإخاء .

إنه مجتمع مكن قوامه الحب والإيثار ، وشعاره التفاني في حب الله
ورسوله وإعلاء كلمته ، وهدفه إشاعة روح العدل والوفاء .

إنها صور حية تستجيش المشاعر المؤمنة ، وتستثير مكامن الترابط
والألفة بين جماعات المجتمع المسلم ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ ،

وهل يتقاتل الإخوة ؟ إنها إذن معركة خاسرة ، لأن الدماء واحدة ،

والروح واحدة ، والفتة واحدة ، والرحم واحدة .
فكيف يستساغ مثل هذا العمل المشين إنها جريمة لا تغتفر فلا عذر ،
إن ما يترتب على هذه الأخوة هو الحب والسلام والدفء والاطمئنان والأمن
والأمان ، ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾
الآية (١٠) .

ويستمر النداء الحبيب ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ليستجيش النفس كي
تلتفت لتلقي ما يأتي بعد هذا النداء ﴿ لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ ﴾ .
نعم لا ينبغي أن نلجأ لهذا الأسلوب المنحط غير المسؤول إن المجتمع
الإسلامي مجتمع ذو أدب رفيع ، ومثل هذه التصرفات لاتليق به ، على أن
ما ينبغي أن يلفت النظر إليه أن السخرية والتلامز تصرفات مشينة ، وهي
نابعة عن ضعف في الاعتقاد وإلا فما يدريك أن من تسخر منه لضعف أو
سوء حال أو مرض . . . هو في ميزان الله خير منك أيها الساخر الشامت
﴿ عَسَى أَنْ يَكُنْ خَيْرًا مِنْهُمْ ، وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءِ عَسَى أَنْ يَكُونَ خَيْرًا
مِنْهُنَّ ﴾ .

﴿ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ لفظة كريمة وإيجاء دقيق بأن هذه النفس التي
لمزت وعيت ماهي إلا نفسك أيها المؤمن ، لأن المؤمنين إخوة وجسد
واحد ، وكيف يجرؤ الإنسان على الإساءة إلى نفسه والخط من قيمتها ؟ من
هنا فينبغي أن نصون كرامتنا ، ونحفظ لأنفسنا عزتها ووحدتها بالابتعاد عن
هذه المهاترات والتصرفات القبيحة ﴿ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا
بِالْأَلْقَابِ ﴾ ومن هنا قال الشاعر :

أَكْنِيهِ حِينَ أَنْادِيهِ لِأَكْرِمَهُ وَلَا الْقُبُّهُ وَالسَّوَاءُ اللَّقْبُ
وقد حرص سيد الخلق ﷺ على تغيير كثير من هذه التسميات ، فغير
ما رآه من أسماء قد تُزري بأصحابها وتصفهم بوصف ذميم .

إنه حسن مرهف ونفس شفاقة لاترضى بالأذى ولا تقر الشين إنها نفس
تدعو إلى الكمال في كل تصرفاتها وصدق الله القائل : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ
عَظِيمٍ ﴾ . ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ
وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا

فكفهمته ؟ واتقوا الله إن الله تواب رحيم ﴿ آية (١٢) .

هذا هو المجتمع الفاضل إنه مجتمع يقدر كرامات أفرادهِ ويحرص على مشاعرهم وحرياتهم .

من هنا فلا ينبغي أن يدع نفسه نهياً للتخرّصات والظنون فيشك في هذا ويظن في ذلك أن البراءة الأصلية هي شعاره وحسن الظن بالناس المؤمنين هو ديدنه وهاجسه .

إنه مجتمع يحرص على طهارة الضمير والوجدان أن تتلوث بالظن السيئ ، إنه مجتمع نقي بريء من الهواجس والشكوك يكن لإخوانه المودة التي لا يחדشها ظن سيئ وما أروح الحياة في مجتمع بريء من الظنون !
﴿ يأيتها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ﴾ .

﴿ ولا تجسسوا ﴾ وما التجسس إلا داء وبيل ، لأنه كشف لعورات الناس وتتبع لأسرارهم ، وهو عمل منبوذ من الناحية الخلقية ترفضه كل نفس أبية مؤمنة .

فالإسلام دين السر ودين الإقالة ، وما هو بالذي يحرص على انتهاك الحرمات أو هتك العورات ، وهذا العمل مرفوض من جانبه .

إنه دين يكفل حرية الفرد والجماعة في إطار الحفاظ على نفسه وبيته وسرّه وعورته ، ورسولنا الكريم هو الذي يقول : « من رأى عورة فسترها كان كمن أحيى مؤودة من قبرها »^(١) .

ويروى أنه أتى ابن مسعود فقليل له : « هذا فلان تقطر لحيته خمراً . فقال عبد الله : إنا نهينا عن التجسس ، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به » .
إنه سياج يضرب لحماية أمن هذا المجتمع ، فلا دخيلة ولا حفيظة ولا تجسس ولا ارتياب مجتمع نقي راشد .

ثم يأتي بعد ذلك النهي عن الغيبة في تعبير عجيب يُبدعه القرآن إبداعاً ﴿ ولا يغتب بعضكم بعضاً ﴾ ، وما الغيبة ؟ هي : أن تذكر أخاك بما يكره .

(١) الحديث رواه أحمد في مسنده - المجلد الرابع - الناشر : المكتب الإسلامي - بيروت (١٤٧) .

ثم يعرض القرآن مشهداً تتأذى له أشد النفوس كثافة وأقل الأرواح حساسية مشهد الأخ يأكل لحم أخيه . . . ميتاً ١٩!

ثم يبادر فيعلن عنهم أنهم كرهوا هذا الفعل المثير للاشمئزاز ، وأنهم إذن كرهوا الاغتياب (فكرهتموه) .

﴿ واتقوا الله إن الله تواب رحيم ﴾ .

هكذا التقوى هي السياج ، واتقوا الله فسارعوا بالتوبة إن الله تواب رحيم ، إنها دعوة إلى نقاء السريرة وصفاء النية وسلامة الطوية حتى تنعكس هذه السمات على الجوارح فتتمثل عظمة الخالق ، فتظل في مراقبة مستمرة له في كل تصرف وكل اتجاه .

احفظ لسانك أيها الإنسان لا يلدغَنَّكَ إنه ثعبانٌ

« وهل يكب الناس على وجوههم في النار إلا حصائد ألسنتهم »^(١) .

وهكذا يهتف بنا القرآن في هذا الأسلوب البديع في دعوى صريحة إلى إزالة الضغائن وإزالة الفوارق ومواراة أسباب الخلاف والنزاع ، لترخص جميع القيم التي يتكالب عليها الناس ويتحاكم إليها البشر . . .

إنها دعوة إلى محاربة العصبية الجاهلية في كل صورها وأشكالها لإقامة نظام إنساني عالمي في ظل راية واحدة هي راية الإيمان ، وفي ظلّ إله واحد هو ربّ العزة والجلال ، وفي ظلّ نبي كريم واحد هو سيد الأنبياء والمرسلين ، وفي ظلّ دين واحد هو الإسلام .

﴿ يأياها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ﴾ آدم أبونا وأمنا حواء ،
﴿ وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ﴾ إنكم من أصل واحد فلا تختلفوا ،
﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليمٌ خبيرٌ ﴾ .

وهكذا فالميزان الذي توزن به الكرامة وتكون به الرفعة هو ميزان التقوى ، والله عليمٌ خبيرٌ بأعمالكم وأفعالكم وأخباركم وأشراركم ، إنه ميزان تذوب في كفته الأجناس والأعراق والألوان والعصبيات ، هو ميزان

(١) الحديث رواه ابن ماجة في سننه - في كتاب الفتن - الجزء الثاني - تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي - دار إحياء التراث العربي - ص (١٣١٤) .

العمل الصالح .

فلا راية لوطنية ، ولا لقومية ، ولا لعرقية ...

وكما قال ﷺ : « دعوها فإنها منتنة »^(١) .

وقال ﷺ : « كلكم بنو آدم ، وآدم خلق من تراب ، وليتبهين قومٌ يفتخرون بأبائهم ، أو ليكونن أهون على الله تعالى من الجعل »^(٢) .

هذه هي القاعدة التي يقوم عليها المجتمع المسلم ، قاعدة ثابتة ومتينة ، إنها شريعة الله ، شريعة الله حاکمة .

ورحبَ الناسُ بالإسلام حينَ رَأوا أَن الإخاءَ وأن العدلَ مغزاهُ

(١) الحديث بتمامه رواه مسلم في صحيحه تحت باب « نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً » ،

كتاب البرّ والصلة والآداب ، الجزء الرابع - الطبعة الأولى ١٣٧٥ هـ صفحة (١٩٩٨) تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي .

(٢) الحديث رواه الترمذي في السنن في المناقب :

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « ليتبهين أقوام يفتخرون بأبائهم الذين ماتوا ، إنما هم فحم جهنم ، أو ليكونن أهون على الله من الجعل الذي يدهده الخرء بأنفه ، إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية ، إنما هو مؤمن تقى ، وفاجر شقي . الناس كلهم بنو آدم وآدم خلق من تراب » . الطبعة الثانية - الجزء الخامس (٧٣٤) .

استفدت في هذا البحث من تفسير سيد قطب العظيم « في ظلال القرآن » .

سورة الحجرات الى آية (١٣) .

الباب الثالث

الإعجاز البياني في أسلوب القرآن الكريم

الفصل الأول :

أسلوب الجدل والحوار

الفصل الثاني :

القسم في أسلوب القرآن

الفصل الثالث :

الأمثال في الأسلوب القرآني

الفصل الرابع :

أسلوب القصة في القرآن الكريم

الفصل الخامس :

الصور البيانية في أسلوب القرآن الكريم

التشبيه ، الاستعارة ، الكناية

الفصل الأول

أسلوب الجدل والحوار

تقديم

خاطب القرآن الكريم الناس جميعاً على اختلاف عقولهم ومشاربهم ، وقبل أن نتحدث عن أسلوب الجدل القرآني كان لابد أن نشير إلى أصناف الناس ، حيث الطبائع تختلف والنزعات تتفاوت ، فمن الناس من يصدق بالبرهان ولا يرضيه إلا قياس تام أو ما يجري مجراه وهؤلاء هم الذين غلبت عليهم الدراسات العقلية والنزعات الفلسفية ، وهؤلاء هم الذين أمر الله نبيه بمخاطبتهم بالحكمة ، كما قال تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ (النحل : ١٢٥) .

وهناك من الناس من غلب عليه مذهب ديني أو غير ديني قد استأثر بلبه فسد عليه مسالك الإدراك إذ استولت عليه نحلة مذهبية فتعصب لها ، والتعصب يعمي ويصم ويجعل النفس لاتستسيغ الحق إلا بمعالجات عسيرة ، وهؤلاء لابد لهم من طريق جدلية تزيل ما ألبس عليهم . ولعل هذا الصنف هو الذي أمرنا الله سبحانه أن نجادلهم بالتي هي أحسن ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (العنكبوت : ٤٦) .

أما الجمهور الأعظم من الناس فليسوا من هؤلاء ولا أولئك بل هم في تفكيرهم أقرب إلى الفطرة فيهم سلامتها وفيهم سذاجتها وفيهم إخلاصها وبراءتها .

نعم هؤلاء يخاطبون بما يغذي الفطرة وبما يثيرها ويوجهها إلى السبيل الأقوم ، وكذلك سلك القرآن الكريم ، فالمتدبر لآياته والمفكر في مناهجه يجد فيها ما يعلم الجاهل وينبه الغافل ويرضي نهمة العالم ، اقرأ قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتْ رَتْقًا فَفُتَّقْنَهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ (الأنبياء : ٣٠) أليس في هذا إقناع للعقول المتدبرة على عظيم صنع الله تدركه بأسهل بيان وأبلغه .

واقراء قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً فِي قرارٍ مَكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أُنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ۝١٤ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّكُمْ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ ۝١٦ ﴾ (المؤمنون : ١٢ ، ١٦) .

ثم تدبر هذه الآيات البينات تجد أن الأمي يستفيد منها علماً غزيراً فوق أن يعرف منها أن الله سبحانه سيبعث الناس يوم القيامة فيزداد إيماناً ، ويقرؤها العالم بدقائق تكوين الإنسان فيرى فيها دقة العلم والتكوين حتى لقد قرأها بعض كبار الأطباء في أوروبا فاعتقد أن النبي ﷺ أعظم طبيب رآته الأجيال السابقة ، فلما علم أنه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب آمن بأن هذا من علم الله سبحانه .

أسلوب الجدل في القرآن الكريم

تعريف الجدل :

الجدل : هو المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة لإلزام الخصم .
أصله من : جدلت الحبل : أي أحكمت قتله ، فكأن المتجادلين يقتل كل واحد الآخر عن رأيه ، وقد ذكره الله في القرآن على أنه من طبيعة الإنسان في قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَقًّا جَدَلًا ﴾ (الكهف : ٥٤) . أي : خصومة ومنازعة .

وأمر الباري سبحانه رسوله ﷺ أن يجادل المشركين بالطريقة الحسنة التي تلين عريكتهم ، قال تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (النحل : ١٢٥) .

كل هذه المناظرات التي تهدف إلى إظهار الحق وإقامة البرهان على صحته ، وهي الطريقة التي يشتمل عليها جدل القرآن في هداية الكافرين وإلزام المعاندين ، بخلاف مجادلة أهل الأهواء فإنها منازعة باطلة^(١) .

هذا وإذا كان القرآن الكريم قد دعا إلى المحاجة والجدال بالتي هي أحسن إلا أنه يورد ذلك كله دون اللجوء إلى طرق الجدلين ، وإنما يسوق الحجج والبراهين بأسلوب منطقي ميسور .

ولعل السبب في هذا كما ذكره الإمام الزركشي هو كما يقول : « اعلم أن القرآن العظيم قد اشتمل على جميع أنواع البراهين والأدلة ، وما من برهان ودلالة وتقسيم وتحديد شيء من كليات المعلومات العقلية والسمعية إلا وكتاب الله تعالى قد نطق به ، لكن أورده تعالى على عادة العرب دون دقائق طرق أحكام المتكلمين لأمرين :

أحدهما : بسبب ما قاله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (إبراهيم : ٤) .

(١) مباحث في علوم القرآن للشيخ مناع القطان الطبعة الثامنة (٢٩٩) .

الثاني : أن المائل إلى دقيق المحاجة هو العاجز عن إقامة الحجة بالجليل من الكلام ، فإن من استطاع أن يفهم بالأوضح الذي يفهمه الأكثرون لم يتخط إلى الأغمض الذي لا يعرفه إلا الأقلون ، ولم يكن ملغزاً ، فأخرج تعالى مخاطباته في محاجة خلقه من أجل صورة تشتمل على أدق دقيق لتفهم العامة من جليلها مايقنعهم ويلزمهم الحجة ، وتفهم الخواص من أثنائها مايوفي على ما أدركه فهم الخطباء ^(١) .

ولقد تجلت في كتاب الله تعالى مظاهر عديدة في الإقناع بالدليل ، وكان فيها كلها يسلك سبيل الحوار والجدل المقنع ، وهو في هذا يسير متلونا بأسلوبه مخاطباً كل مجادل على حسب مستواه العقلي ، ليسوقه إلى الاعتراف والإذعان عن اقتناع وصدق . . . ومن ثم تتكشف أمام الجميع معالم الحق وهي تهدي بنورها كل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .
ومن أمثلة تدرج القرآن في الإقناع في أسلوب جدي متقن ما جاء في سورة الحج . . .

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ ، هذه مقدمة ترتبت عليها نتيجة ، هذه النتيجة هي ما أشارت إليها الآية الكريمة التالية : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ﴾ .
فما دام أن الأمر قد وصل إلينا عن طريق الحق فهو أمر مقطوع بصحته لاشك في وقوعه .

وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرَوْهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ ، هذه مقدمة لنتيجة هي قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ يَحْيِي الْمَوْتَى ﴾ ، وعلق النتيجة على هذه المقدمة ذلك أنه أخبر عن أهوال الساعة بما أخبر . . . ولن تتأتى هذه الأهوال في ذلك اليوم إلا بإحياء الموتى ﴿ فهو يحيى الموتى ﴾ .
وقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَسَتِّعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ (الحج : ٣) .

(١) البرهان في علوم القرآن - للإمام الزركشي - الجزء الثاني - الطبعة الثانية (٢٤) .

نتيجة هذه المقدمة قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ، لأن الذي أخبر بأن من يتبع الشيطان ويجادل في الله بغير علم فإن مصيره عذاب السعير ﴿ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فهو القادر على ذلك . . .

ثم قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نَّطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لَّئِن لَّكُمْ وَنَقَرٌ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نَخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يَمُوتُ وَمِنْكُمْ مَّنْ يَرُدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً ﴾ .

هذه مقدمة لنتيجة هي أن القادر على خلق الإنسان عبر أطواره المذكورة بالتالي هو قادر على البعث ، والنتيجة ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ وَنَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ (الحج : ٥) .

وهذه المقدمة نتيجة حتمية للبعث فإن إحياء الأرض بعد موتها فإذا هي تنبت وتزهر ، نتيجة أكيدة بأن الله باعث من في القبور ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾ (الحج : ٧) .

وفي موضع آخر يشير القرآن إلى قضية الموت ، وأنه لا محالة قضاء سيخضع له الجميع وأمر وارد لا مفرّ منه ، قال تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ (الرحمن : ٢٦) .

هذا خطاب موجه إلى من على الأرض ، وهم سكان هذا الكوكب الأرضي من إنس وجان ، فلما سمعت الملائكة هذا الخطاب قالت : إن الموت لا يشملنا ، فنحن لنعيش على هذه البسيطة ، قال تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ (العنكبوت : ٥٧) ، فالموت مصير كل حي يتنفس .

قالت الملائكة وقد ازدادت فرحاً وابتهاجاً : ولكننا أجسام نورانية ولسنا أنفساً ، قال تعالى فاصلاً الخطاب في المسألة ومجيباً على هذا الجدل الطويل وتلك التساؤلات : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ (القصص : ٨٨) ، فهو الملك المتفرد بالعظمة قاهر العباد بالموت ، وكل شيء عداه

عرضة للموت والفناء . . . ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (غافر : ١٦) .
وفي موضع ثالث حين أراد المولى عز وجل إثبات قضية البعث
والنشور جاء بضروب الأقيسة على المعاد الجسماني ، وأنه أمر مقدور عليه
وهو سهل للغاية لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد . . . ﴿قُلْ أَمَرَ
رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا
بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ (الأعراف : ٢٩) .

فقاس الإعادة على الابتداء ، فالذي خلق الأشياء من العدم قادر على
إيجادها بعد الموت وإعادتها للبعث والجزاء .

ثم تدرج المولى عز وجل في تقريب المسألة للأذهان وأن الخروج من
القبور لن يكون أعظم من خلق السموات والأرض ، فالقادر على خلق هذه
الأجرام العظيمة التي تفوق خلق الإنسان ببلايين المرات قادر على بعث هذه
الأجساد بعد البلى وهي خلق يسير .

قال تعالى : ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ
مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ
فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي يَدِينُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ (يس :
٨١ ، ٨٣) .

وإذا كنتم في شك واضطراب ولم يحصل الاقتناع بعد ، فهناك مسألة
محسوسة ربما تقرب الأمر إلى أذهانكم بصورة أوضح ، وهي إحياء الأرض
الموات بالمطر ، فتنبت بعد ييس ، وتحرك بعد دروس ، ثم تنبت من كل
زوج بهيج .

قال تعالى : ﴿وَنَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ
وَأُخْبِتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (٥) ذَلِكَ يَأْنِي أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتِ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾
(الحج : ٥ ، ٧) . فقاس الإعادة بإحياء الأرض الموات .

وزيادة في الإيضاح والتدرج الجدلي المنطقي قاس الإعادة على إخراج
النار من الشجر الأخضر .

قال تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ

مُيِّنٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ ﴿٨٠﴾ (يس : ٧٧ ، ٨٠) .

فما استبعدتموه من البعث والنشور ليس هو أغرب من عملية إخراج النار المحرقة من العود الرطب الندي .

نعم لانقذاح النار من العودين الأخضرين أعجب من إحياء الموت ... (١) .

ومواصلة في تتبع هذا الأسلوب المتدرج في الجدل والحوار نرى قوله تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَى وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (النحل : ٣٨ ، ٣٩) (٢) .

فالآية تشير إلى أن الله الحق لا يقول إلا الحق ... وكان المتوقع من الخلق أن يدركوا تلك الحقيقة ، ولكن قتل الإنسان ما أكفره .

وقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « سبني ابن آدم ، ولم يكن ينبغي له أن يسبني ، وكذبني ولم يكن ينبغي له أن يكذبني ، أما تكذبه إياي فقال : وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت . وقلت : ﴿ بلى وعداً عليه حقاً ﴾ ، وأما سبه إياي فقال : إن الله ثالث ثلاثة ، وقلت : ﴿ هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ﴾ .

هذا ومن أنواع الجدل في القرآن : السبر أو التقسيم (٣) كما في قوله

(١) رأيت لو أن إنساناً صنع كرسيّاً ، ثم أعاد فكه وأعاد تركيبه مرة أخرى ، قل لي بربك : هل الأولى أصعب أم الثانية ؟ والله المثل الأعلى ..

(٢) وقيل في سبب نزول الآية : أنه جاء رجل مسلم إلى مشرك يتقاضاه ديناً ، فكان فيما تكلم به المسلم : والذي أرجوه بعد الموت إنه لكذا وكذا ، فقال له المشرك : إنك لتزعم أنك تبعث من بعد الموت ، فأقسم بالله جهد يمينه لا يبعث الله من يموت ، فنزلت الآية ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى ﴾ .

(٣) السبر والتقسيم باب من أبواب الجدل .. وهو من أنواع الاستدلال الكاشف للحقيقة الهادي إليها ، وهو أيضاً من أبواب الجدل يتخذ المجادل سبيلاً لإبطال =

تعالى : ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَالَّذِينَ كَفَرُوا هَرَمَ أَمِ الْأُنثَيْنِ أَمْآ أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَالَّذِينَ كَفَرُوا هَرَمَ أَمِ الْأُنثَيْنِ أَمْآ أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْكُمْ اللَّهُ بِهَذَا فَمَن أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَن اضْطَرَّ غَيْرَ بَآغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ (الأنعام : ١٤٣ ، ١٤٥) .

ففي هذه الآيات سبر المولى عز وجل أنواع الأنعام وهو يزري على أولئك الذي يحرّمون بعضها ويحلّون لحم بعض فقال تعالى : ﴿ ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ﴾ فما الذي حرّمه المولى ؟ أهما الذكران أم الأنثيان ؟ فإن لم يكن هذا ولا ذاك ، فما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ، وهي إما أن تشتمل على ذكر أو أنثى ، فإن لم يكن هذا ولا ذاك فالأمر افتراء على الله .

وهكذا يبيكت المولى هؤلاء الكفار الذين يحلّون ويحرّمون تبعاً لأهوائهم ، لأن التحريم إما أن يكون لعلّة ، فما علّة تحريم هذه الذكور أو تلك الإناث ، أو ما اشتمل عليه الرحم منهما . وإما أن لا تكون هناك علّة ، وهذا النوع هو التعبدى وهو لا يكون إلا بأمر إلهي ، والأخذ عن الحق عز وجل إما أن يكون بوحي أو إرسال رسول ، أو سماع عن الله سبحانه ، وهو قوله تعالى : ﴿ أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا ﴾ .

فما دام لم يرد التحريم عن الله بهذه الطرق جميعاً تعيّن بطلان ما تدعونه ، وأن جميع ما قيل هو تقوّل وافتراء على الله سبحانه ، وهكذا سلك القرآن هذا المسلك الجدلي القائم على السبر والتقسيم للوصول إلى نتيجة

= دعوى من يجادل به أن يذكر أقسام الموضوع الذي يجادل فيه ، ويبين أنه ليس في أحد هذه الأقسام خاصة تسوغ قبول الدعوى فيه فيبطل دعوى الخصم .

عامة ، وهي بطلان دعوى هؤلاء الكفار في التحريم لهذه الأنواع .

التسليم الجدلي :

وأما النوع الآخر فهو التسليم الجدلي ، وهو أن يفرض المحال إما منفياً أو مشروطاً بحرف الامتناع ليكون المشروط ممتنع الوقوع لامتناع وقوع شرطه ، ثم يسلم وقوع ذلك تسليماً جدلياً ويدل على عدم فائدة ذلك على تقدير وقوعه ، كقوله تعالى : ﴿ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ (المؤمنون : ٩١) .

والمعنى : ليس مع الله إله ، ولو سلم أنه معه سبحانه وتعالى إله للزم من ذلك التسليم ذهاب كل إله من الاثنين بما خلق ، ومحاولة استعلاء كل منهما على الآخر ، وهذا سيؤدي حتماً للاضطراب ، فلا يتم في العالم أمر ولا ينفذ حكم ولا ينتظم حال ، وذلك لأنه لو أراد أحدهما إحياء جسم وأراد الآخر إماتته ، فإما أن تنفذ إرادتهما ، وهذا يؤدي إلى التناقض لاستحالة تجزيء الفعل إن فرض الاتفاق ، أو امتناع اجتماع الضدين إن فرض الاختلاف . وإما أن لا تنفذ إرادتهما فيؤدي إلى عجزهما ، أو لا تنفذ إرادة أحدهما فيؤدي إلى عجزه والإله لا يكون عاجزاً ، فلزم أن يكون الإله واحداً لأن افتراض إلهين فصاعداً محال لما يترتب على ذلك من نتائج ، والمبني على المحال محال . . .

وعلى هذا قس قوله تعالى : ﴿ يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكَكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَيْرٍ ﴾ (فاطر : ١٣ ، ١٤) .

والمعنى : إن الذين تدعون من دون الله من الأصنام والأوثان وغيرها ما يملكون قشرة النواة ، والدليل على ذلك أنكم إن دعوتهم لا يسمعون دعاءكم ، وكيف يسمع من لا يملك السمع ، ففاقد الشيء لا يعطيه ؟ ولو

سلمنا جدلاً^(١) أنهم سمعوا دعاءكم فإنهم لا يستجيبون لكم ، لأن الذي يجيب الدعاء هو الخالق المضرّد بالأمر ، وحيث انتفى عدم سماعهم لكونهم لا يملكون الأداة السامعة انتفى كونهم آلهة ، وحيث انتفت ألوهيتهم ثبتت الألوهية للإله المدبر النافع الضار ، ولا ينبئك بمثل هذه الأمور وصدقها مثل خبير بها عالم بأغوارها وهو رب العزة والجلال . . .

أيضاً من أنواع الجدل القرآني مجارة الخصم ليعثر بأن يسلم بعض مقدماته حيث يراد تبكيته وإلزامه كما قال تعالى : ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنَّ أَنتُمُ الْإِنْسَانُ أَشَدُّ بَشَرًا مِّثْلَنَا تُرِيدُونَ أَن تَصَدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ (١٠) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَئِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (١١) وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنْصِيرَكَ عَلَىٰ مَا ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (إبراهيم : ١٠ ، ١٢) .

فالرسل في مواجهة القوم الذين يخاطبونهم فيقولون : ﴿ إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا ﴾ هنا كان رد الرسل : نعم نحن كما ذكرتم بشر ، وهذا قد يفهم منه أن الرسل قد تراجعوا في دعوتهم ، والواقع أن الأمر ليس كذلك ، ولكنه من قبيل المجارة لتبكيته الخصم وإلزامه بالتسليم عن طريق هذه المقدمات ، وكأنهم يقولون : نعم نحن لاننكر كوننا بشراً ، ولكن هذا لا يدفع ولا يمنع أن يمن الله علينا بالرسالة فهذا فضله يؤتیه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

ونحن نرى من هذا النص السامي أن الرسل سلموا بالمقدمة التي بنى عليها الأقوام رفضهم ، ولكنهم نقضوا النتيجة بقولهم : ﴿ ولكن الله يمن على من يشاء ﴾ فكانهم قالوا لهم ما قلتموه من أننا بشر حق ، ولكن

(١) التسليم الجدلي : هو التسليم للمخاطب في أمر « ما » مع اقتناعك ببطلان ما يقول لتصل من خلال مجاراتك له إلى الصواب عن طريق الإقناع ، فالأمر على ما هو عليه لم يتغير .

ما تريدون أن تبنوا عليه من إثبات أننا لسنا أنبياء باطل ، لأن الله يعمد على من يشاء من عباده ، وهو قد من علينا ، وقدمنا لكن السلطان ، أي الدليل ، ولا سلطان لنا إلا ما يأذن به الله تعالى سبحانه .

كما أخبر المولى أن الرسول لا يكون إلا بشراً ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكَاً لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ﴾ (٨) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴾ (الأنعام : ٨ ، ٩) .

وفي هذا النوع من الجدل استدراج للخصم واستجلاب لإصغائه ، وربما كان من الممكن بهذه الوسيلة ثنيه عن الإنكار .

ومن هذا اللون قوله تعالى : ﴿ قُلْ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴾ (١١٧) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَلِ الْعَادِينَ ﴾ (١١٦) قُلْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (المؤمنون : ١١٢ ، ١١٤) .

فالخطاب موجه إلى هؤلاء الكفرة : ﴿ كم لبثتم في الأرض عدد سنين ؟ ﴾ أجابوا : ﴿ لبثنا يوماً أو بعض يوم ﴾ هنا كان رد المولى عز وجل : ﴿ إن لبثتم إلا قليلاً ﴾ ، ثم يأتي التبكيت عقب ذلك : ﴿ لو أنكم كنتم تعلمون ﴾ .

فبعد مجاراتهم في هذا المكث السير جاء التقريع عقب هذه المقدمات وهو أن المفروض أن تضعوا نصب أعينكم أن المهلة يسيرة والمدة وجيزة ، فتقلعوا عن الكفر والعناد وتجهوا إلى الإيمان والرشاد ، وزيادة في التقريع قال تعالى عقب ذلك : ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾ أي : ليس الأمر كذلك فالهمزة للتوبيخ والتقريع .

ومن أنواع الجدل القرآني :

المناقضة : وهي تعليق أمر على مستحيل إشارة إلى استحالة وقوعه كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴾ (الأعراف : ٤٠) .

فقد علق المولى عز وجل دخول الكفار الجنة على دخول الجمل في ثقب الإبرة ، وهذا أمر مستحيل ، وما ترتب على المستحيل مستحيل ، ومن هنا

تعذر دخول الكافرين الجنة وهذا أبلغ في التعبير عن الاستحالة .
وعلى هذا قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَآتَتْ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ
جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا تُقِيلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴾ (المائدة : ٣٦) .

فالكفار لو أن لهم ما في الأرض جميعاً لافتدوا به وهذا أمر مستحيل
ترتب على هذه الاستحالة افتداؤهم من العذاب ، من هنا تعذر قبول
فدائهم ولهم عذاب أليم .
أيضاً من ألوان الجدل القرآني :

الاستدلال برد المسائل إلى أمور بديهية معروفة كما أشرنا ، أو حقائق
مشهورة مألوفة يخبر المجادل أمامها صاغراً ، كما ترى من إبطال قول من
زعم أن الله - سبحانه وتعالى - ولداً إذ يقول سبحانه : ﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ أُنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١١﴾
ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
وَكِيلٌ ﴿١١٢﴾ لَا تَدْرِكُهُ الْآبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْآبْصَرُ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾
(الأنعام : ١٠١ ، ١٠٣) .

ألا ترى أن الاستدلال القرآني اتجه إلى بطلان مدعاهم إلى أمر معروف
مشهور مألوف لا يماري فيه أحد ، وهو أنه لو كان له ولد لكان له صاحبة ،
ولم يدع أحد أن الله تعالى صاحبة ، فبطل أن يكون له ولد .

فنفي التولد عنه لامتناع التولد من شيء واحد ، وأن التولد إنما
يكون من اثنين ، وهو سبحانه لصاحبة له ، تعالى ثناؤه عما يقولون علواً
كبيراً . وأيضاً فإنه خلق كل شيء ، وخلق له لكل شيء يناقض أن يتولد عنه
شيء ، وهو بكل شيء عليم ، وعلمه بكل شيء يستلزم أن يكون فاعلاً
بإرادته ، فلا يجوز إضافة الولد إليه ^(١) .

أيضاً من ألوان الجدل :

الإسجال : بأن يثبت على لسان الخصم حقيقة كان ينكرها كما في
قوله تعالى : ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ

(١) الرد على المنطقيين لشيخ الاسلام ابن تيمية .

مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ (الأعراف :

وفي مثل هذا اللون من التسجيل الإثارة لوجدان المتشككين والمنكرين ، وإثارة الخوف في أنفسهم حين يسمعون اعتراف من على شاكلتهم ، ويدفعهم الخوف إلى التأمل عساهم يهتدون .

أيضاً من أنواع الجدل حمل لفظ وقع من كلام الغير على خلاف مراده مما يحتمله بذكر متعلقه كقوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ ﴾ ، يريدون أنه ﷺ سماع لكل شيء ، مصدق لكل قول ، ولكن الآية لم تترك الأذن مطلقة بل نسبتها إلى الخير ولهذا كان تمام الآية ﴿ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (التوبة : ٦١) .

أي أنه يصدق بالله ، ويسلم للمؤمنين ، لا لكم ، لعدم تصديقه إياكم ، ثم هو مع ذلك رحمة للذين أظهروا الإيمان منكم ، حيث قبلهم ولم يكشف حقيقتهم .

ومن الجدل تقرير المخاطب بطريق الاستفهام عن الأمور التي يسلم بها الخصم وتسلم بها العقول حتى يعترف بما ينكره ، كالاستدلال بالخلق على وجود خالق في مثل قوله تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكِ أَمْ هُمُ الْمُصْطَبِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ (الطور : ٣٥ ، ٤٣) .

ومنه الاستدلال بالمبدأ على المعاد كقوله تعالى : ﴿ أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ (ق : ١٥) .

وقوله تعالى : ﴿ أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَتْرَكَ سُذًى ﴾ (٣٦) أَلَمْ يَكُنْ مِنْ مَتْنٍ يُتْقَنُ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ﴿٣٨﴾ لَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقْدِيرٍ عَلَى أَنْ يُخْجِيَ الْمَوْتَى ﴿٤٠﴾ (القيامة : ٣٦ ، ٤٠) .

وقوله تعالى : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۖ خُلِقَ مِنْ صَلْوَ دَافِي ۖ يُخْرَجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۚ إِنَّهُ عَلَى رَجِيمٍ لَقَادِرٌ ﴾ (الطارق : ٥ ، ٨) .

أيضاً من ألوان الجدل القرآني : ما كان مبناه على الحذف والإيجاز كما في قوله تعالى يرد على النصارى الذين يزعمون أن عيسى ابن الله لأنه خلق من غير أب ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۚ ﴾ (آل عمران : ٥٩ ، ٦٠) .

فقد حذفت المقدمة هنا وأوضح المقايضة بين خلق آدم وخلق عيسى عليهما السلام ، وأنه إذا كان الخلق من غير أب مبرراً لاتخاذ عيسى إلهاً فأولى أن يكون الخلق من غير أب ولا أم مبرراً ، وعيسى خلق من غير أب ، فلو كان عيسى إلهاً لكان آدم أولى ، لكن آدم ليس ابناً ولا إلهاً باعترافكم فعيسى أيضاً ليس ابناً ولا إلهاً ، وقد أكسب الحذف الكلام طلاوة ورونقاً وأعطى الكلام حجة في الرد على النصارى .

ويذكر الجميع بأن آدم والناس جميعاً ينتهون إليه ، وهو إنما خلق من تراب .

هذا ويلاحظ أن القرآن الكريم في الجدل الذي يسوقه إنما يلزم الخصوم ويفهمهم ، يجيء إلى الإفحام من أقرب الطرق وأقواها إلزاماً ، وبذا لا يلبث أن يأخذ بيد المعاند إلى الحقيقة بينها واضحة جلية لا ريب فيها ، كما ترى في قوله تعالى راداً على المشركين طلبهم في أن يكون الرسول ملكاً ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ۚ ﴾ (الأنعام : ٨) ، ﴿ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلِيسُونَ ﴾ (الأنعام : ٨) .

فإنك ترى أن في ذلك إفحاماً لهم من ناحيتين : الناحية الأولى : أنهم لو أجيبوا إلى ما يطلبون لقضى عليهم ما هددهم الله تعالى به ، ولا ينظرون . والناحية الثانية : أنه لا يزول اللبس الذي يلبسون به الحق بالباطل ، لأنه لو جعله الله تعالى ملكاً لجعله في صورة رجل وبذلك يجيء الالتباس الذي لبس به عليهم .

أسلوب الحوار في القرآن الكريم

ومن ألوان الحوار في القرآن الكريم كذلك تلك المحاوراة التي جرت بين موسى عليه السلام وفرعون ؛ ففي أثناء الحوار بينهما قال فرعون مخاطب الكليم عليه السلام : ﴿ أَلَمْ نُزَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ (١) .

استفهام تقريرى ، وكأن فرعون قد أراد أن يصل من وراء هذا إلى إلزام الكليم بأمر وهو أنك لاتعدو أن تكون شخصاً قد تربى في بلاطي صغيراً (٢) ، فمتى كبرت لتخاطبني ؟ كما أراد الامتنان عليه بهذه التربية ثم يقول بعد ذلك : ﴿ وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ .

فبعد أن عدّد إنعامه على موسى ، بدأ يعدّد ذنوبه فيقول : فكان جزائي منك أن قتلت رجلاً من أصحابي مقابل إنعامي عليك ؟ !

فبماذا ردّ الكليم : ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ أي : قتلي للقبطي إنما كان من غير قصد ولا إرادة ، كما أشارت الآية : ﴿ فَوَكَزَهُ

(١) الآيات من سورة الشعراء (من آية ١٨ - إلى ٥١) .

(٢) عن لبث الكليم في بلاط فرعون اختلفت الروايات ، فقيل : ثمانية عشرة عاماً ، وقيل : بل ثلاثين ، وقيل : بل أربعين سنة . والراجح الذي أميل إليه أنه لبث ثلاثين عاماً ، إذ من مدة فراره بعد قتله القبطي وغربته في مدين هي عشر سنوات ﴿ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ ﴾ وقد سئل رسول الله ﷺ عن المدة التي مكثها موسى في مدين : ثمان أم عشر ؟ فقال : أبرهما وأكملهما ، وعاد بعدها ليتشرف بحمل الرسالة والنبوة ، فيكون في الأربعين وهو سن الرشد ، فيكون قد شرف بها كسيدنا رسول الله ﷺ وهو في الأربعين من العمر ، ولا سيما أن التشابه بين سيدنا رسول الله ﷺ وسيدنا موسى عليه السلام قريب جداً حتى في رعي الغنم ، وكلاهما من ذوي العزم .

﴿ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ ﴾ : هنا يتبادر سؤال : كيف يقتل موسى عليه السلام القبطي مع كونه نبياً ألا يتنافى هذا وعصمة الأنبياء .

والجواب : إنه لا يغض قتل القبطي من نبوة موسى ، ولا يتصادم مع العصمة حيث إنه حينما قتله لم ينبأ بعد ، كذلك قتله لم يكن مقصوداً فضلاً عن كون المقتول كافراً .

موسى فَقَضَى عَلَيْهِ ﴿ أَي : ضربه بجميع الكف فكانت الضربة القاضية ، فلم أكن كافراً بالنعمة ولكن الصحيح أنى كنت ضالاً فهداني ربي وأكرمني بالنبوة ، وما أنا أردوها لك يداً بيضاء فأننا أريد هدايتك إلى الطريق القويم والصراط المستقيم . . .

﴿ فَفَرَزْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خَفَْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ وتلك نعمة تمثها على أن عبّدت بني إسرائيل ﴿ .
فماذا تمتن على يافرعون ؟ ! بأن قتلت واستعبدت قومي مقابل أنانية متأصلة فيك ، فلولا أنك قد علمت بأن هناك من سيزلزل ملكك من بني إسرائيل ما فعلت الذي فعلت .

ولولا أن زوجك راجعتك في وقالت : ﴿ قَرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ ﴾ لأجهزت علي .

وبعد هذه المحاوراة العابرة والتي فيها الكثير من مراجعة الحسابات قال فرعون وفي نبرة حادة جازمة : ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ ﴾ أي ماكنه إلهك هذا ؟

قال موسى : ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴾ هو أعظم وأجل من أن يوصف وإن ما في مخلوقاته من سموات وأرض وما بينهما دليل على عظمة الخالق عز وجل .

حيث لجأ فرعون إلى المغالطة وتعويم الموقف قائلاً لمن حوله : ﴿ أَلَا تَسْمِعُونَ ﴾ ألا تسمعون لهذا الهراء على حد مزاعم الكفور .

قال موسى قاطعاً على فرعون الاسترسال في الإبهام ، والتغليط ﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ فالشواهد تتلاحق ، وأنت يافرعون عبد ولست برب ، فالرب هو الله سبحانه .

فلما أفحم فرعون ، وخشي أن يخرج الأمر من يده ، أضرب عن هذه المناقشة والتفت إلى قومه في لهجة تنم عن الاستهزاء على سبيل عدم الاكتراث والمغالطة التي جبل عليها فرعون ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ ، فلا داعي إلى الاستماع إلى كلام مجنون . هنا قال موسى عليه السلام : ﴿ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ،

لا ، لن أدع لك الفرصة لدحض حجتي ، أو محاولة تزييف حقيقة ماجئت به ، فالذي أدعو إليه هو رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون ، حينئذ سوف تستطيعون التمييز بين كلام العقلاء والمجانين .

هنا لجأ فرعون إلى طريق القمع والاستعلاء ، فقال لموسى : ﴿ لَئِنْ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ وسجن فرعون لا يقلّ فظاعة عن قتله الأبرياء فقد ملأه بألوان الاضطهاد والتعذيب فلا يخرج منه السجين إلا ميتاً حقيقة أو حكماً .

فلما أحسّ موسى أن فرعون يتهرب من الاستجابة أراد أن يستعمل معه طريق المحسوسات حتى يكون ذلك أقرب للقوم يلمسونه ويشاهدونه ﴿ قَالَ أُولُوْ جِثَّتِكَ بَشِيءٌ مُّبِينٌ ﴾ ، يبين عن صدق دعواي ، فماذا ترى يا فرعون في هذا ؟ ولعل فيه ما يؤكد صحة قلبي ، وقد أحسّ اللعين الحرج ولكن خشية أن تضطرب الأمور عليه ﴿ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ وهنا ألقى موسى عصاه ﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾ ، هنا حاول فرعون المراوغة بعد أن شاهد إحساسه بالضعف واضمحلال دعواه ، من ثم التفت للملأ من حوله ، وما كان ليفعلها وهو الذي يرى بأنه إله وأن له الحق في التعالي والسخرية من كل منهم ، لكن الآن الموقف لا يسمح بهذا ، فماذا قال : ﴿ قَالَ إِنْ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ منتهى التنازل والأدب والتواضع من فرعون المتغطرس الجبار « فماذا تأمرون » ؟ ﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُواكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ ﴾ ، وفي منتهى الضعف والاستكانة من قومه الذين ألفوا الذلة والمهانة قالوا : أرجه وأخاه وأبعث في المدائن حاشرين ﴿ يَأْتُواكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ ﴾ وكأنهم رأوا أيضاً أن كلامه ودعواه في اتهام موسى بالسحر أمر مفروغ منه .

﴿ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ * لَعَلَّنَا نَبْغُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ ﴾ .
وهنا تبرز الآيات ، السحرة في مواجهة فرعون ﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ

قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَتَنْنَا لَنَا لِأَجْرٍ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١٥﴾ ويصادف هذا الكلام هوى في نفس فرعون فهو يريد أن يستعيد مكانته المهزوزة ويدحض حجة موسى بأي الطرق ﴿١٦﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنكُمْ إِذَا لِمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١٧﴾ علاوة على هذا الأجر فإن لكم التقريب والإعزاز .

وينتقل المشهد إلى جانب آخر يبدو فيه موسى في مواجهة السحرة ، فصلته سورة طه ﴿١٨﴾ قَالُوا يَمْشِي إِمَامًا أَن تُلْقَى وَإِمَامًا أَن تَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴿١٩﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا جِأَتْهُمْ وَعِصِيَّتُهُمْ بِخِزْلٍ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنهَا سَعَى ﴿٢٠﴾ (الآية : ٦٥ ، ٦٦) .
﴿٢١﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّتَهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٢٣﴾ .

حصروا الغلبة في أنفسهم وقرنوها بعزة فرعون ، وكأنهم أرادوا أن يستميلوه في صفهم ويعززوا من موقفه ﴿٢٤﴾ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٢٥﴾ .

فما كان جواب السحرة إلا أن خرّوا ساجدين ﴿٢٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٢٨﴾ ، فهو الإله المستحق للعبادة لا أنت يا فرعون . ومن فرط المفاجأة وهول الدهول بدا فرعون وهو يحاول أن يتلافى ما يمكن تلافيه من موقف متدهور فإذا به يصبح في السحرة ﴿٢٩﴾ قَالَ آمَنْتُمْ لَهُمْ قَبْلَ أَنْ أَدْنَى لَكُمْ ؟ ﴿٣٠﴾ عجيب حقاً هذا التساؤل الفرعوني ، ولكنها المغالطة . ثم يقول : ﴿٣١﴾ إِنَّكُمْ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَا قِطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَنْتُمْ مِّنْ خَلْفٍ وَلَا صِلَتَكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٢﴾ حيلة الضعيف المهزوم اللجوء إلى التهديد والوعيد . وإلا فكيف يكون موسى كبيرهم ومعلمهم وهو ماشاهدهم إلا منذ ساعات !! ؟

ولكن السحرة وقد استبان لهم طريق الهدى والرشاد هيهات أن يحفلوا بمثل هذه التهديدات ﴿٣٣﴾ قَالُوا لَا ضَرَرَ لَنَا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٣٤﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ (الشعراء : ١٨ ، ٥١) (١) .

(١) عجباً لأمر السحرة فبعد أن كانوا في أول النهار سحرة فجرة ، إذا بهم يغدون في آخر النهار شهداء بررة ، وهكذا تغيرت هذه النفوس المحبة للمال التواقفة للحصول عليه المستجيبة لأوامر فرعون ، بعد أن رأوا عظمة معجزة موسى عليه السلام ، حتى إنهم لم يؤثر فيهم التهديد الفرعوني ، ومن ثم نراهم لم يأبوا بهذا التهديد =

وهكذا نجد القرآن وهو يخاطب المجادل ويحاوره إلى أن يسوقه إلى الاعتراف بما يفحمه من أدلة وشواهد تقوده إلى الاقتناع والتسليم ؟
هذا النمروذ في مواجهة الخليل عليه السلام : قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت ، قال النمروذ : أنا أحيي وأميت ؟! وكيف يتأتى هذا ؟!
أحضر النمروذ سجيناً حكم عليه بالإعدام فأمر بإطلاق سراحه ، وآخر برئت ساحته فأمر بقتله .

هذا هو إحياء الموتى وإماتة الأحياء في نظر النمروذ .
حينئذ سلك الخليل مع مجادله أسلوباً آخر في إقامة الحجة وإيقاع الخصم في الاعتراف بما ينكر بطريق غير مباشر ، فما دام أنك قد سلكت أسلوب المغالطة وقلب الحقائق ، فأنا سوف أجبرك على الاعتراف بما تنكر ، وأظهر ضعفك أمام الجميع ، وفي هذا مافيه من إفحام الخصم وتبكيته ، قال إبراهيم : فَإِنَّ رَبِّي يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ !!

نعم هذا مظهر من مظاهر قدرة الله في آياته الكونية ، ومثل هذا لا يتسنى إيجاده إلا للاله القادر ، فإن كنت صادقاً في دعواك الألوهية فقم بمخالفة سنة من سنن الله في الكون ، وأت بالشمس من المغرب بدلاً من ظهورها من المشرق .

وإذا بالخصم العنيد المكابر تعثره الكآبة ، ويصاب بالذهول أمام هذا التحدي السافر ، وهنا يغص بريقه فلا يجير جواباً ﴿ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾^(١) .

= بل قالوا : ﴿ لا ضير ﴾ أي : لا ضرر يلحقنا وصلبك يا فرعون لنا لأننا سنلقى ربنا عز وجل فيغفر لنا ما وقعنا فيه من ظلم ﴿ إنا إلى ربنا منقلبون ، إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين ﴾ الشعراء (٥٠ - ٥١) .

(١) قال تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ . الآية من سورة البقرة (٢٥٨) .

صورة أخرى من هذا الحوار القرآني ماجرى بين السيدة العذراء مريم وجبريل عليه السلام .

فحينما جاءها الملك في صورة البشر حتى لا تتزعج فترى شيئاً غير مألوف ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَبَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ (١٦) فَأَتَتْهَا مِنْ دُونِهِمْ جِبَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿ ١٧ ﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ نَقِيًّا ﴿ (مريم : ١٦ ، ١٨) .

فربطت كلامها بتقواه لأنها تظن أنه بشر ، وعلى ذلك تم شيء من الاستئناس .

وهنا يدور الحوار بينهما ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾ .

ما هذا الطلب إنه طلب فيه ما فيه من هتك للمعرض وضياح للشرف ، ومقت للفضيلة ، من ثم كان لابد أن يصارحها بأنه ملك من عند الله جاء ليهب لها غلاماً زكياً ، فحينذاك تحولت بشريته فأصبح ملكاً بمرأى عينها وقلبها ، ولكن العجب يحيط بها ، فكيف يهب لها غلاماً ولم يمسهها بشر ﴿ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ .

ومن ثم فما أحوجها إلى اقتناع من هذا الملك ، بأن ذاك شيء في الإمكان وليس مستحيلاً ، معللاً ذلك بقوله : ﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَلَنَجْعَلَ لَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴾ .

وعلى هذا إذا تم الحمل ، ونفذ أمر الله ، لاتعيش مريم في دهشتها التي كانت متوقعة ، فلا تحس بحيرة واضطراب لأنها علمت أن الأمر من الله ، وأن الحكم حكم الله ﴿ فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً ﴾ .

وهي وإن كانت آمنت بحكم الله ، وصدقت رسول الله وأيقنت بقضاء الله وقدره ، ولكنها تحسب حساب مجتمعيها ، فتخاف سطوة لسانه ، وتخشى من نهكمه وإيذائه حتى قالت : ﴿ ياليتني متٌ قبل هذا وكنتُ نسياً منسياً ﴾ .

ولكن صاحب الأمر ﴿ كن فيكون ﴾ لابد أن يخفف عنها هذا العناء ، ويقلل من هذا السلاح الاجتماعي الرهيب حتى كلمها طفلها فهذا

من نفسها ، وأزال شيئاً من خوفها قائلاً ﴿ أَلَا تَحْزَنُ فَيَقْدُ جَعَلَ رَبُّكَ تَحَنُّنًا سَرِيًّا ﴾
(مريم : ١٦ ، ٢٤) .

هكذا يتجلى لنا من خلال هذا العرض كيف يمنح القرآن في كل نموذج من نماذجه سواء في الجدل أو الحوار إلى العرض المقنع من خلال الشواهد والأدلة التي تقفل على المجادل خط الرجعة ، فلا يجد بداً من التسليم والإقتناع بصدق الشاهد القرآني ، كيف لا . . . وقد فتح هذا الأسلوب للمجادلين الجاحدين باباً واسعاً من أبواب رحمة الله . . . وهو باب الهداية والرشاد ، وكل ذلك في صور حية متحركة تموج بالحياة وتعبر عن خلجاتها وأحاسيسها دون مواربة في صدق وإقناع ، وتلك قمة الإعجاز البياني المؤدي إلى الهداية التي تغلق أمامها كل أبواب الزيغ والضلال ، على أنه مما لا شك فيه أن المتتبع لآيات الجدل في القرآن الكريم يجد أنها جمعت كسائر الآيات في كتاب الله الخالد المعجز بين ظاهري الإعجاز البياني والإعجاز في الهداية والتوجيه عن طريق الأسلوب الجدلي الذي يدعو إلى الإيمان بالله سبحانه بالحكمة والموعظة الحسنة كما يعطي هذا الأسلوب الجدلي الفرصة السانحة للخصم لأن يوعد من جديد إلى ساحة الهداية والرشاد . . . مدعناً عن طريق الإقتناع والتسليم . . .

الفصل الثاني

القسم في أسلوب القرآن

تقديم

لعل من أجل مباحث علوم القرآن التي كانت محلّ عناية العلماء قديماً وحديثاً المباحث التي تدور حول القسم في القرآن الكريم ، والتي أصبحت تحتلّ مكانة خاصة على مائدة القرآن الكريم .

فأفردت فيها المؤلفات التي تتحدث عن هذا الجانب ، نذكر على سبيل المثال لا الحصر : « التبيان في أقسام القرآن » للإمام ابن قيم الجوزية . وهناك من أفرد له فصلاً خاصاً في كتابه كالإمام الزركشي ، أما في المُحدثين فقد كان الاهتمام به واضحاً حيث لا يكاد يخلو كتاب من كتبهم التي تتحدث عن القرآن إلا ويشار فيه جانب القسم وتشمله الدراسة والبحث .

يقول الدكتور محمد محمد أبو شهبه^(١) : « وقد تبارى علماؤنا في هذا المضمار الفسيح ، وجروا فيه أشواطاً بعيدة حتى زخرت المكتبة الإسلامية بميراث مجيد من تراث سلفنا الصالح وعلمائنا الأعلام ، وكانت هذه الثروة ولا تزال ، وستظل إن شاء الله نبراساً تهتدي به أمم الأرض ، ويستضيء به أهل الملل في كل عصر ومصر .

وأضحت هذه العناية بحق أروع مظهر عرفه التاريخ لحراسة كتاب الله الخالد الذي حفظه الله تعالى من التحريف والتغيير ، وبذلك هيأ الله سبحانه الأسباب المتكاثرة لحفظ كتابه ، وذلك مصداق لقوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر : ٩)^(٢) .

(١) المدخل لدراسة القرآن / محمد أبو شهبه / الطبعة الثانية (١٥) .

(٢) ممن تحدّث في موضوع القسم الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله في كتابه القيم :

« البيان في أقسام القرآن » .

كما تحدّث في هذا الجانب الإمام السيوطي رحمه الله في كتابه : « الإتيقان » .

مفهوم القسم

يرى اللغويون أن القسم^(١) في اللغة يأتي بمعنى : اليمين ، وكذلك المُقْسَم ، بضم فسكون مثل : المخرج ، وجمع القسم أقسام .

وقد أقسم بالله سبحانه ، واستقسمه به ، وقاسمه حلف له .

وتقاسم القوم : تحالفوا ، وأقسمت : حلفت ، قال تعالى : ﴿ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴾ (الحجر : ٩٠) .

هم الذين تقاسموا وحلفوا على كيد رسول الله ﷺ ، وقاسمهما ، أي : حلف لهما .

وفي الحديث : « نحن نازلون بخيف بني كنانة حيث تقاسموا على الكفر » .

وتقاسموا : أي تحالفوا ، يريد تعاهد قريش على مقاطعة بني هاشم في الشعب .

والمُقْسِم : الرجل الحالف .

وهكذا نجد أن القسم يأتي بمعنى الحلف ، واليمين .

ويأتي أيضاً بمعنى الألية ، والشهادة ، وهذه الأخيرة وإن لم تحمل أركان القسم إلا أنها تؤدي المعنى نفسه الذي يؤديه ، وهو التقوية والتأكيد .

فاليمين : مأخوذ من أن المتحالفين يأخذ كل منهما بيمين صاحبه ، فصار القسم يسمى يمينا .

قال تعالى : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِالْفَوِّ فِيْ أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ ﴾ (المائدة : ٨٩) .

والحلف : أصله المحالفة والمعاهدة وعند حصول التحالف والتعاهد بين الناس يقع تأكيدها بالأيمان ، فصاروا يطلقون الحلف ويقصدون اليمين نفسه .

(١) لسان العرب - لابن منظور - مادة قسم .

قال تعالى : ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحْسَنُ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (التوبة : ٦٢) .

وهكذا نجد أن المعنى في كل من القسم واليمين والحلف راجع إلى معنى التأكيد والتقوية .

هذا وقد عرف العرب القسم قديماً وكان مهماً عندهم ، عرفوا القسم وجعلوا له مكاناً عزيزاً عندهم .

والقصد من القسم عندهم تحقيق النبأ وتأكيده إذا كان المتحدث مظنةً للشك أو التدليس .

فإن أخبر أحد أحداً بأمر ، وأراد منه أن يصدقه وينقل عنه مضمون الخبر أو العهد ، أكدده له وأتبعه بالقسم .

والقسم شهادة ، والشهادة أمانة ، والأمانة هي من أقدم وأعرق القيم التي حرص عليها الإنسان الحيّ الضمير منذ فجر التاريخ ، فمن حافظ عليها سمي (بالأمين) .

كما كانت العرب في جاهليتها تلجأ إلى تأكيد الأمر وتقويته بصور شتى :

كأن يتجمع القوم على الدم ويغمسوا أيديهم فيه ، كناية عن الاستبسال في أخذ الثأر حتى الموت .

وربما تقاسموا بينهم عطراً فمسحوا بأيديهم منه ، وراحوا وعبقه يضوع من أيديهم وثيابهم علاقة الالتزام كما في قصة « عطر منشم » .

وربما ربطوا حبل أحدهم بالآخر ، كصورة من صور التحالف وعقد الذمة والجوار ، أو قد يجرمون على أنفسهم بعض المشتبهات كشرب الخمر ، ومسّ الطيب ، وترجيل الشعر ، حتى يصلوا إلى هدفهم ويظفروا ببغيتهم^(١) .

ولا أدلّ على أهمية القسم من أنه يشعرك بالمراقبة الدائمة من المولى عز وجل ، حيث جعل سبحانه الوفاء به مظهراً من مظاهر التقوى ، وجعل نقضه عقوبة تستوجب السخط .

(١) يتصرف من كتاب في علوم القرآن - د . فؤاد علي رضا - (١٦٤) .

والقسم ليس مقصوراً على القرآن الكريم ، ولا على الكتب السماوية الأخرى إبان نزولها على الرسل عليهم السلام . بل نجد مظهراً من مظاهر التعامل بين طبقات المجتمع المختلفة ، ذلك أن القسم إنما جاء حاجة في النفس الإنسانية ، إما لدفع شبهة أو لتقوية أمر من الأمور وتأكيدده . ولما كانت الطبائع تختلف من حيث قبولها لأمر « ما » أو عدم قبوله لأول وهلة كانت الحاجة ماسة للقسم .

لقد قسم علماء البلاغة النفس الإنسانية التي يوجه إليها الخبر من حيث قبولها للخبر أو عدم قبوله إلى ثلاثة قسام :
خالي الذهن من الخبر : وهذا لا يحتاج إلى تأكيد الخبر له ويسمى هذا الضرب : الابتدائي .

التردد الشاك : وهذا يحتاج إلى تأكيده بمؤكد واحد ، ويسمى هذا الضرب بالطلبي .

المنكر : وهذا يحتاج إلى عدة مؤكدات ، ويسمى هذا بالضرب الإنكاري .

ولما كان القرآن الكريم ، وهو كلام رب العالمين وهو سبحانه أدرى بطبائع النفوس البشرية ، من هنا ذكر كتاب الله بألوان القسم لدحض شبه الكفار والمكابرين . وكان القسم يتكرر في صور شتى لدفع إنكار هؤلاء المعاندين واستدراجهم إلى الاعتراف بما ينكرون^(١) .

ويقسم الله تعالى مراراً على صدق ما جاء به هذا الدين الذي نزل القرآن لتثبيت أسسه وقواعده ، فيقرر الوجدانية بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴾ (الصافات : ٤) .

ويقسم على صحة البعث : ﴿ إِنَّمَا تُوْعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴾ (الذاريات : ٥) .

(١) يقول د . أحمد أحمد بدوي : « وإذا كان القسم لا ينجح أحياناً في حمل المخاطب على التصديق ، فإنه كثيراً ما يوهن في النفس الفكرة المخالفة ، ويدفع إلى الشك فيها ، ويبعث المرء على التفكير القوي فيما ورد القسم من أجله » .
من بلاغة القرآن (١٧٠) .

والواقع أن الفكرة الخاطئة تدحضها الفكرة السليمة وليس أسلوب القسم على الرغم من أهميته ..

وعلى أن القرآن حقّ : ﴿ فَلَأَقْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ ﴾ (٧٥) وَلَئِنْ لَقَسْتُمْ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿ (٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ (الواقعة : ٧٥ ، ٧٧) .

وعلى أن الرسول ﷺ صادق في كل ما يقول : ﴿ يَسَّ ﴾ (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (يس : ١ ، ٣) .

يقول الإمام السيوطي^(١) رحمه الله : ومن لطائف القسم قوله تعالى : ﴿ وَالضُّحَى ﴾ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴿ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ (الضحى : ١ ، ٣) .

أقسم تعالى على إنعامه على رسوله وإكرامه له ، وذلك متضمن لتصديقه له فهو قسم على صحة نبوته وعلى جزائه في الآخرة .

فهو قسم على النبوة والمعاد ، وأقسم بآيتين عظيمتين من آياته ، وتأمل مطابقة هذا القسم ، وهو نور الضحى الذي يوافي بعد الظلام ، المقسم عليه وهو نور الوحي الذي وافاه بعد احتباسه عنه حتى قال أعداؤه : « ودّع محمد أربته » .

فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل على ضوء الوحي ونوره بعد ظلمة احتباسه واحتجابه .

وقد تحدث الزمخشري عن صور القسم ، وعن العلاقة بين المقسم به والمقسم عليه ، وبين أن أحسن القسم ما وضحت فيه هذه العلاقة ، يقول في قوله تعالى : ﴿ حَمْدٌ ﴿ (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ (٢) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (الزخرف : ١ ، ٣) .

أقسم تعالى بالكتاب المبين ، وهو القرآن الكريم ، وجعل قوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ . جواباً للقسم ، وهو من الأيمان الحسنة البديعة ، لتناسب المقسم به والمقسم عليه وكونهما من واحد^(٢) .

(١) الإتيان في علوم القرآن - للإمام السيوطي - (١٧٢) .

(٢) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية - د . محمد حسين أبو موسى (٣١٥) .

يقول الإمام أبو القاسم القشيري : « القسم بالشيء لا يخرج عن وجهين إما لفضيلة أو لمنفعة :

وإذ قد علمنا أن القسم إنما يكون لتقوية الأمر وتأكيده وهو إنما يكون بالله رب كل شيء ومليكه .
ونحن نجد أن القرآن قد عرض صوراً عديدة للقسم بغير الله سبحانه ، فما السر في ذلك ؟

لقد أقسم الله سبحانه بنبيه محمد ﷺ فقال تعالى مخاطباً حبيبه سيدنا رسول الله ﷺ في إطار الحديث عن قوم لوط : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ بِعَمَّوُونَ ﴾ (الحجر : ٧٢) .

وفي هذه يقول ابن عباس رضي الله عنه : « ما خلق الله ولا ذراً ولا براً نفساً أكرم عليه من محمد ﷺ وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره » (١) .

= فالفضيلة كقوله تعالى : ﴿ وطور سنين وهذا البلد الأمين ﴾ .
والمنفعة كقوله تعالى : ﴿ والتين والزيتون ﴾ .

والتين : فاكهة مخلصة من الشوائب لا عجم فيه ، وهو على مقدار اللقمة ، وهو فاكهة وقوت وغذاء ، ودم ، ويدخل في تركيب الأدوية ومزاجه أعدل الأمزجة .
والواقع أن الآيات من سورة التين كلها تحمل معنى الفضيلة والمنفعة ، ذلك أن التين والزيتون إشارة إلى بيت المقدس ، وفيها ولادة نبي الله عيسى عليه السلام ، ﴿ وطور سنين ﴾ الجبل الذي كلم الله عليه نبيه موسى عليه السلام .
﴿ وهذا البلد الأمين ﴾ مكة مهبط الوحي ومولد سيدنا رسول الله ﷺ .
والمنفعة في هذه كلها ليست بخافية .

(١) الإتيان في علوم القرآن - للإمام السيوطي - (١٧٠) .

ويرد سؤال : كيف يقسم المولى بمخلوقاته ، وقد ورد النهي عن القسم بغير الله ؟

وأجيب عن هذا بتخريجات منها : إنه على حذف مضاف ، « فالتين والزيتون » أي : (ورب التين ، ورب الزيتون) .

والقسم إنما يكون بما يعظمه المقسم أو يحمله ، والله سبحانه فوق كل شيء وإنما أقسم بمصنوعاته ، لأنها تدلّ على باريء وصانع عظيم .

ثم إن القسم بالمصنوعات يستلزم القسم بالصانع ، لأن ذكر المفعول يستلزم ذكر الفاعل إذ يستحيل وجود مفعول بغير فاعل .

والحق الذي ينبغي تجاوزه أن للمولى عز وجل أن يقسم بما يشاء من مخلوقاته لما سبق شرحه ، وليس للمخلوق أن يقسم بغير الله وإلا فقد كفر .

كما أقسم سبحانه بمخلوقاته الأخرى كالشمس والقمر ، والليل والنهار ، والنجوم إلى غير ذلك من مصنوعاته .
والواقع إنما أقسم رب العزة والجلال بمصنوعاته تنبيهاً إلى ما فيها من إعجاز يدفع إلى التفكير في خالقها ، وأنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

وأن محمداً ﷺ صادق في كل ما بلغه عن ربه . . .
وأقسم القرآن في مواضع أخرى بالليل والنهار والنجوم باعتبارها مظاهر للقدرة الباهرة .

كما أقسم بالرياح إذ تحمل السحب مليئة بالماء ، فتجري بها في رفق ويسر ، ثم تدعها توزع مياهها هنا وهناك فقال تعالى : ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴾ فالحاملات وقرأ * فالجاريات يسراً * فالمقسّمات أمراً * إن ما تُوعدن لصادق ﴿ (الذاريات : ١ ، ٥) .

وفي الريح وحملها للسحب الموقرة بالماء وجريها بها في الفضاء ، ثم في نزول المطر ما يدلّ على قدرة الخالق الباهرة .

أركان القسم وأنواعه

وللقسم أركان أربعة :

مقسم : وهو الله سبحانه .

مقسم به : وهو الذات العلية ، أو صفة من صفاته سبحانه أو فعل من أفعاله هو مظهر لقدرته أو أثر من آثار عظمته .

مقسم عليه : وهو يتصور في كل ما يدل على وحدانية الله وقدرته وباهر عظمته في الخلق والرزق والبعث والنشور .

أدوات القسم : وهي الباء نحو : بالله العظيم . وينوب عنها حرف الواو غالباً ، ويدخل على الظاهر دون المضمّر نحو : « والله » أي : وربي إنه لحق .

وحرف التاء ويختص بلفظ الجلالة نحو : ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَمَكُمْ بَعْدَ أَنْ قُولُوا مَدِيرِينَ ﴾ (الأنبياء : ٥٧) .

كما ينقسم القسم الوارد في القرآن الكريم إلى نوعين :

النوع الأول :

القسم الظاهر وهو ما ظهرت جميع أركانه أو أغلبها ، وهذا له صور منها أن يتعدد المقسم به مع انفراد المقسم عليه ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَالطُّورِ ① وَكَتَبَ مَسْطُورِ ② فِي رَقٍّ مَنشُورِ ③ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ④ وَالسَّعْفِ الرَّفُوعِ ⑤ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ⑥ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴾ (الطور : ١ ، ٧) .

ومن صورهِ أن يتعدّد المقسم به والمقسم عليه كقوله تعالى : ﴿ وَالضُّحَى ① وَأَلَيْلٍ إِذَا سَجَى ② مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ③ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ④ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ⑤ ﴾ (الضحى : ١ ، ٥) .

وقد ينفرد المقسم به مع تعدد المقسم عليه : ﴿ وَالتَّجْرِ إِذَا هَوَى ① مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ② وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ③ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ④ ﴾ (النجم : ١ ، ٤) (١)

(١) هذا وقد يحذف جواب القسم ويبقى ما يدل عليه كما في قوله تعالى : ﴿ والفجر =

القسم الثاني :

وهو ما دل عليه مضمون الكلام نحو قوله تعالى : ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً ﴾ (آل عمران : ١٨٦) .

فلفظ القسم وأداته غير موجودين في الكلام ، ولكن علماء التفسير واللغة يقدرون في الكلام قسماً مضمراً ويقولون « والله لتبلون » ويجعلون فوق التوكيد قرينة على ذلك والمذكور هو المقسم عليه .

وقد يذكر المقسم به والأداة ، ويحذف المقسم عليه كقوله تعالى : ﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ۝١ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ (ص : ١ ، ٢) .

وحذف المقسم عليه هنا أو جواب القسم لدلالة التحدي عليه ، كأنه قال : والقرآن ذي الذكر إنه لكلام معجز .

ومثله قوله تعالى : ﴿ لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۖ وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ۝١ ﴾ .

فالمقسم عليه أو الجواب محذوف والتقدير : لتبعثن ولتحاسبن .

= وليال عشر ... ﴿ .

فما يدل على الجواب هو قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾ .

وتقدير الجواب : « لتحاسبن ولينزلن بكم ما نزل بأسلافكم » .

(١) هذا والماضي المثبت المتصرف الذي لم يتقدم معموله إذا وقع جواباً للمقسم تلزمه

(اللام وقد) ولا يجوز الاختصار على أحدهما إلا عند طول الكلام ، كقوله تعالى :

﴿ وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ، وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَاها ، وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّاهَا ، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ

زَكَّاهَا ﴾ ، وقد حذفت اللام واكتفي بقدر فقط لطول الكلام .

شبه حول القسم في القرآن الكريم

هناك بعض الشبه التي وردت في هذا الموضوع ، وهي شبه واهية سرعان ما تتداعى عند البحث والتأمل .

ومن الشبه الواردة فيما يتعلق بأقسام القرآن :

القول بأن الذي يلجأ إلى القسم متهم في صدقه ، مفتقر إلى تأييد دعواه ، وقد نهى القرآن عن كثرة الحلف فقال تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة: ٢٢٤) .

وقد أثر عن سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه امتنع عن الحلف وهو صادق .

ولكن هذه الشبهة تتهاوى عند التأمل الواعي ، فإن الذي يلجأ إلى القسم في معظم الأحيان قد يكون متهماً في صدقه في ذلك الأمر المقسم عليه ، وهو مفتقر إلى تأييد دعواه ، وهنا يستحسن منه القسم لتأييد دعواه ما دام على حق فيما يقول .

وأما إذا لم يكن الأمر مستلزماً للقسم بحيث كانت الدعوى ظاهرة فعليه حينئذ استعمال المعارض ، فإن فيها مندوحة وإلا كان من الحلافين المسمولين بالذم في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُطِيعُ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴾ (القلم : ١٠) ، وامتناع سيدنا عثمان عن الحلف وهو صادق إنما هو من كمال زهده والتزامه الدقيق بما جاء به خاتم النبيين ، حيث يبتعد عن الحلف حتى فيما يستوجبه خوفاً من الوقوع في المحذور واقترباً من المولى سبحانه وتعالى ، وحرصاً على طاعته والابتعاد عن مناهيه ، وبهذا تتلاشى هذه الشبهة ، ولكن أصحاب الشبهات لا يتراجعون أبداً إلا إذا هلكوا فقد يقولون : إن المضطر إلى القسم يقسم بما جل وعظم ليكون قسمه أوقع في النفوس ، ولذا نهى رسول الله ﷺ عن القسم بغير الله .

وفي الحديث : « من كان حالفاً فليحلف بالله أو

ليصمت»^(١) . فكيف أقسم القرآن ببعض المخلوقات ؟

نعم إن المقسم حينما يريد أن يقسم فينبغي له أن يقسم بما جل وعظم ليكون قسمه أوثق وأدعى للقبول ، وحينما أقسم الله جلّت قدرته بمخلوقاته فليس المراد أنه يدعو إلى تقدّيس مخلوقاته ؟!

وإنما المراد الاستدلال بها على قدرة خالقها ، وأنه وحده المتفرد بالقدرة والوحدانية .

أما الحلف بغير الله من جانب العبد فلا يجوز لأنه نوع من العبودية لغير الله عز وجل .

وأما من جانب رب العزة والجلال فله أن يحلف بما شاء من مخلوقاته ، فهو الملك المتصرف في ملكه كيف شاء سبحانه .

أما عما ثبت عن النبي ﷺ من أنه قال لأحد الصحابة : « وأبيك »^(٢) .

(١) حدثنا عبد الله بن سلمة عن مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ أدرك عمر بن الخطاب وهو يسير في ركب يحلف بأبيه ، فقال : « ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بأبائكم ، من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت » . صحيح البخاري الجزء الرابع طبعة ١٣٧٢ هـ - الناشر : مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر .

(٢) حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وابن نمير قالا : حدثنا ابن فضل عن عمارة عن أبي زرعة عن أبي هريرة قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله : أي الصدقة أعظم أجراً ؟ فقال : « أما وأبيك لتنبأته : أن تصدّق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل البقاء ، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت : لفلان كذا ، ولفلان كذا ، وقد كان لفلان » .

رواه مسلم بن الحجاج النيسابوري في الصحيح تحت باب : « بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح » - الجزء الثاني - الطبعة الأولى تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي (٧١٦) .

وعن عبد الله بن سلمة عن مالك عن عمه أبي سهيل بن مالك عن أبيه أنه سمع طلحة بن عبيد الله يقول : جاء رجل إلى رسول الله من أهل نجد ثائر الرأس يسمع دوي صوته ولا يفقه ما يقول ، حتى دنا فإذا هو يسأل عن الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ :

« خمس صلوات في اليوم والليلة » قال : هل علي غيرهن ؟ قال : لا إلا أن =

فهذا إنما جاء لتقوية الكلام ، ولم يقصد منه تعظيم الصحابي . نعم للنبي ﷺ أن يقول للصحابي : « وأبيك » وهذا مما جرى على السنة العرب ، ولا يقصدون معناه ، فهو ليس قسماً ، ولكن ليس هذا مسوغاً لأحد أن يقسم بغير الله ويتخذ الحديث ذريعة لذلك ، ولو لم يقصد به التعظيم ...

وقال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (النساء : ٦٥) .

أقسم سبحانه بنفسه المقدسة قسماً مؤكداً بالنفي قبله على عدم إيمان الخلق حتى يحكموا رسوله في كل ما شجر بينهم من الأصول والفروع وأحكام الشرع وأحكام المعاد وسائر الصفات وغيرها ، ولم يثبت لهم الإيمان بمجرد هذا التحكيم حتى ينتفي عنهم الحرج ، وهو ضيق الصدر ، وتنشرح صدورهم لحكمه كل الانشراح ، وتنفسح له كل الانفساح وتقبله كل القبول^(١) .

يقول الدكتور أحمد بدوي : « واستخدم ماكان العرب

= تطوع ، قال : وذكر له رسول الله ﷺ صيام شهر رمضان ، قال : علي غيره ؟ قال : لا إلا أن تطوع . قال : وذكر له رسول الله الصدقة . قال : فهل علي غيرها ؟ قال : لا إلا أن تطوع . فأدبر الرجل وهو يقول : والله لا أزيد على هذا ولا أنقص . فقال رسول الله ﷺ : « أفلح إن صدق » وفي رواية : « أفلح - وأبيه - إن صدق » ، وفي رواية : « دخل الجنة - وأبيه - إن صدق » .

من سنن أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني - تحت كتاب الصلاة - الجزء الأول - الطبعة الأولى - (٢٧٢ - ٢٧٣) .

(١) التبيان في أقسام القرآن - للعلامة ابن قيم الجوزية رحمه الله - ص ٢٧٠ - الناشر دار الكتب العلمية ١٤٠٢ هـ وابن القيم هو شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية ، وأطلق عليه لقب الجوزية نسبة إلى هذه المدرسة المسماة بالجوزية بسوق القمع بدمشق ، وقد تولى ابن القيم التدريس بها والإشراف عليها .

ولد في السابع من صفر ٦٩١ هـ . وتوفي في الثالث عشر من رجب ٧٥١ هـ رحمه الله رحمة واسعة .

يستخدمونه^(١) من الحلف بحياة المخاطب ، فأقسم بحياة رسوله عندما قال : ﴿ لَعَنُوكَ إِنَّمَا لَفَى سَكْرَتِهِمْ يَعْصَهُونَ ﴾ (الحجر : ٧٢) ، وفي الواقع إن القرآن لم يستخدم ما كان العرب يستخدمونه مجازاة لهم ، وكيف وقد جاء بتحريم الحلف بغير الله سبحانه ، وإنما هو إشادة بهذه الحياة الكريمة الجديرة بالتقدير والإجلال والحب والإكبار من رب العزة والجلال الذي أحب هذا النبي واصطفاه .

ولذا كان في شتى صور مخاطبة القرآن لسيدنا رسول الله ﷺ هي العطف والرقّة والتسامح كما قال تعالى : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَذِبِينَ ﴾ (التوبة : ٤٣) متهى الرقة في العتاب ، وصدق الله العظيم .

كما يقول الدكتور أحمد بدوي : « وإذا كان القسم لا ينجح أحياناً في حمل المخاطب على التصديق ، فإنه كثيراً ما يوهن في النفس الفكرة المخالفة ، ويدفع إلى الشك فيها ، ويبعث المرء على التفكير القوي فيما ورد القسم من أجله »^(٢) .

وهنا نقول للدكتور أحمد بدوي لا . . . فإن الفكرة الخاطئة والمخالفة تدحضها الفكرة الصحيحة والسليمة ، وليس أسلوب القسم على الرغم من أهميته . . .

كما ينبغي لنا حيال القسم التصديق والإذعان لا التردد ، والاضطراب ، فمن حلف لكم بالله فصدقوه .

(١) من بلاغة القرآن د . أحمد أحمد بدوي (١٧٠) طبعة ١٣٧٠ هـ .

(٢) من بلاغة القرآن د . أحمد بدوي (١٧٠) .

نماذج لأسلوب القسم في القرآن الكريم

وفي قوله تعالى : ﴿ وَالْفَجْرِ ① وَلَيَالٍ عَشْرٍ ② وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ③ وَالْأَيْلِ إِذَا يَسِرُّ ④ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ⑤ ﴾ (الفجر : ١ ، ٥) .

فقد أقسم الله سبحانه بضوء الصبح عند مطارדתه ظلمة الليل ، وبالليالي العشر المباركات من أول ذي الحجة ، لأنها أيام الاشتغال بأعمال الحج .

قال المفسرون : أقسم تعالى بالفجر لما فيه من خشوع القلب في حضرة الله عز وجل بالليالي الفاضلة المباركة ، وهي عشر ذي الحجة لأنها من أفضل أيام السنة .

كما ثبت في سنن ابن ماجه من حديث ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من أيام العمل الصالح فيها أحبُّ إلى الله من هذه الأيام - يعني عشر ذي الحجة - قالوا : ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال : ولا الجهاد في سبيل الله ، إلا رجل خرج بنفسه وماله فلم يرجع من ذلك بشيء » (١) .

والشفع والوتر ، الشفع : يوم النحر ، والوتر : يوم عرفة . وقيل غير ذلك .

والليل إذا يسر ، أي : وأقسم بالليل إذ يمضي بحركة الكون العجيبة والتقيد بسرياته لما فيه من وضوح الدلالة على كمال القدرة ووفور النعمة .

﴿ وَالْفَجْرِ ① وَلَيَالٍ عَشْرٍ ② وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ③ وَالْأَيْلِ إِذَا يَسِرُّ ④ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ⑤ ﴾ (الفجر : ١ ، ٥) ، هل فيما ذكر من الأشياء قسم مقنع لذي لب وعقل ؟!

(١) الحديث أخرجه ابن ماجه في سننه تحت عنوان : باب صيام العشر - الجزء الأول - تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي - دار احياء التراث العربي - طبعة ١٣٩٥ هـ / ٩١٧٥ م - (٥٥٠) .

وابن ماجه هو الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني المولود سنة ٢٠٧ والمتوفى سنة ٢٧٥ هـ .

والاستفهام تقرير لفخامة شأن الأمور المقسم^(١) بها ، كأنه يقول :
إن هذا القسم عظيم عند ذوي العقول والألباب ، فمن فكان ذالِب وعقل
علم أن المولى عزّ وجل ما أقسم بهذه الأشياء إلا لكونها دلائل على عظيم
قدرة الله وتوحيده وربوبيّته وعجائب صنعه .
من هنا تبرز أهمية القسم في لفت العقول وتنبيه الألباب إلى جليل
صنع الله المتجلى بالعظمة المتقدس بكمال الجلال ربّ العزّة والجلال .
وهذا هو دور القسم الذي لا يجحد فضله وأهميته على طريق الهداية
والوصول إلى الطريق القويم .

(١) صفوة التفاسير للصابوني الطبعة الأولى ص ٥٥ .

الفصل الثالث

الأمثال في الأسلوب القرآني

تعريف المثل

المثل في اللغة ، وما تحمله هذه الكلمة من تأويلات :
يقول صاحب اللسان : « المثل والمثل والمثيل : كالتشبه والشبه
والشبيه » (١) .

حيث تحمل هذه الألفاظ كلها معنى المماثلة والمشابهة والمساواة .
والله سبحانه يقول : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾
(الشورى : ١١) . فنفى عن نفسه الشبيه والنظير .
وفي الأثر : « إني أوتيت الكتاب ومثله معه » .
وللأمثال في القرآن معانٍ أخر غير معنى الشبه والنظير ، من هذه
المعاني :

الصفة ، كما في قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ ﴾ (محمد :
١٥) . أي : صفتها وشأنها .

القصة : : كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَجُلَيْنِ ﴾
(الكهف : ٣٢) . أي : قصة الرجلين .

الآية ، كما في قوله تعالى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا
لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾ (الزخرف : ٥٩) . أي : أن عيسى عليه السلام ما هو
إلا عبدٌ أنعم الله عليه وجعله آية دالة على عظيم قدرته .

العظة والعبرة ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا
لِّلْآخِرِينَ ﴾ (الزخرف : ٥٦) . أي : عظة وعبرة .

والحال والشأن ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ ﴾ (النحل : ٦٠) .

سير الأولين ، كما في قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا
يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ
وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ (البقرة : ٢١٤) .

(١) لسان العرب / مادة المثل .

أي : سيرهم .
وقد يأتي المثل على أصله^(١) ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ
الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَرَّأْنَا تَنْبِيْراً ﴾ (الفرقان : ٣٩) ، أي : ماسيق في القرآن
من حديث ومثل يتعلق بالمواعظ أو القصص ، أو أخبار الأمم الماضية ، كل
هذه الأمثال المضروبة إنما عنى بها نتيجتها وعاقبتها وهي ما حاق بالأمم
الغابرة ممن سبقت أخبارهم وضربت بهم الأمثال ، ونتيجة ذلك ما نزل بهم
من عذاب .

من هذا الاستعراض الشامل يتضح لنا أن للأمثال معاني متعددة
وصوراً شتى ، ولعل نقطة الارتكاز في هذه التفسيرات جميعها تكمن في
المعنى الذي يدور حول الشبه والنظير ، وهو الذي سنؤسس عليه حديثنا
حول المثل في موضوعنا هذا .

(١) على أن الكلمة إذا شاعت وانتشرت وكثر دورانها على الألسنة كانت « مثلاً » .
أما إذا كانت الكلمة صائبة وصادرة عن تجربة ولم تدر على الألسنة فتسمى
« حكمة » .

الأمثال في القرآن الكريم ومعناها

نظم الأمثال مظهر من مظاهر الإعجاز البياني في القرآن الكريم ، فهي^(١) تحرك المشاعر والأحاسيس بما تقدمه من ألوان الممثلات في صورة ملموسة ، فتجذب النفوس للتفاعل معها ، والاستفادة بما تقدمه من صور الهداية التي تغري بفعل الخير والعمل به ، وكذلك تجنب الشر والابتعاد عنه .

والقرآن يوضح أهمية هذا الجانب ، قال تعالى : ﴿وَلِلَّهِ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ (العنكبوت : ٤٣) .
وكان بعض السلف رحمهم الله يبيكي إذا قرأ مثلاً ولم يفهمه !؟
ويقول : لست من العالمين !

وفي الأثر عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :
« إن القرآن نزل على خمسة أوجه : حلال وحرام ، ومحكم ، ومتشابه ، وأمثال . فاعملوا بالحلال ، واجتنبوا الحرام ، واتبعوا المحكم ، وآمنوا بالمتشابه ، واعتبروا بالأمثال »^(٢) .

ويقول الإمام الماوردي رحمه الله : « من أعظم علم القرآن علم

(١) راجع الأمثال من الكتاب والسنة - للحكيم الترمذي - تحقيق علي محمد البجاوي - (١ - ٢) - دار نهضة مصر للطباعة والنشر - الفجالة .

(٢) الحديث ورد في تفسير الطبري هكذا : « حدثنا أبو كريب قال : حدثنا المحاربي عن الأحوص بن حكيم عن ضمرة بن حبيب عن القاسم بن عبد الرحمن عن عبد الله بن مسعود قال : إن الله أنزل القرآن على خمسة أحرف : حلال ، وحرام ، ومحكم ، ومتشابه ، وأمثال ، فأجلّ الحلال ، وحرّم الحرام ، واعمل بالمحكم ، وآمن بالمتشابه ، واعتبر بالأمثال » .

تفسير جامع البيان في تفسير القرآن - للإمام الطبري - الجزء الأول ، الطبعة الأولى بالمطبعة الكبرى الأميرية ببولاق (٢٤) .

هذا وقد ضعف الحديث الإمام الحافظ بن حجر العسقلاني في فتح الباري ، قال ابن عبد البر : هذا حديث لا يثبت لأنه من رواية أبي سلمة بن عبد الرحمن عن ابن مسعود ولم يلق ابن مسعود . فتح الباري - لابن حجر - الجزء التاسع (٢٩) .

أمثاله ، والناس في غفلة عنه لاشتغالهم بالأمثال وإغفالهم الممثلات ، والممثل بلا مثل كالفرس بلا لجام والناقة بلا زمام»^(١) .

ويقول الإمام عبد القاهر الجرجاني رحمه الله : « واعلم أن مما اتفق عليه العقلاء أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني ، أو برزت هي باختصار في معرضه ، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته كساها أبهة ، وأكسبها منقبة ، ورفع من أقدارها ، وشب من نارها ، وضاعف قواها في تحريك النفوس إليها ، واستثار لها من أقاصي الأفتدة صباة وكلفاً ، وقصر الطباع على أن يعطيها محبة وشغفاً »^(٢) .

من هنا يتضح لنا ما تقوم به الأمثال من تأثير بارز فعال لا يقتصر على تأثيرها كوسيلة من وسائل الإيضاح ، وإنما هي أيضاً وسيلة مباشرة بينة التأثير في الهداية .

وكانت تلك الأمثال القرآنية سبيلاً من سبل القرآن إلى العظة والهداية .

يقول الشيخ محمد الغزالي : « وعندي أن قدراً كبيراً من إعجاز القرآن يرجع إلى هذا ويشير إلى تنوع الأمثال فما أظن امراً سليم الفكر والضمير

(١) عزاه صاحب الإتيقان إلى الماوردي ، ولم أقف عليه - راجع الإتيقان للسيوطي الجزء الثاني (١٦٧) .

(٢) أسرار البلاغة في علم البيان - للإمام عبد القاهر الجرجاني - تحقيق محمد رشيد رضا - طبع بمطبعة الترقى بشارع عبد العزيز ١٣١٩ هـ .

وعبد القاهر الجرجاني هو الإمام الألمي حسنة جرجان ونادرة الزمان ودرة تاج الفلك وفارس عسكر الشعر ، يجمع خط ابن مقلة إلى نشر الجاحظ ، ونظم البحتري ، ويستجيد معاني الإتيقان والإحسان . يقول الإمام الزركشي رحمه الله في المثل : « ومن حكمته تعليم البيان ، وهو من خصائص هذه الشريعة ، والمثل أعون شيء على البيان » ، البرهان - للزركشي - الجزء الأول - الطبعة الثانية (٤٨٧) .

« اعلم أن العقل نوعان مطبوع ، ومسموع ، وإلى الأول أشار ﷺ بقوله : « ما خلق الله خلقاً أكرم عليه من العقل » .

وإلى الثاني أشار ﷺ بقوله : « ما كسب أحد شيئاً أفضل من عقل يهديه إلى هدى ، أو يردّه عن ردى » وهذا العقل هو المعنى بقوله عز وجل : ﴿ وما يعقلها إلا العالمون ﴾ .

يتلو القرآن أو يستمع إليه ثم يزعم أنه لم يتأثر به .
قد تقول : ولم يتأثر به ؟

والجواب : إنه مامن هاجس يعرض للنفس الإنسانية من ناحية الحقائق الدينية إلا ويعرض القرآن له بالهداية وسداد التوجيه .
ثم هي وسيلة من وسائل التربية حيث عني المربون بالأمثال كطريق من طرق التربية ^(١) .

من هنا تتضح فعالية الأمثال كطريقة من طرق التربية الإسلامية ، وعن طريقها يمكن تحقيق أهداف التربية التي تسعى إليها خاصة عندما تعرض بطريقة القرآن في أسلوب رقيق يجذب النفوس جذباً ، وبما تمتاز به من نظم معجز مؤثر ينفذ إلى أعماق النفوس ، وبالتالي يحرك في الإنسان عاطفته وميوله واتجاهه نحو الخير والحق ، وهذه كلها مؤثرات إلى طريقة استخدام الأمثال في تحقيق الأهداف التربوية .

ولأهمية هذا الجانب في كتاب الله كان محل دراسة وعناية الباحثين ^(٢) الذين تناولوا القرآن بالبحث والدراسة ، تأكيداً لأهمية هذا الأسلوب بين أساليب التعبير القرآني والذي كان من أبلغ طرق الهداية وترسيخ العبرة في النفوس .

(١) نظرات في القرآن - للشيخ محمد الغزالي - الطبعة الخامسة (١٢٣) .

(٢) ممن تناول هذا الجانب بالبحث والدراسة عدد وفير من العلماء والباحثين في الدراسات القرآنية قديماً وحديثاً .

تناوله الإمام الترمذي في كتابه : « الأمثال من الكتاب والسنة » ، والإمام الزركشي في كتابه : « البرهان في علوم القرآن » ، والإمام السيوطي في كتابه « الإتقان » .

كما تناولوه عدد من الباحثين المحدثين الذين عقدوا له فصولاً مطوّلة في كتبهم ، من هؤلاء : الشيخ مناع القطان في كتابه : « مباحث في علوم القرآن » ، والدكتور أحمد بدوي في كتابه : « من بلاغة القرآن » وغيرهم كثير .

فلا يكاد باحث يتعرض للدراسة القرآنية إلا ويتحدث عن هذا الجانب الهام .

شروط المثل

هذا ويشترط في المثل عدة شروط حتى يكون له وقعه المؤثر في النفوس تتمثل في إيجاز اللفظ ، وإصابة المعنى ، وحسن التشبيه ، وجودة الكناية .
فإيجاز اللفظ : يعنى الصياغة البلاغية في التركيب الجملي نتيجة للحذف والاختصار .

وإصابة المعنى : تركز على بلاغة القول وفصاحته وسلامته من عيوب البيان اللفظية والمعنوية .

وحسن التشبيه : هو الإطار التصويري الذي يبدو فيه إبراز عنصر من عناصره الفنية في البيئة والشكل .
وجودة الكناية : هي نهاية البلاغة .

خصائص الأمثال القرآنية :

تتجلى في الأمثال القرآنية دقة التصوير وجلال التعبير مع إبراز العناصر المهمة من الصورة التمثيلية ، مع صدق المطابقة في الصورة التمثيلية القائمة بين المضرب والمورد ، هذا مع التنوع في العرض ، مرة بالتشبيه ، ومرة بالتمثيل المركب الذي يتنوع منه وجه الشبه بنظرة كلية عامة ، إلى غير ذلك من أفانين القول .

هذا مع اعتماد القرآن على حذف بعض المقاطع من الصورة التمثيلية اعتماداً على ذكاء أهل الاستنباط .

هذا إضافة إلى الصور الحية المتحركة التي تبرز الأحاسيس والمشاعر الوجدانية في آيات وعبر لا يعقلها إلا العالمون .

القيمة البيانية للأمثال القرآنية

جاءت الأمثال القرآنية وهي تحمل العديد من القيم البيانية التي تثبت المعاني في النفوس .

يقول الإمام الترمذي رحمه الله : « واعلم أن ضرب الأمثال لمن غاب عن الأشياء وخفيت^(١) عليه ، فالعباد يحتاجون إلى ضرب الأمثال لما خفيت عليهم الأشياء ، فضرب الله لهم مثلاً من عند أنفسهم لا من عند نفسه ليدركوا ما غاب عنهم فأما من لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء فلا يحتاج إلى الأمثال ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً » .

فلا جرم ما ضرب الله الأمثال من نفسه لنفسه ، وكيف ولا مثل ولا شبه له ؟ لذلك قال جل ذكره : ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (النحل : ٧٤) .

فالأمثال موضحات للحكمة لما غاب عن الأسماع والأبصار لتهدي النفوس بما أدركت عياناً ، فمن تدبیر الله لعباده أن ضرب لهم الأمثال من أنفسهم لحاجتهم إليها ، ليعقلوا بها فيدركوا ما غاب عن أبصارهم وأسماعهم الظاهرة .

فمن عقل الأمثال سمى الله تعالى في كتابه عالماً لقوله عز من قائل : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ (العنكبوت : ٤٣) .

ومن هنا تعددت الأمثال في القرآن مع حرص القرآن على تكرارها كلما سنحت الفرصة ، فتجد في القرآن العظيم ثلاثاً وأربعين مثلاً .

منها ما يتعرض لللكوت الله ، ومنها ما يتعرض للحث على فعل الخيرات واجتناب المنكرات ، ومنها ما يصور طبائع الناس واختلاف قلوبهم تبعاً لتصرفاتهم ، وهنا تجدر الإشارة إلى هذه الأمثال التي وردت في القرآن

(١) الأمثال في الكتاب والسنة - للحكيم الترمذي - تحقيق محمد علي البجاوي - الجزء الأول (٢) .

مكتفياً بالإشارة إلى السورة ورقم الآية في الهامش^(١) .

وعندما يتتبع الدارس الأمثال القرآنية يجدها ذات قيمة بيانية واضحة في تثبيت المعاني ، ذلك أنها تبرز المعقولات في صورة المحسوسات ، كما أوضح المولى عز وجل حقيقة هذه الدنيا فقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَلٍّ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَخَلَّتْ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا رَبَّكَ عَلَيْهَا أَنَّهَا آمُرْنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (يونس : ٢٤) .

كما أنها تبعث في النفس دواعي الخير حين يكون الممثل به مما ترغبه النفس وتميل إليه ، كما في قوله تعالى في الحث على الإنفاق : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أُلْقِيَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة : ٢٦٢) .

أيضاً تبعث في النفس التنفير من الشيء حين يكون الممثل به مما تنفر منه النفس وتشمئز ، كما في قوله تعالى في النهي عن الغيبة : ﴿ وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ (الحجرات : ١٢) .

علاوة على أن الأمثال تكشف لك عن الحقائق وتريك الغائب في صورة الحاضر ، كما في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾ (البقرة : ٢٧٥) .

كذلك يضرب المثل لمدح الممثل به كقوله تعالى في وصف النبي ﷺ

(١) السور المحتوية على الأمثال في القرآن هي :

البقرة (١٧ ، ١٩ ، ٢٦ ، ١٧١ ، ٢٦١ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦) ، وآل عمران (٣٠١ ، ١١٧) ، والأنعام (٧١) ، والأعراف (١٧٦) ، ويونس (٢٤) ، وهود (٢٤) ، والرعد (١٤ ، ١٧ ، ٣٥) ، وإبراهيم (١٨ ، ٢٤ ، ٢٦) ، والنحل (٧٥ ، ٧٦ ، ١١٢) ، والكهف (٣٢ ، ٤٥) ، والحج (٣١ ، ٧٣) ، والنور (٣٥) ، (٣٩) ، والعنكبوت (٤١) ، والروم (٢٨) ، ويس (٧٨) ، والزمر (٢٩) ، ومحمد (١٥ ، ٣٠) ، والفتح (٢٩) ، والحشر (١٥ ، ١٦) ، والتحریم (١٠ ، ١١) ، (١٢) .

وأصحابه الكرام البررة : ﴿ تَحْمَدُ رَسُولَ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ
بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّامًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ
السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْطَهُ فَفَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ
فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سَوْقِهِ ، يُعْجِبُ الزَّرَّاعَ لِيْفِيْظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (الفتح : ٢٩) .

وأيضاً يضرب المثل لدم الممثل به إذا كان فيه صفة يستقبحها الناس ،
كما ضرب الله مثلاً لحال من آتاه الله كتابه فتنكب الجادة عن العمل به
وانحدر منغمساً في الدنيا ، قال تعالى : ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا
فَأَنسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْفَاوِيسِ ﴾ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا
وَلَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُ سَائِرَ ذُنُوبِهِ وَأَتَّبِعَ هَوَاهُ فَتَلَاكَ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحِمَلَ عَلَيْهِ
يَلْهَثَ أَوْ تَرَكَهٗ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِءَايَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ
لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١) (الأعراف : ١٧٥ ، ١٧٦) .

(١) وانظر إلى كمال التكريم من الله جلَّت قدرته لنبه وحبيبه وصفيه سيدنا محمد ﷺ
فلم يخاطب المولى نبياً في القرآن إلا ودعاه باسمه ﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة ﴾
[سورة مريم : ١٢] ، ﴿ يا إبراهيم * قد صدقت الرؤيا ﴾ [سورة الصافات :
١٠٤ - ١٠٥] ، ﴿ يا عيسى بن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من
دون الله ﴾ [سورة المائدة : ١١٦] .

وحينما يخاطب سيد الأنبياء والمرسلين يقول عز من قائل : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا
أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِراً وَنَذِيراً ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ ﴾ .

ولم يخاطبه باسمه إلا في ثلاثة مواضع ، وقد قرنها بوصفه عز وجل : ﴿ محمد
رسول الله ﴾ [سورة الفتح : ٢٩] ، ﴿ ما كان محمدٌ أباً أحدٍ من رجالكم ولكن
رسولَ الله وخاتمَ النبيين ﴾ [سورة الأحزاب : ٤٠] ، ﴿ وما محمد إلا رسول قد
خَلَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ [سورة آل عمران : ١٤٤] .

صور المثل في القرآن الكريم

والأمثال في القرآن جاءت على أنواع منها :

الأمثال المصراحة :

وهذه كثيرة في القرآن ، وهي ما جاءت في القرآن وقد صرح فيها بلفظ المثل ، كقوله تعالى في وصف المنافقين : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ (١٧) صُمُّ بَكْمُ عُمَى فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (١٨) أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِي أَذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (البقرة : ١٧ ، ٢٠) (١) .

هذه هي حالة المنافقين العجيبة الذين استحبوا العمى على الهدى بعد ما وضع لهم الأمر وتبينوه ، فبعدما اتضحت لهم معالم الهدى والرشاد أبوا إلا الكفر والعناد ، هذه الحالة هي حالة من استوقد نارا فبدلاً من أن يستفيد بضوئها إذا به لم ينتفع ، ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون . وإذا كانت الأذان والألسنة والأعين لتلقي الهدى والانتفاع به ، فإن هؤلاء قد عطلوا هذه الحواس ، فهم صُمُّ لا يسمعون ، بكم لا ينطقون عمى لا يبصرون ، فلا رجعة لهم إلى الحق ، ولا أوبة لهم إلى الهدى ولا هداية لهم إلى النور .

ومثل آخر يصور ما هم فيه من حيرة وقلق واضطراب إنه مشهد عجيب حافل بالحركة مشوب بالاضطراب فيه تيه وضلال ، وفيه هول

(١) سبب نزول الآيات : كان رجلان من المنافقين من أهل المدينة هربا من رسول الله ﷺ إلى المشركين فأصابهما هذا المطر الذي ذكر الله سبحانه فيه رعد شديد وصواعق وبرق ، فجعلوا كلما أصابتهما الصواعق جعلوا أصابعهما في آذانهما من الخوف أن تدخل الصواعق في مسامعهما فتقتلها ، وإذا لمع البرق مشيا إلى ضوئه ، وإذا لم يلمع لم يبصرا فأتيا مكانهما يمشيان ، فجعلوا يقولان : ليتنا قد أصبحنا فنأتي محمداً فنضع أيدينا في يده ، فأتياه فأسلما ووضعوا أيديهما في يده وحسن إسلامهما .

ورعب ، وفيه أضواء وأصداء ، صيب من السماء هاطل غزير فيه ظلمات ورعود وبروق ، فما يكاد البرق يلمع ويحاولون تلمس الطريق حتى يزداد الجوا ادلهماماً مع صوت مهول مرعب صوت الرعد ، فإذا بهم يقفون في صمت وهيبة ورهبة مع حيرة واضطراب كل هذا يصور ما يضطرب في داخل هؤلاء القوم من الحيرة والقلق والته الذي يعيشه هؤلاء نتيجة اضطراب ضمائرهم وفساد عقائدهم بين ما يقولونه لحظة ثم يعودون عنه ناكسين ، إنه مشهد حسي يرمز لحالة نفسية سيئة للغاية ، ويجسم صورة شعورية وهذه طريقة من طرق القرآن العجيبة في تجسيم أحوال النفوس كأنها مشهد محسوس .

وهناك الأمثال الكامنة :

وهي التي لم يصرح فيها بلفظ التمثيل ، ولكنها تدل على معان رائعة في إيجاز :

ويمثلون لهذا النوع بما رواه أبو الحسن إبراهيم بن مضارب بن إبراهيم قال : سمعت أبي يقول : سألت الحسن بن الفضل فقلت : إنك تخرج أمثال العرب والعجم من القرآن^(١) ، فهل تجد في كتاب الله : خير الأمور أوساطها ؟ قال : نعم ، في أربعة مواضع ، قوله تعالى : ﴿ لَا فَاْرِضْ وَلَا يَكْرُ عَوَانُ بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ (البقرة : ٦٨) . وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ (الفرقان : ٦٧) ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ (الإسراء : ٢٩) ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافَتْ

(١) فائدة : عقد جعفر بن شمس الخلافة في كتاب الآداب باباً في ألفاظ من القرآن جارية مجرى المثل ، وأورد من هذا قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾ لن تنالوا البرحتى تنفقوا عما تحبون * الآن حصحص الحق * وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه * ذلك بما قدمت يداك * قضى الأمر الذي فيه تستفتيان * أليس الصبح بقريب * لكل نبي مستقر * كل نفس بما كسبت رهينة * وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم * .

راجع الإتقان في علوم القرآن - للإمام السيوطي (١٦٨ - ١٦٩) .

بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿ (الإسراء : ١١٠) .

قلت : فهل تجد في كتاب الله من جهل شيئاً عاداه ؟ قال : نعم في موضعين : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ ﴾ (يونس : ٣٩) . وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَمَسَّ قُلُوبُهُمْ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ (الأحقاف : ١١) .

قلت : فهل تجد في كتاب الله : احذر شر من أحسنت إليه ؟ قال : نعم ﴿ وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ (التوبة : ٧٤) .

قلت : فهل تجد في كتاب الله : ليس الخبر كالعيان ؟ قال : في قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ تَزَوَّجْنَا بَنَاتَهُنَّ لَكِن لَّيَطْمِئَنَّ قُلُوبُهُنَّ ﴾ (البقرة : ٢٦٠) .

قلت : فهل تجد في الحركات البركات ؟ قال : في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَمِجْ فِي الْأَرْضِ مُرْعًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾ (النساء : ١٠٠) .

قلت : فهل تجد : كما تدين تدان ؟ قال : في قوله تعالى : ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوًّا يُجْزَ بِهِ ﴾ (النساء : ١٢٣) .

قلت : فهل تجد فيه لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ؟ قال : ﴿ هَلْ أَمَنَّكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمَنَّاكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ ﴾ (يوسف : ٦٤) .

قلت : فهل تجد فيه قولهم : لا تلد الحية إلا الحية ؟ قال : في قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ (نوح : ٢٧) .

قلت : فهل تجد في قولهم : للحيطان آذان ؟ قال : ﴿ وَفِيكُمْ سَمْعُونَ لَهُمْ ﴾ (التوبة : ٤٧) .

قلت : فهل تجد فيه : الجاهل مرزوق والعالم محروم ؟ قال : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ﴾ (مريم : ٧٥) .

قلت : فهل تجد فيه : الحلال لا يأتيك إلا قوتاً ، والحرام لا يأتيك إلا جزافاً ؟ قال : في قوله تعالى : ﴿ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا يَسِيرُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ﴾ (الأعراف : ١٦٣) ^(١) .

(١) وهذه الأمثال المرسله قد اكتسبت صفة المثلية بعد نزول القرآن وشيوعها في المسلمين ، ولم تكن أمثالاً وقت نزوله ، وهي في جملتها مبادئ خلقية ودينية واجتماعية مركزة .

هذا وقد رأى بعض العلماء أن التمثل بمثل هذه الآيات فيه خروج عن أدب القرآن ، لأن الله سبحانه لم ينزل القرآن ليتمثل به ، بل ليتدبر فيه ويعمل بموجبه . =

على أنني لا أوافق الدكتور بكري شيخ أمين في موضوع الأمثال الكامنة حيث يقول : « ويبدو لنا أن ذلك تنطع وتكلف لا حدّ لهما ، وأنه لا يكفي لإطلاق كلمة (المثل) على تلك العبارات ، وإن حملت معنى مثل سائر دارج ، لأن الصيغة التي تشترط في المثل لا تتوافر فيها ، لذلك فنحن نرفض ما جاء به السيوطي ومن تبعه ، ولا تعتبر الأمثال الكامنة شيئاً يستحق أن يدرج في بحث الأمثال » (١) .

ذلك أن مثل هذه الأمثال عنوان بين على إعجاز القرآن ، وشاهد قائم على قوله تعالى : ﴿ مَا فَرَطْنَا فِي أَلِكِتَابٍ مِنْ شَيْءٍ ﴾ (الأنعام : ٣٨) . وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (٢٧) ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ (الزمر : ٢٧ ، ٢٨) .

مع العلم بأن الشروط التي يجب توافرها في المثل قد انطبقت عليها من إصابة اللفظ وإيجاز العبارة .

كما ينبغي ألا يفوتنا بأن هذه المقاييس التي وضعت للمثل لا ينبغي أن نجعلها الميزان الذي نخضع له آيات الكتاب العزيز مادام أن هذه الآيات قد شاعت وجرت مجرى الأمثال ، فضلاً على أن مافي الآيات السابقة من سمو التعبير القرآني الذي يدل على مدى هذا الفارق الهائل بين مايمكن أن يكون في كلام الناس ، وهذا الإعجاز البين في كلام الله رب العالمين .

= ورأى آخرون أنه لا حرج فيما يظهر أن يتمثل الرجل بالقرآن في مقام الجذ ، كان يأسف أسفاً شديداً لنزول كارثة قد تقطعت أسباب كشفها عن الناس ، فيقول : ﴿ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾ .

أو يحاوره صاحب مذهب فاسد يحاول استهواءه إلى باطله من غير اقتناع بما يسوقه من حجج ، فيقول له : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينٌ ﴾ .

والحذر الحذر أن يقصد الرجل إلى التظاهر بالبراعة ، فيتمثل بالقرآن حتى في مقام المزح والهزل . . فهذا إثم كبير ، كأن يرى الرجل صاحباً له يأتيه من غير طلب ، فيقول له ممازحاً : ﴿ جِئْتُ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى ﴾ فهذا من الاستخفاف بالقرآن والعياذ بالله من ذلك .

(١) التعبير الفني في القرآن - د . بكري شيخ أمين . الطبعة الثالثة (١٣٢) .

نماذج من الأمثال القرآنية

ومع تتبعنا لطائفة أخرى من الأمثال القرآنية لإيضاح ما اشتملت عليه هذه الأمثال من سمات امتازت بها على كافة الأمثال في صور إيضاحية بارعة ، نقرأ قوله تعالى :

﴿ قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهَ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى اثْنًا قُلْ إِيَّاكَ هُدِيَ اللَّهُ هُوَ الْهُدَى وَأَمِرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الأنعام : ٧١) .
(قل) والخطاب للنبي ﷺ أمر صريح وخطاب حاسم في أن الأمر لله من قبل ومن بعد .

قل لهؤلاء الذين أسلموا مقادهم لهذه الصور والتماثيل . . . إن ما يدعونه لا يملك لهم نفعاً ولا ضرراً ، سواء أكان روحاً أم ملكاً أم إنساناً أم شيطاناً ، كلهم سواء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً .
فهم أعجز العجزة والأمور إنما تجري بمقادير ، فما لم يأذن به الله لا يكون . قل لهم مستنكراً وموبخاً إن دعوة غير الله وعبادته والخضوع له والخنوع سخافة وانحذار وانتكاسة ، فهو رجوع إلى الوراء بعد التقدم والارتقاء ﴿ ونرد على أعقابنا ﴾ .

إن هذا المشهد الشاخص لا ينطبق عليه إلا مثل ذلك الشخص الذي ارتد بعد إيمانه ، وتوزع قلبه بين الإله الواحد والآلهة المتفرقة .
فهو حيران مشتت القلب والخواطر يعيش في تيه مطبق ، فقد استجاب لداعي الشيطان وقد أحس من قبل طعم الإيمان ، فهو في حيرة وارتباك وفي نفس الوقت هناك من أصحابه من يدعوه إلى الهدى (اثْنًا) .
ولكن هيهات ، فالنفس مضطربة ، والأفكار موزعة ، والهواجس متشعبة . صورة نفسية تعكس أحاسيس وخلجات الحيرة والقلق ، ومشاهد متنافرة في إطار نفس معذبة قلقة حائرة . . . إنه مصير تعيس ولا نجاة ولا مخرج إلا بالرجوع إلى هدى الله ، لأنه وحده الذي ينطبق عليه الهدى والرشاد .

ففي رحاب الله تصفو النفوس وتلذذ المشارب وفي ظل جنباه الكريم

ورحابه العظيم يحلو التلذذ ويطيب العيش .
وأمرنا لنسلمَ لرب العالمين ، فالاستسلام لمقدّر المقادير رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما ضرورة حتمية للراحة الأبدية ، فهو السلام ، ومنه السلام وإليه السلام ، تبارك ربنا رب السلام .

وقال تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أُولِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ أَخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (٤١) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤٢) وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿ (العنكبوت : ٤١ ، ٤٣) .

إنه لتصوير رائع لحال أولئك المتمردين الطغاة الذين عاثوا في الأرض فساداً ، فمنهم من بطر النعمة واعتزّ بالقوة والسلطان ، ومنهم من اعتزّ بالمال .

خدعتهم قوة السلطان ، يحسبونها القوة القادرة التي تعمل في هذه الأرض ، فيتوجهون إليها بمخاوفهم ورغائبهم .
والآخرون خدعتهم قوة المال يحسبونها القوة المسيطرة على أقدار الناس وأقدار الحياة ، فيسعون للحصول عليها ليتسلطوا على الرقاب كما يحسبون .

خدعوا بهذه المظاهر الزائفة فتهافتوا عليها كتهافت الفراش على النار .

ونسوا القوة الوحيدة القادرة المدبرة التي تملك كل هذه الأشياء ، تملكها وتسخرها وتدبرها قوة الله سبحانه وحايته .
إنهم في حالهم هذا أشبه ما يكونون بتلك الحشرة الضعيفة (العنكبوت) حشرة رخوة واهنة لا حماية لها من تكوينها الرخو ، ولا وقاية لها من بيتها الواهن ﴿ وَإِنْ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ ﴾ .
فالحقيقة التي لامراء فيها أنه لا حماية إلا بالله ولا ركن إلا ركنه الركين .

هذا وإذا كان المثل في عرف الأدباء والنقاد هو ما حل فيه المورد على

المضرب ، وإذا كانوا قد اشترطوا لصيغة المثل شروطاً ، فإن المثل القرآني ليس من قبيل التمثيل الاصطلاحي في عرف هؤلاء وأولئك ، وإنما هو فن متفرد في باب ، بديع في مادته مستقل في مضمونه ، رائع في منحاه ، حتى جاء لونا متميزاً فريداً في أدائه وفي تركيبه وفي معناه .

« وقد ضرب الله الأمثال للناس لتقريب المراد وتفهم المعنى وإيصاله إلى ذهن السامع ، وإحضاره في نفسه بصورة المثل الذي مثل به ليكون أقرب إلى تعقله وفهمه وضبطه ، فإن النفس تأنس بالنظائر والأشياء ، وتنفر من الغربة والوحدة وعدم النظير .

ففي الأمثال من تأنس النفس وسرعة قبولها وانقيادها لما ضرب لها مثله من الحق ، أمر لا يجحده أحد ولا ينكره ، وكلما ظهرت الأمثال ازداد المعنى ظهوراً ووضوحاً فالأمثال شواهد المعنى المراد وهي خاصية العقل ولبه وثمرته »^(١) .

(١) إعلام الموقعين لابن قيم الجوزية (٢٩١) الجزء الأول .

الفصل الرابع

أسلوب القصة في القرآن

تقديم

والقصة القرآنية لون من ألوان الهداية في هذا الكتاب المعجز ، وهي الحق كل الحق ، والصدق كل الصدق في تسجيل الوقائع والأحداث ، كما أنها منبر إشعاع فياض في تقويم النفس البشرية متمثلاً كل ذلك في تسلسل أحداثها ، وارتباط موقفها ، وإثارتها وشخصياتها ، وعقدها ، ونتائجها ، وواقعيتها ، ولأريب فهي تنزيل من حكيم حميد .

ولعل من أبرز ميزاتها التي حار المبدعون فيها أنها تجمع من صدق الوقائع التاريخية جلال العبرة ، وجمال العرض والتصوير ، فهي تبلغ غاية الروعة والجمال سواء في الأداء وإصابة المغزى ، أو في تحقيق الغاية من سمو في العبارة وجمال في الأسلوب ، وهي في الوقت نفسه تحكي الوقائع كما هي من غير زيادة ولا نقصان ، وهذا هو سر الجمال في هذه القصص .

وصدق الله حيث يقول : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ﴾ (آل عمران : ٦٢) . وقوله : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ (يوسف : ٣) .

إذ أن المواصفات التي اشترطها الأدباء والنقاد في نجاح هذا الفن القصصي في الآداب الإنسانية هو الجنوح نحو الخيال المغرق ، والآداب المكشوف ، وإمتاع الخيال والعاطفة حتى لو تجردت القصة عن الواقعية والصدق في الحدث التاريخي .

إن القصة القرآنية نموذج فريد في هذا اللون القصصي مع أنها قبل هذا وذاك وسيلة إصلاح وهداية وعظة وعبرة ، قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (يوسف : ١١١) .

ويتناول القرآن قصص الأنبياء والمرسلين ويذكر طرفاً من معجزاتهم ومن المقرر أنه ليس الغرض من ذلك استقراء الوقائع ، ولا تحديد الأزمان ، ولا تناول الظروف والملابسات ، ولا تسجيل مجرد للحوادث والأشخاص ، ولا البحث التاريخي الاصطلاحي والفني ، وإنما الغرض من ذلك الهداية والعظة والعبرة ، وتقرير قواعد هذه الهداية في النفوس بذكر هذه القصص وعرض وقائعها أمام السامعين والقارئ ، والقرآن الكريم يصرح بهذا في

وضوح^(١) .

ومن ثم كان من أبرز ما تهدف إليه القصة القرآنية هو العبرة والعظة والهداية .

فالقرآن الكريم كتاب الدعوة وتاريخها ، وفي تضاعيف السرد التاريخي لأخبار الأولين ، يزداد عرض الدعوة وضوحاً ويستبين منهجها الذي تحدو البشر إليه ، والذي لا يختلف وإن اختلفت العصور وكرت الدهور .

وكما يدلّ هذا القصص الموصول على حقيقة الدين ، ويحدد تحديداً حاسماً الطريقة الوحيدة لمرضاة ربّ العالمين ، كذلك يدلّ على طبائع الناس ووسائل علاجها ، وسنن الله في عقابها أو معافاتها .

من هنا عرض القرآن الكريم نماذج متعدّدة للرسول مع أمهم من لدن نوح عليه السلام إلى سيدنا محمد ﷺ^(٢) كل ذلك ليعالج أمراض النفوس ، وهو يحكي حال المجتمعات التي طواها الماضي كيف عاشت ؟ وكيف كانت استجابتها لدعوة أنبيائها ؟ وهل قابلت ذلك بالتصديق أم بالإنكار ؟

ومن هنا تستجلي العبرة وتشرق الهداية ، ولا سيما إذا حكى القرآن ما وقع لتلك الأمم الكافرة منها والمؤمنة .

قال تعالى حاكياً موقف نوح مع قومه المعاندين ﴿ قَالُوا يَنْتُحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأَيْنَا بِمَا تَعِدُّنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ ﴾^(٣١) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ^(٣٢) وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (هود : ٣٢ ، ٣٤) .

وقال تعالى حاكياً قصة يونس مع قومه المؤمنين : ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةً ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَنُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخَرْيِ فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (يونس : ٩٨) .

إن القصص القرآني آيات بالغة التأثير في تأديب النفوس وسياسة

(١) راجع كتاب « نظرات في القرآن » لمحمد الغزالي - الطبعة الخامسة (١١٧) .

(٢) نظرات في القرآن - لمحمد الغزالي - الطبعة الخامسة (١١٠) .

الأفراد والأمم والجماعات^(١) ، تشرق من خلالها المحاورات النابضة التي أثبتتها القرآن ، وهي معالم خالدة لضبط الحقيقة التاريخية والواقعية وأخذ العبرة منها .

ومن خلال ذلك كله نجد البيان المعجز يتخلل هذا القصص القرآني كله في كل آية من آياته وفي كل صورة من صورته .

كما جاء هذا القصص كالمواساة وتخفيفاً للمعاناة الشديدة التي لا يتحملها إلا إمام المرسلين ، عليه الصلاة والسلام ، والتي لاقاها مع الأسف الشديد من أعرف الناس بصدقه وأمانته .

وإن العنت الذي يلاقيه سيدنا رسول الله ﷺ وأصحابه من الكفار في تكذيبهم للدعوى وإيذائهم للمؤمنين إنما هو عادة متأصلة في نفوس المشركين في كل زمان ومكان ، فالتاريخ يعيد نفسه ، والمعاندون دائماً لا شغل لهم سوى التكذيب والمكابرة والإيذاء الذي قد يصل إلى تعذيب الأجساد وقهر النفوس وإزهاق الأرواح وتخريب البيوت .

كما قال تعالى : ﴿ وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكُمْ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (هود : ١٢٠) (٢) .

معلوم أن القصص القرآني لا يخضع - من حيث قيمته الفنية - لأي مقياس نقدي أو فني يمكن أن يتوصل إليه الإنسان مهما علت منزلته في مجال النقد الأدبي ، فالقرآن فوق كل تلك المقاييس والمعايير البشرية ، لأنه كلام رب العالمين ويكفي وصف الله له بأنه : ﴿ أحسن القصص ﴾ .

(١) نظرات في القرآن - لمحمد الغزالي - الطبعة الخامسة (١١٣) .

(٢) هذا إضافة إلى ما للقصة القرآنية من فوائد جمة تتجلى في إيضاح أسس الدعوة إلى الله وبيان أصول الشرائع التي بعث بها كل نبي ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ [الأنبياء : ٢٥] .

ومع هذا كله فإن القصة القرآنية تظهر صدق النبي ﷺ في دعوته إلى الله بما أخبر به عن أحوال الماضين ، ثم تصديق الأنبياء السابقين وإحياء ذكراهم وتخليد آثارهم مع مقارعة أهل الكتاب بالحجة فيما كتموه من البينات والهدى وتحديه لهم بما كان في كتبهم من قبل من التحريف والتبديل كقوله تعالى : ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالاً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ . [آل عمران : ٩٣] .

وبالتالي فإن القصص القرآني كان سابقاً على تلك التقسيمات الحديثة التي وصل إليها النقاد المحدثون من تقسيم القصة إلى : قصة طويلة ، وقصة قصيرة ، وما إلى ذلك ، ومع ذلك فإن المتبع لهذا القصص القرآني يجده قد تنوع من حيث الطول أو القصر حسب المقام الذي اقتضى هذا القصر أو ذلك الطول .

من هنا نلاحظ أن القصة القرآنية كانت تتنوع في صورها
وسوف أقوم بعرض نماذج من هذه الصور :

فالقصاص القرآني غير أكاذيب القصص وخيالات المخرفين ، وهو لا يخضع من حيث قيمته الفنية لمقاييس الهوى والخيال الجامح والأكاذيب المفرطة .

وتتنوع القصة القرآنية وتتعدد في صورها من طويلة إلى قصيرة
وهي في مختلف ألوانها قصة واقعية هادفة إلى زرع الطمأنينة في النفوس المستعدة لمعرفة الحكمة وفصل الخطاب .

القصة الطويلة في القرآن :

ولعل قصة نبي الله يوسف عليه السلام مثل للقصة القرآنية الطويلة التي استكملت مقومات القصة كما أراد الله لها في القرآن من حيث نقطة البدء بمحاولة إخوته التخلص منه : ﴿ إِذْ قَالَ الْيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيَّ أَيْنَمَا نَا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَيْكُمُ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ .

ثم يجيء الشروع في التنفيذ والبدء في التخطيط لأخذه من أبيه بطريق الخداع وحبك الأكاذيب ﴿ قَالُوا يَتَّابَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصْحُونُ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ .

ويتسنى لهم الحصول على بغيتهم ومن ثم يبدأ التشاور بينهم ويستقر الأمر على رميه في الحب المهلك ﴿ وَاجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَبَتِ الْجُبِّ ﴾ .

هنا تبدو النفس مشدودة إلى معرفة مصير يوسف ؟ وما الذي سيحدث له بعد ذلك ؟ هل سيخرج أم لا ؟

ويلتقطه السيارة ، فيا ترى هل سيستخدمونه ؟ أم ماذا ستصنع به

السيارة ؟ وبيع بثمن بخس وأين ؟ في مصر ! بعيداً أشد البعد عن موطنه الأصلي فلسطين ! وبيع لمن ؟ للعزيز !

الإثارة تشتد في معرفة مصير يوسف في هذا البيت الشامخ الوجيه ، وكيف سيتأقلم مع أسلوب الحياة هناك ، وتعلونا مظاهر الارتياح حين نسمع العزيز يقول لامرأته : ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَخْذُمُ وَلَدًا ﴾ .

ونتساءل هل ستكرم امرأة العزيز مثواه ؟ أم تنظر له نظرة الدخيل ؟ وتشوق إلى معرفة معيشته هنا ؟ ونفاجأ بمراودة امرأة العزيز له ﴿ وَرَوَدَتْهُ أَتَى هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ﴾ .

وتتشوق إلى معرفة موقف يوسف معها ؟ هل سيصعق من هذه المفاجأة ؟ أم يخضع لإرادتها ؟ لا سيما وهي ولية نعمته ويعيش معها ، وليس هو مظنة للتهمة ، لأن عيشه معها عاد كابن لها ، فالشكوك لا تتطرق إليه ، ويأتي الرد على هذه التساؤلات في تعوذ يوسف من هذه الفعلة : ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

وهنا نتشوق إلى معرفة ردها ؟ هل ستوقع به ؟ أم تحاول تلافي الأمر وترجو من يوسف أن لا يخبر زوجها بالأمر ؟ ولكن الموقف يزداد توتراً ويتفاقم حدة ، بعد أن نفاجأ بالزوج العزيز يدخل في نفس اللحظة التي كان يوسف يركض فيها مولياً الأدبار .

وهنا تتابنا الدهشة حين نسمع امرأة العزيز ترمي يوسف بتهمة الخيانة ﴿ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا ﴾ .

ونتشوق إلى معرفة موقف العزيز من يوسف ، لاشك في أنه موقف حرج للغاية ، فيوسف يريد من العزيز أن يحسن الظن به وهو مظلوم .

والعزيز يرى زوجته قد اتهمت يوسف بالخيانة . . . إنه موقف محير . . . ولكن سرعان ما يحل اللغز وتتبدد الحيرة حين شهد شاهد من أهلها : ﴿ إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قَدْ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَذِبِينَ ﴾ (٢٦) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ

إِنَّهُ مِنْ كَذِبِكُمْ إِنَّ كَيْدَكُمْ عَظِيمٌ .

وينتقل يوسف إلى السجن بعد هذه التهمة المنكرة وكانت حالة يوسف عند دخوله السجن مزيجاً من الفرح والحزن ، الفرح لأنه ابتعد عن بيت المكر والخديعة ، والحزن لأنه سجن ظلماً والسمعة السيئة لمن لا يعلم حقيقة الحال ، لكن السجن كان فاتحة خير له ، وَرُبَّ نَحْنَةٍ فِي ضَمْنِهَا مَنَحَةٌ .

ويرى الملك رؤيا ويعجز المعبرون عن تفسيرها ، ونجد تعبيرها عند يوسف على يد الساقى .

وهنا تتوالى المفاجآت في سلسلة من الترابط والاتساق .

أولهما : في خروجه من السجن ، وثانيهما : في اعتراف زليخا ، وثالثهما : في توليه أمر الخزانة .

﴿ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْفَنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (٥١) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ .

... ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْثِرُ بِهِ أَستخلصه لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ .

﴿ قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهَا ﴾ .

ويعين وزيراً للخزانة ، وأصبح مسؤولاً عن صرف الميرة والطعام في زمن القحط ، ونفاجاً بإخوة يوسف في ضمن القادمين لطلب الميرة فهل ياترى سيعرفهم يوسف بعد هذه الغيبة الطويلة أم لا ؟ وهم بالتالي هل سيعرفونه ؟

وهنا تأتي الردود على هذه التساؤلات من كتاب الله : ﴿ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَمْ يُمْنِكُونِ ﴾ .

﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ أَتُؤْثِرُ بِأَخِي لَكُمْ مِنْ أَيْكُمُ الْآتَرُونَ أَنِّي أَوفِي الْكَفْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُتَزِلِينَ ﴾ .

وينجح يوسف ببراعة وذكاء وتوفيق من الله في استبقاء أخيه ﴿ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ .

ثم تبدو تساؤلات جديدة وعديدة : كيف يصنع أخوة يوسف ، هل سيعودون بدون بنيامين ؟ وما موقف الأب حينما يعودون له ؟ وهل سيعودون مرة أخرى للمطالبة ببنيامين وتقديم فداء له ؟ وما موقف يوسف منهم إذا عادوا ؟

ويطالعنا القرآن بالإجابات المثيرة لهذه التساؤلات : ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾ ، ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ ، ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَتَآمَنُ الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلُنَا النَّارُ وَجِئْنَا بِضِغَةِ مُرْجَلَةٍ فَأَوْفٍ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ .

فهم لم يعودوا لطلب بنيامين ، ولم يتطرقوا لذكره ! وهنا يرق يوسف للحال التي وصل إليها إخوته ، ويرى بأن وقت الإفصاح عن نفسه قد حان ، فيقول ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ .

كلمات تعيد لهم ذكريات مضت واندثرت في مخيلاتهم ، وهنا يثوبون إلى رشدهم ويقولون في غمرة الاندهاش ، وفي تساؤل ممزوج بالفرح والحزن : ﴿ قَالُوا أَوَ تَكُ لَا تُؤْسَفُ ﴾ .

ويرد عليهم : ﴿ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

وهنا يلجؤون إلى تحمل عذر يسوغ لهم فعلتهم ، ويدفع الخجل عنهم ، ويرى ساحتهم ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ أَثَرْنَا اللَّهَ عَلَيْنَا ﴾ والاعتراف بالحق فضيلة ﴿ وَإِنْ كُنَّا لَخَطِيئِينَ ﴾ .

ويلجأ يوسف إلى التخفيف من حدة الموقف وتوتره ، فيقول في تعبير يشف عن نفس معصومة ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ .

ثم نشوق إلى معرفة لقاء يوسف بأبوين : هل سيعود لهما ؟ وإذا عاد فما الطريقة التي يعود بها ؟

وهنا تأتي مفاجأة القرآن الكريم ﴿ أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَاَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِهِ

أَيَّ يَأْتِ بَصِيرًا وَأَتُوبُ بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٦﴾
﴿ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي
أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

﴿ قَالُوا يَا بَنَاتَنَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾ ﴿١٧﴾ قَالَ سَوْفَ اسْتَغْفِرُ لَكُمْ
رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ .

ويتجهز الأب والإخوة في الرحيل إلى مصر ، وهناك كان لقاء الأخوة
لقاء لا يوصف ، ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ
إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ .

وبعد أن تنتهي القصة يظل العقل مشدوداً أمام أحداثها منذ أن بدأت
تلك الرؤيا المنامية حتى لحظة اللقاء : ﴿ يَتَأْتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا
وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ .

فتبين صدق الرؤيا بسجود إخوته وكان عددهم أحد عشر أخاً ،
ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً ، وهما الشمس والقمر ﴿ وَقَالَ
يَتَأْتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ
السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ
لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ .

ثم انظر إلى الفطنة في القول ، فقد قدم ذكر منة الله عليه بإخراجه من
السجن ، مع كونها تالية لمنة الخروج من البئر ، ولم يذكر سببها إلا ضمناً
﴿ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾ ليفصح عن حرصه على الطهارة
والنقاء ، إذ في خروجه من السجن تبين أنه بريء من أي ريبة ، وما اختلقته
امرأة العزيز كان محض افتراء .

ثم لثلا يذكر ما يتسبب في جرح شعور إخوته أو إيلا م مشاعرهم
لاسيما والموقف يقتضي المسامحة ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ
مِّنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ
الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ .

كل ذلك في تفصيل مثير ، وارتباط وتشابك قائم على حلقات مثيرة
عقدة تلو الأخرى وحلولها في تعانق وارتباط متحدة في الأجزاء مترابطة في

الأحداث .

وقد برزت فيها الشخصيات بروزاً ينم عن دورها الدقيق في مجريات

الأحداث .

كل ذلك في تآلف تام من بدايتها وفي أثناء عرضها إلى نهايتها في

أسلوب معجز رائع معيب .

كل ذلك قبل أن يعرف الأدب قديماً أو حديثاً شيئاً عن تقسيمات

القصة وعن عناصر بنائها وعن عوامل نضجها واكتمالها .

وهنا تعقب الآيات على القصة ، فبعد هذا العرض المثير وبعد ذلك

الأسلوب المعجز الباهر . . . يأتي بعد ذلك الغرض من هذا القصص

القرآني ، الذي يكمن في العظة والاعتبار . وأنها لهداية البشر .

﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ

تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ .

القصة القصيرة في القرآن الكريم :

لقد تحدث الأدباء عن فن القصة القصيرة ، واشترطوا لهذا اللون

الأدبي شروطاً خاصة في عرفهم وهي :

أولاً : أن تكون القصة مركزة غاية التركيز في تعبيراتها بحيث يكون

كل تعبير ذا أثر في تطور القصة وتسلسل أحداثها .

ثانياً : أن تكون القصة ذات بداية وقمة ونهاية ، تلك النهاية التي

يجلو لبعض النقاد أن يسميها لحظة (التنوير) وهي اللحظة التي تدرك فيها

لماذا كتب الكاتب القصة .

ثالثاً : أن لا تكون كثيرة الأشخاص ، فالقصة القصيرة لا تسمح

لشخص أن يظهر فيها إلا إذا كان مهماً للغاية بالنسبة للحدث ، وإذا ظهر

فلا بد أن يظل موجوداً في القصة حتى تنتهي .

وهذا نموذج قرآني يرقى فوق ما حدده النقاد والأدباء لمثل هذا اللون

الأدبي ، قال تعالى على لسان الخليل عليه السلام : ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ

الصَّالِحِينَ﴾ ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَى فِي

الْمَنَازِلِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَأَنْظِرْ مَاذَا تَرَى﴾ قَالَ يَا بَنَاتِ أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ

الْعَصِيرِينَ ﴿١٠٧﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٨﴾ وَنَدَيْتُهُ أَنْ يَتَابِعْنِي ﴿١٠٩﴾ قَدْ صَدَّقَتِ الرُّؤْيَا إِنَّا
كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّكَ هَلَّا لَوْ الْبَلَّوْنَا الْمَيِّتَ ﴿١١١﴾ وَنَدَيْتُهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١١٢﴾
(الصفافات : ١٠٠ ، ١٠٧) .

في ستين كلمة اكتملت قصة معجزة . . . من ناحية الزمن فترة
محدودة للغاية ، فهذا أب يهّم بقتل ابنه ، وتله للجبين ، فيوحي إليه ربه :
قد صدقت الرؤيا فينقذ الابن .

ومن ناحية الموضوع فإنه يتلخص في أب يقول لابنه : إنه قد أوحى
إليه أن يقتله ، فيقول الابن في صدق الإيمان وعظمته : ﴿ يا أبت افعل ما
تؤمر ﴾ ، ولم تحد القصة عن موضوعها قيد أنملة .

ومن ناحية الأشخاص فهما اثنان لاثالث لهما ، يدور بينهما هذا
الموقف الرهيب .

من ناحية البداية ، والقمة ، والنهاية :

البداية : ﴿ رب هب لي من الصالحين ﴾ .

القمة : ﴿ افعل ما تؤمر - وتله للجبين ﴾ .

النهاية : ﴿ وفديناه بذبح عظيم ﴾ .

البداية أروع ما تكون البداية ، فالسورة تبدأ بدعاء يتوجه به الخليل
عليه السلام إلى ربه .

القمة : أروع ما تكون القمة : أب يستعد لذبح ابنه امثالاً لأمر
ربه ، وابن يرحب أن يقتل في سبيل الله وفي صبر عجيب .

النهاية : أروع ما تكون النهاية في فداء الابن بذبح عظيم ودخول
الأب في صف المحسنين ^(١) .

(١) السرد القصصي في القرآن - ثروت أباظة (٥٢ - ٥٤) - دار نهضة مصر .

ولعل الحكمة في هذه الرؤيا كما ارتأها المفسرون هي : « أن إبراهيم اتخذ الله
تعالى خليلاً ، فلما سأل ربه الولد ووجه له تعلقت شعبة من قلبه بمحبة ولده .
فأمر بذبح المحبوب لتظهر صفاء الخلقة ، فامتثل أمر ربه وقدم محبته على محبة
ولده » .

والقصة ذات اللوحة الخاطفة :

لون من ألوان القصص القرآني كما نرى في مقام الامتنان إذا كان الجزء من جنس العمل ، فإننا نرى القصة القرآنية تميل إلى الإيجاز والإشارة الخاطفة تذكيراً للنبي ﷺ بتلك المنن التي من الله بها على رسله من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ۝ وَنَذَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ۝ وَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾ (مريم : ٥١ ، ٥٣) .

فليس الهدف هنا القص ، وإنما الهدف بيان رضا الله عز وجل عن عبده ورسوله موسى عليه السلام لإخلاصه فاجتباؤه ووهب له الرسالة واصطفاه نبياً ، وحباه بكلماته وزاده بركة بجعل أخيه هارون نبياً .
وقال تعالى : ﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ۝ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾ (مريم : ٥٤ ، ٥٥) .

وكما عرفنا فليس الهدف هنا القص ، وإنما بيان رضا الله سبحانه ومته على عبده ورسوله إسماعيل جزاء صدقه ، وأمر أهله بالصلاة والزكاة ، فاجتباؤه ربه وأكرمه بالنبوة والرسالة ، وزاده برضاه عنه . وهكذا فالجزء من جنس العمل .

وقال تعالى : ﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ۝ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ (مريم : ٥٦ ، ٥٧) ، فكان صديقاً وهي أرفع درجات التصديق والإيمان وكان نبياً حصنه الله وعصمه ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ وهي الجنة لاشيء أعلى منها .

كل ذلك مئة منه سبحانه وكرماً ، تذكيراً للنبي ﷺ بتلك المنن الجسم .

وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ طَآءَنَّا نَبَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَبَحَيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْفَبْكَثِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْفٍ فَاسِقِينَ ﴾ (الأنبياء : ٧٤) .

فلوط عليه السلام آتاه الله حكماً ، وهو ما يجب فعله ، وعلماً وهي النبوة ، ونجاه الله من القرية التي كانت تعمل الخبائث ، وأدخله الجنة

مستقر رحمة ومستودع مغفرته ، إنه كان من الصالحين .

القصة الحوارية :

وهي التي تحكي حواراً بين شخصين كما في قصة موسى عليه السلام مع فرعون .

قال فرعون : ﴿ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَى ﴾ في تجاهل واستخفاف ؟

قال موسى : ﴿ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ والهداية رأس كل بر فمن حرمها فلا فائدة ترجى منه .

قال فرعون : ﴿ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴾ ؟

قال موسى : ﴿ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴾ .

قال فرعون : ﴿ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمُوسَى ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سَوًى ﴾ .

قال موسى : ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾ (طه : ٤٩ ، ٥٩) .

وهكذا نجد علامات الاستفهام تملأ عقل فرعون فهو يشتط عله يدرك على موسى مغمزاً .

وقد تكون حكاية الحوار بين شخصية إنسانية وأخرى من فئة الطير ، كما في حوار الهدهد مع نبي الله سليمان ، ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْفَاكِينِ ﴾ .

لقد كان الهدهد عضواً ذا شأنٍ في مُلك سليمان ، وانطلاقاً من روح المسؤولية والحرص على أفراد الرعية والتفقد لشؤونهم تبين غياب هذا العضو ، وحرصاً على معرفة مصدر غيابه وانزعاجاً على هذا الغياب .

سأل النبي الملك سليمان عليه السلام وقال ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ ، يأتيني بعذر يسوغ له هذا الغياب بدون إذن .

وهنا تلوح في الأفق بوادر أمل ممزوج بأمل من مملكة الطير في وصول الهدهد بالعذر المقبول عند نبي الله سليمان عليه السلام : ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بَنِيَّ يَنْفِقِينَ ﴾ .

أمر يثير الاندهاش فعلاً ، فماذا عساه هذا الخبر الذي غاب عن ملك سليمان ﴿ إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَتَوَكَّلُكُمْ وَأُوتِيتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ !

مقدمات تثير الكثير من علامات الاستفهام والترقب ، ثم ماذا ؟ ﴿ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّيْءِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ .

لا إنه أمر لا ينبغي السكوت عليه إنها مخالفة صارخة للفقرة التي آمن بها كل شيء حتى الطير ﴿ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ .

لقد قال الهدهد هذا ، وقد أدرك بثاقب نظره أن الذي يخرج الخبء في الأرض هو أعلم بسواه ، ولأن طائر الهدهد رزق من البصيرة بحيث يستخرج قوته من باطن الأرض وهذه لفظة ذكية .

فقاس هذا الطائر الذكي بفظنته الخبء على مظهره وأن الذي جعل رزقه في باطن الأرض هو القادر على كل شيء ، وهو المستحق للعبادة ، وهو الذي يعلم ما تخفون وما تعلنون ، ثم هذه الشمس التي تعبدونها إن كان تصل بإشعاعها على مظهر ، فليست هي بالقادرة على الوصول إلى الخبء في الأرض ، وبالتالي هو خاف على علمها وهو يخف عنها وعن ضوئها !

ومن هنا كان المستحق للعبادة هو الله جل شأنه ، وتعالى أسماؤه ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ .

﴿ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (النمل : ٢٠ ،

٢٧) ، قالها سليمان عليه السلام في لهجة الحاكم البصير باتخاذ القرار عن تربث وروية دون الاستعجال والبت في الأمور دون اكتراث لما قد تأتي به المحصلات من نتائج .

وقد تكون المحاوراة نفسية ذاتية كما في الحوار الداخلي الذي أجراه إبراهيم مع نفسه لبيان أخطاء قومه في عبوديتهم لغير الله عز وجل .

﴿ وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيْكُونَ مِنَ

الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ
الْأَفْلَاقَ ﴿٧٥﴾ (الأنعام : ٧٥) .

صورة شاخصة جعلت من الليل في سكونه جسماً مشخصاً نتملاه
ونحس به ، وهو يكتنف الخليل عليه السلام ويسدل عليه ستوره ، يعيش
في جو هذا السكون الذي يملأ القلب هيبه وجمالاً يتملى في سكينه ودعة
عظمة الخالق الصانع لهذا الملكوت جلّ جلاله ، وهذه الأفلاك المتناثرة في
هذا الليل البهيم ، وكأنها المصابيح تنير دياجير هذا الظلام الدامس .

ولكن لحظات التملّي تزول بزوال هذه الكواكب ، فإذا بمنطق الفطرة
والبدية : ليست هذه آلهة ، فالإله لا يزول ؟! ومن يدبر هذا الملكوت إذا
غاب راعيه ؟!

فلما رأى القمر بازغاً قال : هذا ربي ، إن هذا الجرم العظيم مدعاة
للتساؤل .

هل هذا العملاق في تفرده في السماء بنوره الساطع الذي يسكب في
الوجود دفئاً وحناناً .

ومن ثم ، فهل هذا هو الإله ؟ هل هذا ربي ؟

﴿ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي
لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾ ، ولكن ربي لا يغيب هذا منطق فطري
الصفافية ، رباه إن لم تتداركني بلطفك ورحمتك وتهديني لأكونن من القوم
الضالين ، إنني في حاجة إلى عونك وتسديدك لي يارب .

ولكن لنعد النظرة مرة أخرى في ضوء النهار . مادمت لم أتوصل إلى
خالقي في سكون الليل ، فلعلي أجده في ضوء النهار .

آه إنها الشمس أكبر الأجرام وأشدّها نفعا ، فهي مطهرة ومغصبة
للقوت والنبت ، وباعثة على الحيوية والنشاط . ﴿ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ
هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُقِيمُ إِنِّي بِرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ .

ولكن قد بدأت تميل إلى الغروب فالأفول ؟

لا يا قوم إني بريء مما تشركون ، إن إلهي هو أكبر من هذا كله ، إنه
المتصرف في هذا الوجود كله ، إني أحسّه في قلبي في مشاعري في كياني .

وتنطلق الشرارة ويتم الاتصال بين منطق الفطرة الصادقة والله الحق ،
ويغمر النور القلب ويفيض على الكون الظاهر ، وعلى العقل والوعي ،
وهنا يجد إبراهيم إلهه يحسه في وعيه وإدراكه كما هو في فطرته وضميره ،
هنا يقع التطابق بين الإحساس الفطري المكنون والتصور العقلي الواضح ،
﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ
الْمُشْرِكِينَ ﴾ (الأنعام : ٧٥ ، ٧٩) .

القصة القرآنية بين التوحد والتكرار

القصة التي لم تتكرر :

هذا ويلاحظ في القصص القرآني أن هناك قصصاً قد كرّرت ، وأن هناك قصصاً لم تكرر ، فما السر في هذا ؟

ولعل السر في عدم التكرار لتلك القصص التي لم تكرر أن جميع هذه القصص إنما قصد بها مجرد الإعلام والإخبار ، وهذا يتحصل في المرة الواحدة ، فعلم النبي ﷺ يحصل بمجرد الإخبار من هنا ، فلا حاجة إلى التكرار في مثل هذا القص .

من هذا القصّ قوله تعالى في قصّة المحاجة التي جرت بين سيدنا إبراهيم عليه السلام والذي حاجّه في ربه ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (البقرة : ٢٥٨) .

وقصة الذي مر على قرية ، قال تعالى : ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثْنَاهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتُ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضُ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتُ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (البقرة : ٢٥٩) .

وفي هذا القص يلاحظ أن الهدف منه هو مجرد الإعلام والإخبار بما جرى لإبراهيم عليه السلام مع النمرود ، ولصاحب القرية حينما أخذه العجب من هذه الأرماس ، وكيف تبعث ؟ وهذه الرفات وكيف تجمع ؟ فأماته الله مائة عام ثم بعثه وأراه من عظيم قدرته سبحانه ، وفي هذا أعظم دليل على البعث والنشور والخروج من القبور ، فسبحان من تعزّز بالقدرة وقهر العباد بالموت .

ومثل هذا القص وهو إنما جاء للإخبار والإعلام ، وهذا يتحصل

بالمرة الواحدة ، من هنا لم يكن هناك داع إلى التكرار .
وفي قصة أصحاب الكهف قال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ
الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ١ ﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا
مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ٢ ﴾ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ
عَدَدًا ٣ ﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ٤ ﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ
بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فَتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ٥ ﴾ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا
فَقَالُوا رَبَّنَا رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوكَ مِنْ دُونِهِ إِنْهَا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ٦ ﴾
هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ
أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ٧ ﴾ (الكهف : ٩ ، ١٥) .

وقصة ذي القرنين ، قال تعالى : ﴿ وَنَسْنُوكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا
عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ٨٣ ﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيلًا ٨٤ ﴾ فَأَتَعَ
سَبِيلًا ٨٥ ﴾ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَبْنَ
الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ نَعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ نَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ٨٦ ﴾ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى
رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا ثَكْرًا ٨٧ ﴾ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا
يُسْرًا ٨٨ ﴾ (الكهف : ٨٣ ، ٨٨) .

فقصة أصحاب الكهف وذي القرنين لم يقصد بها سوى إعلام
النبي ﷺ بأخبار هؤلاء القوم وهذا يتحصل العلم به بالمرة الواحدة .
من هنا لم تكرر مثل هذه القصص .

القصة التي كررت :

وأما القصص التي كررت ، وهذه كثيرة في القرآن ، فما السر في
تكرارها ؟

ونقول : إن هذه كررت للعةظة والعبرة وللتسلية والترويح عن
النبي ﷺ على أن العجيب في تكرار أحداث القصة بهذا الأسلوب المتمايز
عن الآخر يجعل القارئ والسماع لا يمل من التكرار ، بل على العكس من
ذلك نراه يجدد في نفسه معاني آخر ربما إنها لم تحصل له من قبل فيما عرض
من أسلوب سابق .

— كما أن هذا التكرار طريق من طرق تأكيد المعنى في النفس واستقرارها

في خواطر القارئ والسامع ، فكل قصة من القصص القرآنية التي قد تكررت اتحدت أهدافها ، فهي وإن تكررت في مواضع كثيرة في القرآن ، إلا أنها تشير إلى غايات شتى حيث إنها تمثل الصراع بين الحق والباطل .

وعلى هذا فإن التكرار يشبب هذا الصراع ويؤكد نهاية الظلم وبذلك ترسخ هذه الغاية في النفس ، فتكون أدعى إلى التصديق والامتنال .

على أن الأمر العظيم الذي له بال خطر يستأهل التكرار ، أما الشيء العارض فإن تكراره قد يكون ثقیلاً على السمع ، بغضاً إلى النفس ، من هنا فإنه لا يستأهل المعاودة ، أما الأشياء الجسيمة ذات البال كقصص القرآن التي كلها عبرة وعظة وأحداث من أنباء الغيب ، فما أحوج البشرية إلى معرفتها والوصول إلى مراميها ، وعلى هذا فتكرارها أمر يطابق مقتضى الحال ، إذ أن الطبيعة البشرية تميل إلى أن يعاد الشيء الذي يحزن الإنسان إليه ويرغب في معرفته ، وخصوصاً أن هذه الأمور مرتبطة بالعقيدة وبالسلوك الإسلامي الصحيح .

على أن الهدف السامي لهذا القصص سواء في موضوعه أو حواراه أو صراعه هو الهداية والدعوة إلى الحق .

والقصة القرآنية تهدف إلى إثبات وحدة الألوهية ، ووحدة الدين ، ووحدة هدايات الرسل ، ووحدة طرائق الدعوة ، ووحدة المصير ، ومن ثم فهي وسيلة إلى كل ذلك .

والقصة القرآنية تعرض للأخلاق الفاضلة ، وتدعو إليها بصور متنوعة . وبالجملية يمكن القول : إن القصة القرآنية من طرق التربية على الحق والخير ومكارم الأخلاق ، وهي مهمة غاية الأهمية في توضيح علاقات الإنسان الخلقية والروحية بأخيه الإنسان .

وذلك مع بلاغة الأسلوب ، ودقة المعاني ، وصدق ما تهدف إليه ، وفي قصص القرآن نجد الأهداف التربوية واضحة ، ذلك أن شخصيات هذا القصص واقعية صالحة لكل عصر ، وبالتالي فإن المربي الجيد هو الذي يمكنه أن يستغل هذه المواقف وتلك الشخصيات في تحقيق أهداف التربية الإسلامية .

وهكذا تبدو القصة القرائية مع الإعجاز الباهر في أسلوبها وطريقة
أدائها ، ومع ذلك فهي لا تنفك أبداً عن أداء دورها الباهر في الهداية
والتوجيه .

الفصل الخامس

الصّور البيانية في أسلوب القرآن الكريم
التشبيه ، الاستعارة ، الكناية

تقديم

القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم
حميد ، نزل بأفصح ما تسمو إليه لغة العرب في خصائصها العجيبة وما
تقوم به .

وقد طلع على العرب الأقحاح بالفاظ وتراكيب وموضوعات لم
يعرفوها من قبل ، وظلت آياته على امتداد الحقب قوةً للخطيب وحليةً
للمنشد ، يُرَّصع بها كلامه فتتميز بطلاوتها ونفاستها ، كما تتميز
اللؤلؤة الفريدة في عقد من الجزع ، ولسوف تبقى كذلك حتى يرث الله
الأرض ومن عليها ، فهو المعجزة الخالدة التي أفحمت البلغاء
المصادع ، وأبهرت الخطباء المصاقع وألجمت الشعراء الخناذيد .

ففي البيان القرآني - الذي جُمع له العرب - من دقة التشبيه وروعة
التمثيل وبلاغة الإجمال والتفصيل ، وقوة الحجاج ، ما يعجز طوق
البشر ، ويرمي المعارضين بالعي والحصر .

ونحاول هنا أن نقطف من جنى البيان القرآني بعض الثمار
الأسلوبية في حدائق التشبيه ، الاستعارة ، الكناية .

من صور التشبيه في القرآن الكريم

تعدد الصور وتنوع مظاهر الإعجاز في طي هذا الكتاب العظيم ، فمن إعجاز في المنهج إلى إعجاز في الأسلوب ، بجانب ما في هذا الكتاب العظيم من إعجاز في الهداية والتوجيه .

لقد حفل القرآن الكريم بالكثير من الأساليب البيانية الرائعة ، وفيه وجد المعنيون بالبلاغة ضالّتهم المنشودة .

إنك لا تكاد تضع يدك على شيء ، أو يقع نظرك على لفظة حتى تلمس هذا الإعجاز ، إنه يخاطبك من وراء السطور ، إنه يستدعيك فأنت مشدود إليه ، تحس به وتناجيه ، تقترب منه وتهتدي بهداه وهو يفيض بتجليّاته الربّانية ، بهمسّاته الروحانيّة ، إنه غذاء الروح . . إنه هديّة السماء للأرض ، إنه مادّة الله الذي لا تنفذ عجائبه .

ونريد هنا أن نقف عند مظهر إعجازي يتجلّى في الأسلوب من حيث الصور البيانية القرآنية ، ومن هذه الصور : التشبيه ، كما في قول الله تعالى : ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴾ (هود : ٤٢) . هنا يصور القرآن الكريم لنا حال السفينة وهي تمخر عباب البحر حاملة على ظهرها نبيّ الله نوحاً والعصابة الناجية التي تصحبه . . وهنا ترسم لنا صورة تلقي في النفس رهبةً وجلالاً . . إنها صورة الأمواج العاتية وهي تتقاذف السفينة في وسط صخب البحر وهديره ، وكل موجة كالجبل من حيث العظم والضخامة .

إن النفس لتملؤها الحيرة ، ويعصف بها الاضطراب للمصير إلى السلامة الذي ينتظر أصحاب السفينة ، وما هو الشعور الذي كان يساورهم وهم يصارعون تلك الأمواج العاتية في لجة بحر صاخب قد عمّ الأرض كلها . . ؟ !

ولكن ما تلبث النفس أن تستشف رحمة الله وهي تحيط بها ، وعناية الله وهي تلاحظها ، حتى تستقر السفينة على الجوديّ ، ﴿ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ﴾ (هود : ٤٤) .

إنه تشبيه القرآن وكفى ، كله صور ، وظلال ، ومشاهد
حاضرة^(١) .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوا كَمَرَاةٍ يَبْقَعُوا بِحَسْبِهِ
الظُّلُمَاتُ مَاءً حَقًّا إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابًا وَاللَّهُ سَرِيعُ
الْحِسَابِ ﴾ (النور : ٣٩) .

إن القرآن الكريم وهو يصور لنا أعمال الكافرين التي يعملونها في
دنياههم وهم مخدوعون بها مفتونون ، وهي لا أثر لها ولا تأثير .
إنها أشبه ما تكون بالطيف الذي يلحظه المسافر الذي أنهكه حرُّ
الصحراء ولفح الهجير ، فارتاح لمراه حتى إذا ما اقترب منه لم يجده
شيئاً ، إنه سراب لا وجود له ولا حقيقة .

والقرآن الكريم حين يرسم لنا صورة فإنما يستمدّها من ظاهر
البيئة المحيطة بنا حتى يقرب لنا المعنى فنحسه ونلمسه .
ومن هنا نجد أن السمات التي يحرص عليها الأدب الرفيع هي
هذه السمات القرآنية الكريمة ، والتي أكسبته الخلود والتأثير النفسي
والاستمرارية والعطاء .

وهذا نموذج آخر للمشرّكين الذين اشتروا الضلالة بالهدى في
قوله تعالى : ﴿ وَأَقْبَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأُ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَأَنْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ
الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْفَٰرِثِينَ ﴾ (١٧٩) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ
وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَثَلَّى كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ
مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِءَايَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٢)

(١) وحيث إن الحديث هنا عن التشبيه في القرآن ، فإنه من الواجب عليّ أن أجلي معنى
التشبيه في اصطلاح البلقاء ، فالتشبيه في عرف البلاغة هو : « الدلالة على مشاركة
أمر لآخر في معنى » ، والتشبيه البليغ عندهم : ما حذف فيه وجه الشبه والأداة .
راجع الإيضاح في علوم البلاغة - للخطيب القزويني - تحقيق محمد عبي الدين عبد
الحميد - (٢١٣) .

وباختصار : التشبيه في القرآن بليغ من البلاغة ، وفي كلام الناس من المبالغة .
والتشبيه : هو أسلوب يدل على مشاركة أمر لآخر في صفته .

(٢) ذلك المسخ (هو بلعم بن باعوراء) من علماء اليهود آتاه الله علماً ، فكان عنده =

(الأعراف : ١٧٥ ، ١٧٦) .

إنها صورة مشوهة لوجه قبيح وداعية إلى الانحلال والشر ، ذلك من أوتي حظوة وأثارة من علم ، ولكنه أثر الضلالة وانخرط في سلكها ، فكان كمن أثر الانحدار والضعفة على الرفعة والعلو ﴿ ولكنه أخلّد إلى الأرض ﴾ .

إن هذا المسخ لا يشبه سوى الكلب ، ذلك الحيوان الأليف عندما تغلب عليه مظاهر الخسة والدناءة ، إن تحمل على الكلب يلهث ، وإن تركه يلهث ، فهو على كلّ حال لاهث .

وتذوق معاني قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنعام : ١٢٥) .

هكذا سبيل الله ، فمن أنعم الله عليه وشرح صدره للإسلام فذاك الذي رزق الهداية ونال الحظوة وسلك الجادة ، ومن اختار الضلالة سبيلاً وسبق في علم الله له ذلك ، فإنه يعيش في دوامة ، إنه ضيق الصدر ، قلق متوتر وفي اضطراب .

شأنه في ذلك شأن المتسلق جبلاً ، وما يجده من كرب وضيق في النفس ، أو شأنه في ذلك شأن من يخترق الحاجز الصوتي حيث يفقد قانون الجاذبية ، ويضيق التنفس ويشعر الإنسان بالاختناق .

وهذا مظهر من مظاهر الإعجاز العلمي في القرآن ، فقد توصل العلم حديثاً إلى أن الارتفاع في طبقات الجو العليا - حيث تفقد الجاذبية - يؤدي إلى ضيق النفس والاختناق ، فسبحان العليم الخبير .

وتتوالى المشاهد والصور القرآنية ، وهذا مشهد من مشاهد الساعة ، قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ۖ وَتَكُونُ

= الاسم الأعظم ، ولكن استحوذ عليه الشيطان فأنساه ذكر الله ، فكفر وضلّ وانسلخ من العلم كانسلاخ الحية من جلدها فحل عليه الخزي والهوان ، فكان كالكلب إن تحمل عليه يلهث وإن تركه يلهث . راجع صفوة التفاسير - للصابوني - تفسير سورة الأعراف .

الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴿ (القارعة : ٤ ، ٥) .
إنه مشهد عظيم ، يوم يجعل الولدان شيباً ، فما حال الناس في ذلك اليوم ؟

إنهم في ضعفهم وتهافتهم كالفراش المبثوث ، وهم مستطارون مستخفون من هول الموقف .
وتكون الجبال كالعهن المنفوش ، كالصوف المنتشر المتطاير ، تتفرق أجزاء الجبال وتتطاير في الجو حتى تكون كالصوف المتطاير عند الندف .

ولنما جمع بين حال الناس وحال الجبال تنبيهاً على أن تلك القارعة أثرت في الجبال العظيمة المتصلبة حتى أصبحت كالصوف المندوف مع كونها غير مكلفة ، فكيف حال الإنسان الضعيف المقصود بالتكليف والحساب^(١) ؟ !
إنه تشبيه القرآن الذي يجمع الدقة والإحكام مع العظمة والجلال .

وهذا مشهد للمجاهدين الذين يقاتلون لتكون كلمة الله هي العليا في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُتْنٌ مَرْصُوعٌ ﴾ (الصف : ٤)^(٢) .

منظر حبيب وتشبيه عجيب ، إنه يمثل ذلك التماسك والتلاحم والارتباط الذي ينبغي أن يظهر عليه المجاهدون في سبيل الله من وحدة وانتظام من تراص وانسجام ، يلقي في القلب هبة وفي النفس رهبة .
إنه بنيان مرصوص لا اعوجاج فيه ، إنه وحدة متماسكة قائمة

(١) صفوة التفسير - للصابوني - الطبعة الأولى .

والتشبيه هنا مرسل مجمل ، حيث شبه الناس بالفراش المبثوث في الكثرة والانتشار ، وذكر أداة التشبيه ، وحذف وجه الشبه .
ومثله : كالعهن المنفوش في تطايرها وخفة سيرها ، ذكر أداة التشبيه وحذف وجه الشبه .

(٢) ولقد التفت جميع القوانين العسكرية وانظمتها على أن أبرز سمات الجيش القوي هو (الانتظام) .

على أساس متين ، إنه بناء أحبه الله ورعى أسسه .
ذلك هو تصوير القرآن المعجز يسترق الأسماع بروعته ويشير في
النفس آيات الإعجاب بطلاوته ، ثم لم يلبث أن يغوص إلى الأعماق ،
أعماق النفوس فتهدأ وتستيقن وتستقيم .

ولا تنفذ عجائب كتاب الله ، فهذه صورة أخرى من صور يوم
الفرع الأكبر في قوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ
السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَرْوُنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ
وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَٰكِنَّ
عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ۝ ﴾ (الحج : ١ ، ٢) .

إنه مشهد حافل بمناظر شتى في ذلك اليوم العظيم الذي لهوله
ترى المرضع وهي ذاهلة عما أرضعت ، إنه قرّة عينها وثمره فؤادها ،
ولكن ما كانت لتحفل به في ظلّ هذا الجو المفعم بالحشود المتماوجة إنها
أهوال وأمور أكبر من ذلك .

﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا ۝ ﴾ إنه وضع في غير أوانه إنه الهول
وقد بلغ أقصاه ، إنه هروب بالذات وكل يريد النجاة بنفسه .

وترى الناس سكارى تبدو مظاهر السكر في نظراتهم الشاردة
الذاهلة وفي خطواتهم المترنحة ، كأنهم ثمالى وما هم كذلك ، ولكن
عذاب الله شديد .

إنه مشهد مزدحم تكاد العين تبصره بينما الخيال يتملّؤه والهول
الشخص يذهله ، فلا يكاد يبلغ أقصاه ، وهو هول حي لا يقاس
بالحجم والضخامة ولكن بوقعه في النفوس الآدمية .
في الأمهات المرضعات الذاهلات عما أرضعن .
والحوامل الملقيات حملهن .

والسكارى وما هم بسكارى .
وفي الآية تشبيه : فقد شبه محفل الناس في ذلك المشهد العظيم ،
والأهوال تترأى أمامهم بالسكران الغائب عن الوعي والإلام ، بجامع

الذهول والشرود والترنح في كل^(١) .

ومن الصور التشبيهية ما جاء في قوله جل شأنه : ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأَقِلَّكُمْ وَأَبْرِجْ صَرْصِرَ عَلَيْهِمْ ۖ سَخَرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۖ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ۚ﴾ (الحاقة : ٦ ، ٨) .

إنه تصوير لحال المعاندين في كل زمان ومكان ، فالويل لهم والشرور مآلهم ، هؤلاء عاد عندما كفروا بأنعم الله كان الإهلاك شأنهم فسلط الله عليهم ريح الدبور وهي لا تفر ولا تنقطع سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً .

فكانت تقطع رؤوسهم ، وتدخل من أفواههم ، وتخرج من أدبارهم ، فترى القوم فيها صرعى هالكين ، كأنهم أعجاز نخل خاوية : أصول نخل متأكلة الأجواف ، فهل تجد لهم أثراً ؟ أو تسمع لهم ركزاً ؟ لقد هلكوا عن آخرهم .

ويصف المؤرخون أن القوم كانوا طويلي القامة مفرطي الطول كالنخل ، من هنا كان التشبيه لهم بالنخل كما جاء على لسان هود عليه السلام : ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾ (الأعراف : ٦٩) .

ففي الآية تشبيه : شبه القوم في هلاكهم حيث دخلت الريح من أفواههم وخرجت من أدبارهم وهم طوال الأجسام بالنخل المتأكلة الأجواف الملقاة على الأرض بجامع الطول المفرط مع الدمار في كل^(٢) .

أما الأبرار فإن النفس تطيب لذكرهم ، وما أعد الله لهم من نعيم مقيم ، وهذه صورة لهم في قوله تعالى : ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۖ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ۚ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ۚ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْمُومٍ ۚ خِتْمُهُمْ فِي سِكِّ ۚ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ (المطففين : ٢٢ ، ٢٦) .

(١) يستعمل هذا التشبيه في اصطلاح البلغاء بالتشبيه البليغ ، لأنه محذوف الوجه والأداة ، لذا وجب التنويه بهذا لأن جميع ما في كتاب الله بليغ .

(٢) والتشبيه هنا مرسل مجمل ذكرت الأداة وحذف وجه الشبه .

إن المطيعين المؤمنين في الجنّات الوارفة والظلال الممتدة يتنعمون على الأرائك ، وينظرون على السرر المزيّنة بفاخر الثياب والستور ، ينظرون إلى ما أعدّ الله لهم من أنواع الكرامة والنعيم في الجنة ، تعرف في وجوههم نضرة النعيم : إذا رأيتهم تعرف أنهم أهل نعمة لما ترى في وجوههم من النور والبياض والحسن ومن البهجة والسرور .

﴿ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ﴾ : إنها كأس الجنة بيضاء لذّة للشاربين طيبة صافية المذاق ، لم تكدرها الأيدي ، قد ختم على تلك الأواني فلا يَفُكُّ ختمها إلا الأبرار .

﴿ ختامه مسك ﴾ : آخر الشراب تفوح منه رائحة المسك ، ﴿ وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾ في هذا النعيم والشراب الهنيء بالمبادرة بالطاعات .

ففي قوله تعالى : ﴿ ختامه مسك ﴾ تشبيه حيث شبه آخر هذا الشراب والرائحة التي تفوح منه بالمسك ، وقد حذفت منه أداة التشبيه ووجه الشبه .

إن حلاوة ما تذوّقنا من صور التشبيه في كتاب الله تدفعنا إلى السعي لجني ثمرة بيانية أخرى ..

من صور الاستعارة في القرآن الكريم

إن القرآن الكريم حافل بالروائع من الصور الاستعارية التي يخرّ لها الفحول ، ولا تتناول إليها أعناق العماليق .

فمن استعارات القرآن الكريم ما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَاشْتَعلَ الرَّأسُ شَيْباً ﴾ (مريم : ٤) .

إنها مفاجأة العبد لبارئه في عزلة يخلص فيها لربه بعيداً عن أسماع الناس وعن أنظارهم ، هي لحظات روحانية كلها نور واستلطاف ، يبت فيها زكريا شجونته وما يُثقل كاهله ، وتفضي النفس المكروبة بما يعتلج داخلها من هموم وأشجان ، لمن لا يُضام سائله ولا يخيب راجيه .

نعم هنا تُسكب العبرات ، وتُقال العثرات في جناب رب كريم . فالجسم واهن والأعضاء متعبة ، إنه الهرم والشيخوخة وقد بدأت تدب في جسم زكريا ﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي ﴾ .

﴿ وَاشْتَعلَ الرَّأسُ شَيْباً ﴾ إنه شيب كالنار تشتعل في الرأس كله حتى أحالته إلى بياض مشرق كالنار . وهكذا تتقدّم بزكريا السنون ، وهو الآن أشيب الرأس واهن العظم معوجّ القناة قد ناهز التسعين .

وانظر إلى الحسن والجلال في قوله تعالى : ﴿ وَاشْتَعلَ الرَّأسُ شَيْباً ﴾ ، هل تجد ذلك الحسن والجلال ؟ وهل ترى تلك الروعة التي كنت تراها ؟ لو قلت في غير القرآن « واشتعل شيب الرأس » .

فإن قلت : فما السبب في أن (اشتعل) إذا استعير للشيب على هذا الوجه كان له الفضل ؟

قلت : إن السبب يرجع إلى أنه يفيد مع الشيب في الرأس الذي هو أصل المعنى الشمول ، وأنه قد شاع فيه وأخذ من نواحيه ، وأنه قد استقرّ به وعمّ جلته حتى لم يبق من السواد شيء ، وهذا ما لا يكون إذا قيل : « اشتعل شيب الرأس » ، أو : « الشيب في الرأس » بل لا يوجب اللفظ حيثثد أكثر من ظهوره فيه على الجملة ، ووزان ذلك أن تقول « اشتعل البيت ناراً » فيكون المعنى أن النار قد وقعت فيه وقوع

الشمول وأنها قد استولت عليه وأخذت في نواحيه .

وتقول : « اشتعلت النار في البيت » فلا يفيد ذلك بل لا يقتضي أكثر من وقوعها فيه وإصابتها جانباً منه ، فأما الشمول وأن تكون قد استولت على البيت وأبترته فلا يعقل من اللفظ البتة^(١) .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَيُسْـَٔلُ الْمَصِيرُ ۖ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورٌ ۖ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ (الملك : ٦ ، ٨) .

هذا هو الجزاء إنه من جنس العمل ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ .

إنها جهنم وما فيها من العذاب والأهوال والأغلال جزاء وفاقاً لمن كفر وتجبر ، فليس العذاب فيها خاصاً بالشياطين ، بل هو لكل كافر بالله من الإنس والجن .

﴿ إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً ﴾ : صوتاً منكراً فظيعاً لا يوصف لشدة توقدها وغليانها .

قال ابن عباس^(٢) : لجهنم عند إلقاء الكفار فيها تشهق إليهم شهقة البغلة للشعير ، ثم تزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف .
وهي تفور إنها تغلي كما يغلي المرجل - القدر - من شدة الغضب ،

(١) دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني - تصحيح السيد محمد رشيد رضا - طبعة ١٣٩٨ هـ - صفحة (٨٠) .

والاستعارة في الآية : شبه الشيب في الرأس بانتشار النار في الحطب .
وتعريف الاستعارة في الاصطلاح هي : ما كانت علاقته تشبيه معناه بما وضع له .

والاستعارة المكنية هي : تشبيه أمر بآخر ، ولكن في الاستعارة المكنية لا يظهر المشبه به في الكلام ، بل يبقى مستوراً ويرمز له بشيء من لوازمه .
وإذا بنيت الاستعارة المكنية على تشبيه فكرة مجردة أو جواد أو نبات أو حيوان بإنسان فإنها تسمى (تشخيصاً) .

أما الاستعارة التصريحية فهي ما صرح فيه بلفظ المشبه به .
(٢) راجع صفوة التفاسير - للشيخ محمد علي الصابوني - الطبعة الأولى - سورة الملك .
والشهيق أقبح ما يكون من صوت الحمار .

﴿ تكادُ تَمِيزُ من الغيظ ﴾ أي : تكادُ تَتَقَطَّعُ بعضها عن بعض من شدة غيظها وحققتها على أعداء الله ﴿ كلما ألقى فيها فوجٌ سألهم خزنتها ألم يأتكم نذيرٌ ﴾ ؟! سؤال تبيكيت وتقريع وزيادة في الحسرة والندامة ليزدادوا ألماً على ألم ، إنها حسرات مضاعفة .

والاستعارة هنا تزداد جمالاً حيث شبهت جهنم في شدة حرها وغيظها وغليناها بإنسان شديد الغيظ والحقن على عدوه يكاد يتقطع من شدة الغيظ ، وحذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو الغيظ الشديد ، على طريق الاستعارة المكنية .

وتبدو كذلك تلك الصورة الاستعارية في روعتها وجلالها في قوله تعالى : ﴿ وَالصُّبْحُ إِذَا نَفَسَ ﴾ (التكوير : ١٨) .

فالصبح وقد بدا ينتشر ويظهر بنوره الوضاء ليطالعنا صباح يوم جديد بآماله وتطلعاته وإشراقاته ، وقد تبددت حنادس الظلم ، إن الصبح يتنفس ، لقد كان يعاني من شبح يحشم على صدره ويكتم أنفاسه ، إنه يدافعه لإبعاده وقد تحقق ذلك ، فها هو يتنفس الصعداء ويتشر نوره ليروح عن نفسه وعن نفوس الآخرين . .

انظر إلى جمال التشبيه في إقبال النهار وسطوع الضياء بنسمات الهواء العليل التي تحيي القلب ، واستعارة لفظ التنفس لإقبال النهار بعد الظلام الدامس ، وهذا من لطيف الاستعارة وأبلغها تصويراً .

وتتدفق الصور الاستعارية فتأخذ بمجامع قلوبنا ، ومنها ما جاء في قول المولى جلّ وعلا : ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ ﴾ (الأعراف : ١٥٤) .

إن موسى عليه السلام في قمة الانفعال من فعلة قومه الذين أطاعوا السامري ، وأعرضوا عن الهدى ، واستبدلوا به الضلال فعبدوا العجل ، نعم إن الغضب قوة تتحرك ، تدفع موسى وتغريه وتستبدل بمشاعره ، فهو في قمة انفعاله أخذ بلحية أخيه هارون يجرّكها إليه ، مستاء من صنيع القوم الذين آثروا الضلالة على الهدى . . ثم إذا بالحركة الشاخصة للغضب تهدأ عن الإغراء فجأة ﴿ سَكَتَ عَنْ مُوسَى

الغضب ﴿ لا نطق ولا إغراء وإذا بموسى يهدأ ويستكين ويعود إلى سكينته ، إنه تصوير رائع ونموذج حي ، يصور لنا الجماد في صورة شاخصة تتحرك وتتفاعل وتستجيب .

وانظر إلى النكتة في التعبير بالسكوت ، فإن فيه استعاراً بأن الغضب قد يعود لأن الساكت قد يعود إلى النطق .

والاستعارة حيث شبه الغضب بإنسان يرعد ويزبد بصوته أمراً بالانتقام ، ثم اختفى هذا الصوت وسكت .

ففي الكلام استعارة مكنية حيث شبه الغضب بإنسان يحس ويشعر ويتكلم ويصمت ، وحذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه على سبيل الاستعارة المكنية .

وفي قوله تعالى : ﴿ فَأَصْدَعَ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرَضَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (الحجر : ٩٤) .

خطاب كريم ولفتة ربانية لإمام المجاهدين في سبيل الله خاتم المرسلين سيدنا رسول الله ﷺ بأن يجهر بالدعوة ولا تأخذه في الله لومة لائم .

فإن الجهاد في سبيل الله يستلزم الحزم ، فلا محابة في الدين ولا مجاملة ، من هنا ينبغي على الداعية أن يصبر على تحمل المشاق وما يلاقه من عنت في سبيل الدعوة ، فالأعداء كثر والمجاهدة مطلوبة لإحداث الأثر المطلوب في النفوس الطيبة التي تريد الخير وتقبل عليه .

فاصدع يا رسول الله ﷺ بما تؤمر لتحدث دعوتك تأثيراً وأعرض عن المشركين ، والاستعارة في الآية حيث شبه الجهر بالدعوة بالصدع والشرخ في الزجاج بجامع التأثير في كلا الطرفين وحذف المشبه ورمز له بشيء من لوازمه على طريق الاستعارة المكنية .

ومن لطائف العبارات القرآنية الحقيقية قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَنَسَمَاءَ أَقْلِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (هود : ٤٤) .

وقيل : يا أرض ابلعي ماءك ، إنه أمر فوجب التنفيذ ، ويا سماء

أَقْلَمِي : أَمْسِكِي عن المطر وغيض الماء : ذهب في أغوار الأرض ،
واستوت على الجودي : رست رسوّ استقرار على جبل الجودي بقرب
الموصل وقضي الأمر وانتهت المهمة .

وقيل : بعداً للقوم الظالمين ، بعداً لهم من الحياة فقد ذهبوا ،
بعداً لهم من الرحمة فقد لعنوا ، بعداً لهم من الذاكرة فقد انتهوا ، وما
عادوا يستحقون ذكراً ولا ذكرى .

وتهدأ العاصفة وينجلي الكرب ، ويخيم على الكون صمت رهيب
يمزق أسوار هذا الصمت أصوات تردد هنا وهناك لتلك العصابة التي
تشرفت بالرضا والقبول لتبدأ مسيرة جديدة وحياة جديدة .

ويروى أن أعرابياً سمع هذه الآية^(١) : ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي
مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي ﴾ ، فقال : هذا كلام القادرين ، لا يشبه كلام
المخلوقين .

وقد احتوت الآية على صور بيانية عدة فبين الأرض والسماء
طباق ، وبين أقْلَعِي وابلعي جناس غير تام ، وكلاهما من المحسنات
البدعية .

والله تعالى يقول عن النار : ﴿ إِذَا رَأَوْهُمْ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا
وَزَفِيرًا ﴾ (الفرقان : ١٢) . إنه مشهد يستجيش النفس ويوحى بالفزع
والخوف من هول ذلك المنظر ، مشهد النار المستعرة وقد دبّت فيها
الحياة فإذا هي تنظر فترى أولئك المكذّبين بالبعث والجزاء ، إنها تنظر
إليهم وتتوعدّهم وهي ساخطة متبرّمة غيظاً ، فإذا ما رمقتهم بدا التمعّر
عليها وتصاعدت الزفرات غيظاً منهم ، إنها لفي انتظارهم قد شاقها
رؤياهم ، إنها تزفر غيظاً وتتحرقّ نقمة وهم إليها في الطريق ، مشهد
رهيب ومنظر عجيب ولحظات انتظار يا لها من لحظات .

لقد خلق الله تعالى في النار إحساساً عداثياً للمجرمين لا يعرف
هذا الإحساس إلا خالقه . سبحانه وتعالى .

(١) صفوة التفاسير - للشيخ محمد علي الصابوني - الطبعة الأولى - تفسير سورة هود .

كما نرى في الآية ما يسمى بالتشخيص^(١) ، ونعني به خلع الحياة وتحسيمها على ما ليس من شأنه الحياة المجسمة من الأشياء والمعاني والحالات النفسية .

فهو فن في القرآن كثير الورود فيما يعرضه من الصور يبلغ من الجمال مستوى رفيعاً بما يبت من الحياة في الأشياء فتنفض شخصاً تأخذ من الأحياء وتعطي ، وتجاوبهم بالحس والحركة والحياة .
وقال تعالى : ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (يس : ٤٠) .

إنه لسباق بعيد الشوط وإنها لمنافسة بين كوكبين مسيرين بإرادة الخالق جل في علاه ، ولكن هذا السباق منتظم دقيق قد حددت أشواطه ورتبت معالمة .

﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ ﴾ : لا ينبغي أن يحدث هذا ، لأن هذا الجريان يترتب عليه نتائج وخلفيات ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ (يس : ٣٨ ، ٣٩) ، ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ .
أشواط قد حددت مساراتها واتجاهاتها ، وكل متسابق يجري إلى شوطه من غير أن يصطدم بسواه ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ .
وهكذا نرى هذه الظواهر الطبيعية أشياء تحس وتشعر بمشاعر لا يعرفها إلا خالقها جل في علاه كلها حركة وكلها حياة وذلك تصوير القرآن ، وهو الحق المشاهد الملموس .

وانظر إلى جمال الشمس في حركتها الدائبة في هذا الكون الفسيح وهي تشرق صباحاً وتنتقل في مسارها نحو الغروب ، والقمر وهو يضيء الكون بنوره الوضاء حتى يغيب . هذه الحالة كل منهما فيها يسير إلى شوطه .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ

(١) بتصرف من كتاب مشاهد القيامة في القرآن - لسيد قطب - الطبعة السابعة (١١٢) .

وَرَبَّتْ وَأَنْجَبَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ ﴿ (الحج : ٥) .

لقد استحالت الأرض الجامدة بعد أن كانت هامة خائرة القوى كالإنسان الذي أنهكه العطش ، فهو خائر القوى لا يبدي ولا يعيد .
فإذا ما نزل الماء عليها اهتزت حياة وتحركت لتخرج الحقائق الغناء والمروج الخضراء ، إنها لمسة واحدة في لفظة واحدة ، أضفت على الجماد حياة فهو يحس ويشعر ويتموج حركة ويضطرب (اهتزت وربت) بإحساس لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى .

ثم قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتِ وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾ (الحج : ٦ ، ٧) .

إنها صور محسوسة ملموسة نشاهدها ونتملاها في كل حين إن إحياء الأرض الموت بالمطر والماء فتورق وتنبت هو شأن البعث بعد الموت ﴿ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُخَيِّ الْمَوْتِ ﴾ (فصلت : ٣٩) .
وهكذا تتجلى عظمة الخالق جلّت قدرته في تقريب الأشياء الغائبة إلى الأذهان في صورة محسة نشاهدها ونلمسها ونراها في كل حين .
وفي قوله تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴾ (يس : ٣٧) .

إنها آية تدلّ على عظيم قدرة الله سبحانه الذي أتقن كل شيء صنعا ، فإن في تلاشي ضوء النهار وانحساره ليطل علينا الليل بظلامه لآية دالة على عظيم قدرة الله .

وهذه الصورة أشبه ما تكون بصورة الشاة وهي تسليخ حيث يكشط جلدها تدريجياً ، نفس العمل يحصل في قدوم الليل وانحسار مد النهار .

والأمر كذلك في انبجاس ضوء النهار بعد انسلاخ هذا الليل البهيم .

إنها صورة رائعة بجرسها وظلالها تصور الليل والنهار وهما في صراعهما الدائم عبر الدهور كل منهما يطارد الآخر فإذا اقترب وقت

انهزام أحدهما ولى مدبراً ليحل الآخر مكانه وهو يدب في بطنه وثبات حتى يستقر في مكانه .

وإجراء الاستعارة حيث شبه ضوء النهار وهو يتلاشى وينحسر عن الكون قليلاً قليلاً بسلخ جلد الشاة عن جسدها بجامع ظهور شيء بعد خفاء ، فبكشط الجلد يظهر اللحم ، وبغروب الشمس تظهر الظلمة وهذا ما يسمى بالتشخيص .

وهكذا تتجلى عظمة القرآن في أساليبه الاستعارية بما تجلى فيها من جلال ظاهر ، وروعة بادية ، وهي تنتقل في لطف ودقة بين أفنان الاستعارة ، مما يأخذ بأيدينا إلى الوقوف أمام صورة بيانية أخرى هي الكناية .

من صور الكناية في أسلوب القرآن الكريم

ومع توالي الصور البيانية في آي القرآن الكريم نجد الكناية كذلك تأخذ طريقها إلى النفوس بما لها من روعة وجلال في كتاب الله ، هذا قوله تعالى : ﴿ نَسَاؤُكُمْ حَرَّتْ لَكُمْ ﴾ (البقرة : ٢٢٣) .
إن هذه الكناية الفريدة عما انفرد به القرآن الكريم ، فهي لطيفة دقيقة مؤدبة مهذبة فيها من روعة التصوير وجمال التعبير وألوان الأدب والتهذيب ما لا يستقل به بيان ولا يدركه إلا من تذوق حلاوة القرآن .
إنها عبرت عن المعاشرة الزوجية التي من شأنها أن تتم في السر والخفاء (بالحرث) وهذا نوع من الأدب رفيع .
وهذا اللفظ فضلاً عما فيه من الأدب فهو وثيق الصلة بالمعاشرة الزوجية .

انظر إلى ذلك التشابه بين صلة الزارع بحرثه وصلة الزوج بزوجه في هذا المجال الخاص ، وبين ذلك النبت الذي يخرج به الحرث ، وذلك النبت الذي يخرج به الزوج وما في كليهما من تكثير وعمران وفلاح ، كل هذه الصور والمعاني تندرج تحت كلمة (الحرث)^(١) .
أليست هذه الكلمة معجزة بذاتها ، معجزة بنظمها وتصويرها .
هل في مفردات اللغة العربية على كثرتها ما يقوم مقامها ويؤدي ما أدته ، ويصور ما صورته أن المعنى لا يتحقق إلا بها وأن التصوير لا يوجد بسواها .

ومن الكنايات البديعة قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ (الإسراء : ٢٩) .
إنها صورة تشف عن نفسية ذلك البخيل الشحيح الذي لا تجود يده

(١) التصوير الفني في القرآن - سيد قطب - الطبعة الثامنة (٩١) .

والكناية : لفظ أريد لازم معناه نحو قولهم : (فلان طويل النجاد) أي : طويل القامة . وهكذا فالكناية : الدلالة على المعنى المقصود بطريق غير مباشر دون أن يخرج اللفظ عن معناه الحقيقي إلى معنى مجازي .

بعطاء ، فهو ممسك مقتّر حتى إن يده وكأنها قد غلّت إلى عنقه فهي لا تتحرك بسبب ، ولا تجود بعطاء .

أما الآخر فهو الذي أطلق لنفسه العنان في الاستجابة لأهوائه والانصياع لرغباته وتحقيق ملذاته ، فهو عاجز عن التدبير منطلق في تلبية رغبات نفسه .

وليت هذا الإسراف كان في وجه برّ حينئذ لا يكون إسرافاً لأنه مخلوف وثوابه حاصل حتى إذا نفذ ما لديه وأصبح خالي الوفاض ، بدأ يمدّ يده إلى الناس ليستدين ، وهنا يبدو (اللوم) ممن امتدت يده إليهم بالتأنيب والتقريع : لو اقتصدت ! لو أنك لم تتبع هواك ! لو اعتدلت في الإنفاق ! ولات ساعة مندم فتتعد ملوماً محسوراً .

وهكذا استطاعت الكناية القرآنية أن تنقل إلينا بجرسها وظلالها صورة متكررة وملموسة في هذا المجتمع : البخيل المقتّر الذي لا تجود نفسه بعطاء ، والمسرف الذي لا يبقى ولا يذر في أبلغ تصوير وأوجز تعبير ، فسبحانك من رب قدير .

ومن كنايات القرآن ما جاء في قوله تعالى : ﴿ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا ﴾ (الأعراف : ٢٢) .

فإن أبانا آدم وأمتنا حواء حينما أغراهما الشيطان ومناهما الأمانى في الخلد ومُلك لا يبلى ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَقَادُمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةٍ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى ﴾ (طه : ١٢٠) .

وقال لهما إبليس موسوساً : ﴿ مَا نَهَكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾ (الأعراف : ٢٠) ، فدلاهما بغرور فأكلا من الشجرة وعصيا أمر ربهما ، حينئذ استحقا العقاب فكان الجزاء من جنس العمل فبدأ يحصدان التناج ، وكان أوله الحرمان من ذلك النعيم المقيم المتمثل في الجنة ونعيمها الأبدي الوارف الظلال ، ومن هذا لباس الجنة حيث نزع عنهما فبدت لهما سوءاتهما فانطلقا يلتمسان السترة ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾ ، ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ ﴿ ثُمَّ أَجْبَنَهُ رَبُّهُ فَأَبَ

عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿طه : ١٢١ ، ١٢٢﴾ (١)

نعم هذه عقوبة البعد عن سبيل الله انكشاف من الرحمة انكشاف من الخير ، انكشاف من الستر ، ابتعاد عن طريق الخير والرشاد . . كما نرى آدم وهو يلوذ بمعصيته حتى من عليه ربه بالتوبة فاجتباها وهدى .

وفي قوله تعالى : ﴿ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ (المائدة : ٦) تعبير في قمة الأدب والذوق والحرص على مشاعر وأحاسيس المخاطبين .

إنه تعليم لنا في حسن استخدام التعابير الجميلة المهيبة دون الإخلال بالمعنى المطلوب ، وهذا هو الأسلوب الذي ينبغي أن يتحلّى به جيل القرآن في كل زمان ومكان .

فالآية هنا تريد أن ترشدنا إلى التشريع في حالة حصول (الجناحة) ، وهي تخاطب مجتمعاً قرآنياً ، ومن ثم فهي تريد أن ترقى بالنفس تأديباً وتعليماً وتهذيباً فكان أن استخدم الأسلوب المعجز . هنا طريقته البيانية الرائعة بوضع الحكم في أسلوب رائع أخاذ دون إسفاف أو ابتذال ، فلجأ إلى الكناية فقال : ﴿ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ كناية عن الغشيان ، قمة التصوير ، ودقة التعبير ، وهذه سمة من سمات هذا الدستور الخالد .

وقال تعالى : ﴿ الرَّبُّ تَعَالَى ءَايَتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ۝١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِדْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ (يونس : ١ ، ٢) .

أكان لأهل مكة عجباً إيجائنا إلى رجل منهم هو سيّد الخلق عليه الصلاة والسلام ﴿ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ ﴾ : خوّفهم ، ﴿ وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ﴾ : لهم سابقة ومنزلة رفيعة عند ربهم بما قدموا من صالح الأعمال .

قال الكافرون : إن هذا لساحر مبين ، فمع وضوح صدق الرسول ﷺ وإعجاز القرآن ، إلا أن المشركين في كل مكان وزمان دأبهم

(١) وإنما سميت العورة سواة ، لأن كشفها يسوء صاحبها . قال العلماء : في الآية دليل على أن كشف العورة من عظام الأمور ، وأنه مستهجن في الطباع ولذلك سميت سواة .

المكابرة والعناد ، وقد وقع الكافرون في اعتراف صريح بصدق القرآن ، وأنه معجز لهم ، وأنه خارق للعادة لأنه خارج عن حُدّ مألوفهم ، وما اعتادوا حتى قالوا : ﴿ إِن هَذَا لَسَاحِرٌ مِّبِينٌ ﴾ .

والكناية في الآية : في قوله تعالى : ﴿ قَدِمَ صَدَقٌ ﴾ : هي المنزلة الرفيعة العالية ، والعبارة غاية في البلاغة ، لأن بالقدم يكون السبق والتقدم ، كما سميت النعمة يداً لأنها تعطى بها .

وفي قوله تعالى : ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ بُيِّنَ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرِ أَنَّكَ يُؤْفَكُونَ ﴾ (المائدة : ٧٥) .

انظر إلى كمال الأدب والتعذيب الذي يليق بأدب القرآن فالآية تتحدث عن المسيح بن مريم عليه السلام ، وأمه ، وأنهما يأكلان الطعام . وفي هذا كناية عن أنهما كبقية البشر يأكلان الطعام ، ومن يأكل فإنه سيحدث كبقية الناس ويخرج منه الغائط .

ومن كان هذا شأنه فهو لا يصلح أن يكون إلهاً ، ألا ترى أن في التعبير بأكل الطعام أدباً ورقة تغنيك أن تسمع بأذنك : كانا يتبرزان أو يتبولان ، إنها تتجنب ما ينبو على الأذن سماعه .

وفي قوله تعالى : ﴿ فِيهِنَّ قَصِيرَاتٌ الْظُّرِفِ لَمْ يَطْمِئِنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا بَإَنٌ ﴾ (الرحمن : ٥٦) .

فأنت ترى في قصر الطرف تصويراً للمظهر المحسوس لخلعة العفة ، ولو أنه استخدم في غير القرآن عفيفات لما كان التصوير مؤثراً لهذه الدرجة ، ولا رسم أولئك الحور العين في تلك الهيئة الراضية القانعة التي لا يطمحن فيها إلى غير أزواجهن ولا يفكرون في غيرهم .

هذه كناية القرآن تنقل المعنى وافياً وفي لفظ قليل .

وهكذا يمتلئ الأسلوب القرآني بألوان من الصور التي تموج بالحركة وتنبض بالحياة ، إنها تكاد من حسناتها تتكلم لتبوح عما يعتلج بها من جمال أسر أخاذ ، تكاد اليد تقع عليه والنفس تلابسه وتلامسه تشبهاً ، واستعارة ، وكناية .

ذلك هو أسلوب القرآن وهو يرسم لنا المنهج الذي ينبغي أن يحتذى
لتحقق لنا السعادة الأبدية في ظلّ جوّ روحانيّ تسوده الهداية الربّانية ،
وتكتنفه العناية الإلهية نحو الخلود المقيم ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي
مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِندَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ (القمر : ٥٤ ، ٥٥) .

وبعد ، فهذه أنماط وصور من أساليب البيان في القرآن الكريم ،
وهي غيضة من فيض وقطرة من بحر ، بيد أنها جهد المقل ، الذي أسعده
تأمله ملياً في عجائب هذه الأساليب ، واستلهم روائع البيان القرآني التي لا
تنفذ ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا
بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ (الكهف : ١٠٩) .

١١

الباب الرابع

الأسلوب القرآني بين حقائق الإعجاز وشبه المبطلين

الفصل الأول :

شبهات حول أسلوب التكرار في القرآن الكريم

الفصل الثاني :

حول أسلوب القصة في القرآن الكريم

الفصل الثالث :

أباطيل القائلين بالإعجاز بالصرفة في أسلوب

القرآن الكريم والردّ عليهم

الفصل الرابع :

أباطيل القائلين بإمكانية المعارضة في أسلوب القرآن

الكريم مع الردّ عليهم والمستشرقون والقرآن مع الردّ

عليهم في افتراءاتهم .

الفصل الأول

شبهات حول أسلوب التكرار في القرآن الكريم

ظاهرة التكرار في آيات القرآن الكريم

نجد القرآن الكريم وهو يتحدثنا عن مناحي الحياة المختلفة نجده يكرر لنا بعض آياته ، وبعض ألفاظه ، وبعض عباراته ، وبعض قصصه . وهذا التكرار يعدّ لونا من ألوان إعجازه ، وقد لاحظ ذلك الأقدمون .

يقول الجاحظ : « ورأينا الله تبارك وتعالى إذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي والحذف ، وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكى عنهم جعله مبسوطاً وزاد في الكلام »^(١) .

وقد فند العلماء قول الجاحظ هذا وارتأوا أنه يحسن من وجهه ويقبح من وجه آخر ذلك أن العرب حينما كانوا قوماً مطبوعين على الفصاحة ومفطورين على البيان ، لم يكن هناك داع إلى بسط القول لهم ، بل يكفي فيه إخراج مخرج الإشارة واللمحة الخاطفة .

وهذا قول حسن . .

وأما ما ذهب إليه الجاحظ من زيادة الكلام عند حديث القرآن عن بني إسرائيل فذلك قول مردود ، ذلك أن الأمر يقتضي وجود الحشو في القرآن ، ولا نعتقد بأن الجاحظ قد قصد الحشو بل ربما أراد البسط والإطناب .

ويردّ الرافعي في كتابه « إعجاز القرآن » نفس ما قاله الجاحظ في مسألة الإيجاز في مخاطبة العرب ، والبسط والإطناب والتكرار في مخاطبة غيرهم .

يقول : « في مسألة عدم التكرار مع الإيجاز عند خطاب العرب ، والتكرار مع الإطناب عند خطاب اليهود . .

وما يمكن أن يهتدي إلى هذا الوجه بليغ عربي من بلغاء ذلك العهد إلا بوحي وتوفيق من الله ، فإنه في الحقيقة سرّ من أسرار الأدب العبراني

(١) الحيوان - لابي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ - الجزء الأول - (٤٦) .

جری القرآن علیہ فی أكثر خطابہم خاصة ، لیعلموا أنه وضع غیر إنسانی ولیحسّوا معنی من معانی إعجازه فیما هم بسبیلہ ، كما أحس العرب فیما هو من أمرهم .

إذ كان أبلغ البلاغة فی الشعر العبرانی القديم أن تجتمع له : رشاقة العبارة وحسن العرض ، ووضوح اللفظ ، وفصاحة التركيب ، وإبانة المعنی ، وتكرار الكلام لكل ما یفیده التكرار توكیداً ومبالغة وإبانة وتحقیقاً ونحوها ، ثم استعمال الترادف فی اللفظ والمعنی ، ومقابلة الأضداد وغيرها ، مما هو فی نفسه تكرار آخر للمحسنات اللفظیة ، وتحسين للتكرار المعنوي ^(١) .

والذي یمعن النظر فیما أشار إلیه الرافعی فی كلامه هذا یجده لا یسلم من بعض الأخطاء ، من هذا : قول الرافعی : إن أسلوب التكرار فی القرآن سرٌّ من أسرار الأدب العبرانی ، ومن الذي یسلم بمثل هذا الكلام . والعرب قد أحسوا فصاحة هذا القول وعلموا أنه حتی وهو فی تكراره لم یخل من فائدة ولم یخل من إعجاز ، والقرآن معجز .

والتحدی لا یكون إلا بما هو معلوم فی بیئة العرب وقد ألفوه ، وأشعارهم غنیة بهذا اللون حتی المنشور من كلامهم ، ولو لم یكن سائغاً لديهم ، فكیف تذوقوه وعرفوا براعة هذا القول ؟ ولا یخفی علینا فی هذا المقام كلام مسیلمة الكذاب ، وهو العربی ، وما فیہ من تكرار .

ثانیاً : لا یمكن أن یسلم بهذا القول من لدیه أدنی اطلاع علی أسالیب العرب الذين اشتهروا بالفصاحة واللسن ، فهل اليهود الذين هم أبعد ما یكونون عن الفصاحة ، وأبعد عن العربیة وأسرار العربیة من العرب والأعراب ؟

هل یمكن أن یكون اطلاعهم علی أسالیب القرآن كاطلاع العرب ، أم هل یمكن وصفهم بأنهم أقدر علی فهم أسرار التكرار فی القرآن من أهله

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبویة - لمصطفى صادق الرافعی - الطبعة الثامنة (١٩٥) / (١٩٦) .

الذين نزل بلسانهم وفاقد الشيء لا يعطيه ؟

ثم نجد الرافعي يناقض نفسه بعد ذلك ، فبعد أن أثبت التكرار وأنه سر من أسرار الأدب العبراني يعود فيقول :

« وهو مذهب للعرب معروف ولكنهم لا يذهبون إليه إلا في ضروب من خطابهم : للتهويل ، والتوكيد ، والتخويف ، والتفجع وما يجري مجراها من الأمور العظيمة .

وكل ذلك مأثور عنهم منصوص عليه في كثير من كتب الأدب والبلاغة بيد أن وروده في القرآن مما حقق للعرب عجزهم عن معارضته وأنهم يخلون عنه لقوة غريبة فيه لم يكونوا يعرفونها إلا توهاً ولضعف غريب في أنفسهم لم يعرفوه إلا بهذه القوة »^(١) .

وإذا كان من تعليق على كلام الرافعي فيني أقول : بأن العرب وهم أمراء الفصاحة وفرسان البيان ، وهم أدرى الناس بالقرآن وما فيه من إعجاز ، وليسوا بحاجة لمن يفسر لهم القول ، وقد كان الذكاء والفهم طبيعة لهم ، فهم قد فهموا القرآن بعد أن تأملوه ، وتذوقوا إعجازه بعد أن سبروه ، فعلموا بأن التكرار مظهر من مظاهر إعجازه فأذعنوا له ووقفوا عند حدهم فيه .

وليس الأمر كما قيل من أنه سر من أسرار الأدب العبراني ، كما اتضح لنا في تراث القوم .

الأمر الثاني نجد القرآن وهو يخاطب الكفار من قريش وهم أرباب الفصاحة والبيان يبسط القول فيقول تعالى : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَوَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ بَلٌ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾^(١) أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَوَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ بَلٌ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾^(٢) أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُمْ خُلَفَاءَ أَلْفَهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا نَذْكُرُونَ ﴾^(٣) أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيْحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَوَلَمْ يَكُنْ

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية - لمصطفى صادق الرافعي - الطبعة الثامنة (١٩٤) .

مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ
السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٥﴾ (النمل :
٦٠ ، ٦٤) .

وهذه الآيات لا يمكن أن تكون خطاباً لليهود وحدهم ، بل لا بد أن
يكون الخطاب فيها للعرب ، والكلام هنا ليس باللمح والإشارة بل هو
بالصريح وبسط العبارة ، وإذا كان فيه شيء من التكرار فهو تكرر في
موضعه .

لأن التوجيه إلى النظر فيما تحت أيديهم هو في حد ذاته مقدمة لنتيجة
هي الوجدانية للمعبود ، وما دامت وجدانية الخالق قد ثبتت بهذا الكلام ،
فكان لا بد أن تذكر النتيجة أمام كل مقدمة لأنها وحدها دليل ، ولو لم تذكر
النتيجة أمام كل مقدمة لكانت النتيجة ثمرة لمجموعها مع أن كل واحدة منها
صالحة لأن تكون الوجدانية نتيجة لها دون أن تنضم مع غيرها^(١) .

وفي الإيجاز أو الإطناب في القرآن هو مجازاة لما يقتضيه السياق ،
ومقتضى الحال إذ أن مراعاة مقتضى الحال هي مهمة علم المعاني .

ويلاحظ أن مقام الاستدلال على الوجدانية من المواضع التي يحسن
فيها الإطناب وقل مثلها في الآيات التي تتحدث عن المنن وتستوجب شكر
المنعم كما في سورة الرحمن .

ويشرح الإمام الزركشي - رحمه الله - فوائد التكرار على ما يلي :
التأكيد يقول : « وعلم أن التكرار أبلغ من التأكيد لأنه وقع في تكرار
التأسيس وهو أبلغ من التأكيد ، فإن التأكيد يقرر إرادة معنى الأول وعدم
التجوز » .

فلهذا قال الزمخشري في قوله تعالى : ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾^(٢) ثُمَّ كَلَّا
سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿ (التكاثر : ٣ ، ٤) ﴾ إن الثانية تأسيس لا تأكيد ، لأنه جعل
الثانية أبلغ في الإنشاء ، فقال : وفي (ثم) تنبيه على أن الإنذار الثاني أبلغ
من الأول ، وقد قيل : الكلام إذا تكرر تقرر .

الثاني : زيادة التنبيه على ما ينفي التهمة ليكمل تلقي الكلام بالقبول

(١) بتصرف من كتاب المعجزة الكبرى القرآن - لمحمد أبو زهرة - (١٦٠) - الناشر دار

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنَ يَتَقَوَّمُ انَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ
الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَتَقَوَّمُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا مَتَّعُ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿
(غافر : ٣٨ ، ٣٩) .

فإنه كرر فيه النداء لذلك .

الثالث : إذا طال الكلام وخشي تناسي الأول أعيد الثاني تطرية له
وتجديداً لعهدده ، كقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ
تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿ (النحل : ١١٩) .
وقوله تعالى : ﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي
سَاجِدِينَ ﴿ (يوسف : ٤) .

الرابع : في مقام التعظيم والتهويل كقوله تعالى : ﴿ الْحَاقَّةُ ﴿١﴾
الْحَاقَّةُ ﴿ (الحاقة : ١ ، ٢) .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿
(القدر : ١ ، ٢) .

الخامس : في مقام التهديد والوعيد كقوله تعالى : ﴿ كَلَّا سَوْفَ
تَعْلَمُونَ ﴿٢﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿ (التكاثر : ٣ ، ٤) .

وذكر (ثم) في المكرر دلالة على أن الإنذار الثاني أبلغ من الأول ،
وفيه تنبيه على تكرار ذلك مرة بعد أخرى ، وإن تعاقبت عليه الأزمنة لا
يتطرق إليه تغيير بل هو مستمر دائماً .

السادس : التعجب كقوله تعالى : ﴿ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَرٌ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَرٌ ﴿
(المذثر : ١٩ ، ٢٠) .

فأعيد تعجباً من تقديره وإصابته الغرض ، على حد : قاتله الله ما
أشجعه !

السابع : تعدد المتعلق كما في قوله تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالٍ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿ (الرحمن : ١٣) .

فإنها وإن تعددت ، فكل واحد منها متعلق بما قبله وإن الله سبحانه
خاطب بها الثقلين من الإنس والجن ، وعدد عليهم نعمه التي خلقها لهم ،
فكلما ذكر فصلاً من فصول النعم طلب إقرارهم واقتضاهم الشكر عليه ،

وهي أنواع مختلفة وصور شتى .
 فإن قيل : فإذا كان المعنى في تكريرها عدّ النعم واقتضاء الشكر
 عليها ، فما معنى قوله تعالى : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْصِرَانِ ﴾
 (الرحمن : ٣٥) .

وأَيّ نعمة هنا ؟ وإنما هو وعيد !
 قيل : إن الله فيما أنذر به وحذر من عقوباته على معاصيه ليحذروها
 فيرتدعوا عنها نظير أنعمه على ما وعده وبشر من ثوابه على طاعته ليرغبوا
 فيها ويحرصوا عليها وإنما تتحقق معرفة الشيء بأن تعتبر بضده ^(١) .
 ويقسم الإمام ابن قيم الجوزية - رحمه الله - ^(٢) التكرار في كتابه
 الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان ، إلى ثلاثة أقسام :
 ما يتكرر لفظه ومعناه متحد كقوله تعالى : ﴿ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَرْنَا ۖ ثُمَّ قِيلَ
 كَيْفَ قَدَرْنَا ﴾ (المدثر : ١٩ ، ٢٠) .

وما تكرر لفظه ومعناه مختلف كقوله تعالى : ﴿ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ
 بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ۖ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾
 (الأنفال : ٧ ، ٨) .

فإن المقصود بقوله : ﴿ يَحِقُّ الْحَقُّ ﴾ : بيان إرادته ، ويقول :
 ﴿ لِيُحِقَّ الْحَقَّ ﴾ ، الثانية : لقطع دابر الكافرين ونصر المؤمنين عليهم .
 وأما ما تكرر معنى لا لفظاً ، فهو إما أن يكون بين المعنيين مخالفة
 (ما) أو لا يكون كذلك .

والذي يكون بينهما مخالفة إما أن يكون أحدهما أعم ، أو لا يكون

(١) البرهان في علوم القرآن - للإمام الزركشي - الطبعة الثانية الجزء الثالث (١١) .

فائدة : وعن تكرار قوله تعالى في سورة الرحمن ﴿ فَبَآئِيَ آلَاءُ رَبِّكُمَا تَكْذِبَانِ ؟ ﴾
 يقول الإمام الكرمانى : جاءت آية واحدة في هذه السورة كررت نيقاً وثلاثين مرة ،
 لأن ست عشرة راجعة إلى الجنان ، لأن لها ثمانية أبواب ، وأربعة عشر منها
 راجعة إلى النعم والنقم ، فأعظم النقم جهنم ، ولها سبعة أبواب ، وجاءت سبعة
 في مقابلة تلك الأبواب وسبعة عقب كل نعمة ذكرها للثقلين .

(٢) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان - لابن قيم الجوزية - الطبعة الأولى
 (١٦٣) .

كذلك . فمثال ما كان بين المعنيين مخالفة وأحدهما أعم : قوله تعالى : ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران : ١٠٤) . فإن الدعوى إلى الخير أعم من الأمر بالمعروف .

وأما الذي لا يكون بين المعنيين مخالفة كقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (التغابن : ١٤) . وقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَعْيٍ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْكُمْ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ (البقرة : ١٩٦) .

هذا ومن التكرار الذي سيق مساق التنبيه إذا طال الكلام واحترس من تناسي الأول أعيد الكلام وكرر ثانية تطرية للأول وتجديداً لعهدده ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوْءَ بِجَهَلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (النحل : ١١٩) . وقوله سبحانه : ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (آل عمران : ١٨٨) .

ويستوقفنا في هذا اللون من التكرار ضياء الدين بن الأثير معترضاً يقول : « وهذه الآيات يظن أنها من باب التكرير ، وليست كذلك ، وقد أنعمت نظري فرأيتها خارجة عن حكم التكرير . . وذلك أنه أطال الفصل من الكلام ، وكان أوله يفتقر إلى تمام لا يفهم إلا به ، فالأولى في باب الفصاحة أن يعاد لفظ الأول مرة ثانية ليكون مقارناً لتمام الفصل ، كي لا يجيء الكلام منشوراً ، لا سيما في (إن وأخواتها) فإذا وردت (إن) وكان بين اسمها وخبرها فسحة طويلة من الكلام ، فإعادة (إن) أحسن في حكم البلاغة والفصاحة .

كالذي تقدم من هذه الآيات وعليه ورد قول بعضهم من شعراء

الحماسة :

أَسْجَنُاً وَقَيْدَاً وَاشْتِيَاقَاً وَغُرْبَةً وَنَأْيَ حَبِيبٍ إِنَّ ذَا لِعَظِيمٍ
وَأَنَّ أَمْرًا دَامَتْ مَوَاتِيقُ عَهْدِهِ عَلَى مِثْلِ هَذَا إِنَّهُ لَكَرِيمٍ

فإنه لما طال الكلام بين اسم إن وخبرها أعيدت (إن) مرة ثانية ، لأن تقدير الكلام : وإن امرأ دامت موثيق عهده على مثل هذا لكريم . . لكن بين الاسم والخبر مدى طويل .

فإذا لم تعد (إن) مرة ثانية لم يأت على الكلام بهجة ولا رونق ، وهذا لا يتنبه لاستعماله إلا الفصحاء إما طبعاً وإما علماً^(١) .

هذا وقد علق الزمخشري على التكرير القرآني فقال : « مذهب كل تكرير جاء في القرآن فمطلوب به تمكين المكرّر في النفوس وتقريره »^(٢) .

ويسوق الزمخشري من ضروب التكرار ما يكون للتحضيض ، مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُ كَذُوقٍ فَضَّلِ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ (غافر : ٦١) .

فإن قلت : فلو قيل : ولكن أكثرهم ، فلا يتكرر ذكر الناس ؟ قلت : في هذا التكرير تخصيص لكفران النعمة بهم وأنهم هم الذين يكفرون فضل الله ولا يشكرونه .

كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ (العاديات : ٦) ، ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴾ (الحج : ٦٦) ، ﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُ كَذُوقٍ فَضَّلِ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ (إبراهيم : ٣٤) .

ومنه التكرار للتهجين : ﴿ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُخْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر - لابن الأثير - تحقيق : د . أحمد الحوفي ، ود . بدوي طبانة - الطبعة الأولى (١٣٨١ هـ / ١٩٦٢ م) (١٧ - ١٨) الجزء الثالث .

وابن الأثير هو أبو الفتح نصر الله بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري والملقب بضياء الدين من مواليد جزيرة ابن عمر ٥٥٨ هـ من شهر شعبان وتوفي سنة ٦٣٧ هـ في جهادى الأولى ببغداد ودفن بمقابر قریش في الجانب الغربي بمشهد موسى بن جعفر .

ولضياء الدين أخوان ناهيان : مجد الدين أبو السعادات المبارك ، وأبو الحسب علي الملقب عز الدين ، وكان الإخوة الثلاثة فضلاء نجباء رؤساء لكل واحد منهم تصانيف نافعة ، رحمهم الله تعالى .

(٢) منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه - د . مصطفى الصاوي الجويني الطبعة الثانية (٢٢٨) .

السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿ (القصص : ٨٤) .

في إسناد عمل السيئة إليهم مكرراً فضلاً تهجين لحالهم ، وزيادة تبغيض للسيئة إلى قلوب السامعين . ونفس المعنى في الآية :

﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ (البقرة : ٥٩) .

ومنه التكرير للتهويل كقوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادِ قَوْمِ هُودٍ ﴾ (هود : ٦٠) .

(وألا) وتكرارها مع النداء على كفرهم والدعاء عليهم تهويل لأمرهم وتفضيع له ، وبعث على الاعتبار بهم والحذر من مثل حالهم .

ومن التكرير ما جاء لدفع الوهم كقوله تعالى : ﴿ وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُتْرِثُ الْأَكْثَمَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخِي الْمَوْقُ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنْتِشِكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران : ٤٩) .

وكرر بإذن الله دفعا لوهم من توهم فيه اللاهوتية .
ومنه التكرير للتمييز ، كقوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (البقرة : ٥) .

وفي تكرير أولئك التنبيه على أنهم كما ثبت لهم الأثرة بالهدى فهي ثابتة لهم بالفلاح .

ومنه التكرير للدعاء ، كقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَوْمَ الْيَوْمِ الْأَخِيرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (البقرة : ٨) .

وفي تكرير الباء أنهم ادعوا كل واحد من الإيمانيين على صفة الصحة والاستحكام وليس الأمر كذلك .

هذا ويرى الزخشي أن التكرير في بنية الألفاظ وجرسها الصوتي تكرير للمعنى أيضاً ، يقول تعالى في الآية : ﴿ فَكُفِّرُوا بِنِهَا هُمْ وَالْفَاوَنَ ۖ ﴾ (الشعراء : ٩٤ ، ٩٥) .

والكبيكة : تكرير الكب ، جعل التكرير في اللفظ دليلاً على

التكرير في المعنى ، كأنه إذا ألقى في جهنم ينكب مرة بعد مرة حتى يستقر في قعرها^(١) .

هذا وقد يكون من دواعي التكرار ما جاء في الأسلوب القرآني على سبيل الابتغال والتضرع وهو تعليم للمؤمن كيف يتجه إلى ربه ويدعوه .
كما في قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (البقرة : ٢٨٦) .

ومثل قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَنِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاثِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ (آل عمران : ١٩١ ، ١٩٤) .

وهكذا نجد كلمة (ربنا) قد تكررت في الآيات السابقة بقصد الابتغال والتضرع إلى المولى عز وجل قصد الاستجابة ونوال المقصود ، وهو السميع المجيب .

ومن التكرار ما يجيء لإفادة الحسم في الأمر ، ووضع حدٍ ينتهي إليه فيه كما في سورة الكافرون : ﴿ قُلْ يَتَأْتِيهَا الْكُفْرُوتُ ﴾ (١) ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ (٢) ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ (٣) ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ﴾ (٤) ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ (٥) ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ (الكافرون : ١ ، ٦) .

روي أن رهطاً من قريش قالوا : يا محمد ، هلم فاتبع ديننا ونتبع دينك ، تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة ، قال : معاذ الله أن أشرك بالله غيره .

فقالوا : فاستلم بعض آلهتنا نصدقك ونعبد إلهك . . فنزلت السورة حسماً لهذا الأمر ، فغدا رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام وفيه الملائكة من قريش ، فقام على رؤوسهم فقرأها عليهم . . فأيسوا .

(١) الكشف - للزمخشري - الجزء الثاني - (١٢٧) .

كما يوحى التكرار في هذه السورة باليأس الذي يدخل قلوب الكافرين من أن ينصرف الرسول عن دينه إلى ما كان يعبد هؤلاء الكفرة فليتدبروا أمرهم بينهم ملياً ليروا سر هذا الإصرار من محمد ﷺ فعساهم يدركون هذا السر ، هو أن الرسول ﷺ على حق فيما يدعو إليه ، فلم ينصرف عنه إلى أديان لا سند لها من الصواب والحق .

ويقول الإمام الباقلاني رحمه الله : « ومن البديع عندهم - أي : العرب - ^(١) : التكرار ، ثم يقول في سورة الكافرين : وهذا فيه - أي : التكرار - في هذه السورة معنى زائد (لأنه يفيد الإخبار عن الغيب) » .

يحكى أن بعض الزنادقة سأل الحسن بن علي السبط رضي الله عنهما ، فقال : إني أجد في القرآن تكراراً ، وذكر له سورة (الكافرون) ، فأجابه بما حاصله أن الكفار قالوا : نعبد إلهك شهراً ، وتعبد آلهتنا شهراً ، فجاء النفي متوجّهاً إلى ذلك . والمقصود أن هذه ليست من التكرار في شيء ، بل هي بالحذف والاختصار أليق .

وذلك لأن قوله تعالى : ﴿ لا أعبدُ ما تعبدون ﴾ ، أي : لا أعبد في المستقبل ما تعبدون في المستقبل . وقوله : ﴿ ولا أنا عابد ما عبدتم ﴾ أي : ولا أنا عابد في الحال ما عبدتم في المستقبل . وقوله تعالى : ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ أي : ولا أنتم عابدون في الحال ما أعبد في المستقبل . والحاصل أن القصد نفي عبادته لآلهتهم في الأزمنة الثلاث الحال ، والماضي ، والمستقبل .

والمذكور في الآية النفي في الحال والاستقبال ، وحذف الماضي من جهته ومن جهتهم ، ولا بدّ من نفيه ، لكنه حذف لدلالة الأولين عليه . وفيه توجيه آخر : وهو أن الجملة الأولى فعلية ، والثانية اسمية ، وقولك : (لا أفعله) ، (ولا أنا فاعله) أحسن من قولك : (لا أفعله) ^(٢) ، (ولا أفعله) ، فالجملة الفعلية نفي لإمكانه ، والاسمية نفي لاتصافه ، والمعنى أنه تبرأ من فعله ومن الاتصاف به ، وهو أبلغ في النفي .

(١) إعجاز القرآن - للإمام الباقلاني - الطبعة الثالثة - (١٠٦) .

(٢) البرهان في علوم القرآن - للزركشي - الجزء الثالث - الطبعة الثانية (٢١) .

وأما المشركون فلم ينتف عنهم إلا بصيغة واحدة وهي قوله تعالى : ﴿ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ في الموضعين .

ومنه تكرير الأمر بالتوجه إلى البيت الحرام في ثلاث آيات من سورة البقرة ، لأن المنكرين لتحويل القبلة كانوا ثلاثة أصناف من الناس : اليهود ، لأنهم لا يقولون بالنسخ في أصل مذهبهم ، وأهل النفاق أشد إنكاراً له ، لأنه كان أول نسخ نزل ، وكفار قريش قالوا : ندم محمد على فراق ديننا ، فيرجع إليه كما رجع إلى قبلتنا ، وكانوا قبل ذلك يحتجون عليه .

فيقولون : يزعم محمد أنه يدعونا إلى ملة إبراهيم وإسماعيل (١) ، وقد فارق قبلتهما وأثر عليها قبله اليهود . وقال الله تعالى حين أمره بالصلاة إلى الكعبة : ﴿ إِنَّمَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ (البقرة : ١٥٠) ، والاستثناء منقطع أي : لكن الذين ظلموا منهم لا يرجعون ولا يهتدون ، وقال سبحانه : ﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ (البقرة : ١٤٧) أي : الذين أشركوا فلا تتر في ذلك .

وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة : ١٤٦) أي يكتُمون ما علموا أن الكعبة هي قبله الأنبياء .

وقد يؤكد القرآن أمراً هو من البدهة بمكان ، لأنه يرمي من وراء ذلك إلى هدف سام تبيته النفس عندما تتدبر أمر هذا التوكيد .

لترى ما موقعه ؟ ولم كان ؟ وتأمل قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَعِيتُونَ ﴾ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ (المؤمنون : ١٥ ، ١٦) . فلما كان تماديهم في الضلال يصرفهم عن التفكير المستقيم المؤدي إلى الإيمان بالله ورسله واليوم الآخر .

وكانت هذه الغفلة تلفتهم عن التفكير في مصيرهم فكأنهم مخلصون لا يصيبهم موت ولا فناء ، أكد نزول الموت بهم تأكيداً ليفكروا فيه وفيما يتطلبه نزوله بهم من عمل صالح ينفعهم بعد هذا الموت .

(١) المرجع السابق ص (٢٢) .

وهكذا نجد التكرار القرآني إنما يكون من أجل أن يؤكد أمراً أو يحدث فائدة في موضع خلت عنه في موضع آخر .
كما أنه من الواضح ما يؤديه هذا التكرار من دور بالغ من أجل الوصول إلى الحق المنشود وتحقيق الخير الذي نزلت به آيات الله المحكمات .
ومن ثم كانت الهداية القرآنية غاية وسيلتها هذا الإحكام العظيم في وسائل البيان .

ظاهرة التكرار في قصص القرآن الكريم

هذا ولا يخفى ما في التكرار من أثر ملموس في التأثير على الجماعات والأفراد .

« فإذا ما تكرر الشيء رسخ في الأذهان رسوخاً تنتهي بقبوله حقيقة ساطعة ، والسبب في ذلك كون المكرر ينطبع في تجايف الملكات اللاشعورية التي تختمر فيها أسباب أفعال الإنسان ، فإذا انقضى شطر من الزمن نسي الواحد منا صاحب التكرار وانتهى بتصديق المكرر »^(١) .

من هنا نعلم أن التكرار القصصي في القرآن الكريم لم يخل من فائدة شأن هذا الكتاب المعجز في كل أساليبه ، وفي كل ما رمى إليه .
وإذا تأملنا في قصة إبراهيم أو موسى ، عليهما السلام ، نجد هاتين القصتين قد تكررتا في القرآن كثيراً ، قصة موسى ما يقرب من مائة وعشرين مرة .

وهي وإن تكررت في مواطن كثيرة في القرآن إلا أنها تشير إلى غاية واحدة حيث أنها تمثل الصراع بين الحق والباطل ، وعلى هذا فإن التكرار يشتب هذا الصراع ، ويؤكد نهاية الظلم ، وبذلك ترسخ هذه الغاية في النفس فتكون أدعى إلى التصديق والامثال .

وفي هذا ما فيه من إيقاظ الهمم ودفع العقول والنفوس إلى التأمل والتدبر ففرق كبير بين الشيء الذي يحكى مرة وبين الشيء الذي يكثر تكراره ، ففي الثاني استشعار أقوى من الأول ، وتعليم للإنسان تقوى فيه الدلالة والمحاكاة .

على أن الأمر العظيم الذي له بال خطير يستأهل التكرار ، أما الشيء العارض فإن تكراره قد يكون ثقيلاً على السمع بغيضاً إلى النفس ، فإنه لا يستأهل المعاودة ، أما الأشياء الجسيمة ذات البال ، كقصص القرآن التي كلها عظة وعبرة وأحداث من أنباء الغيب فما أحوج البشرية إلى معرفتها

(١) روح الاجتماع - د . جوستاف لوبون - ترجمة الاستاذ / أحمد فتحي زغلول .

والوصول إلى مراميها ، وعلى هذا فتكرارها أمر يطابق مقتضى الحال إذ أن الطبيعة البشرية تميل إلى أن يعاد الشيء الذي يحنّ الإنسان إليه ويرغب في معرفته ، وخصوصاً أن هذه الأمور مرتبطة تماماً بالعقيدة وبالسلوك الإسلامي الصحيح .

هذا ولا يحسن التكرار إلا إذا أفاد معنى جديداً وإلا كان هراء وغثاء وقبحاً .

من هنا يقول ابن سنان الخفاجي : « إن التكرار منه ما يستحسن ومنه ما يستقبح ، فالتكرار لا يكون قبيحاً إذا كان المعنى المقصود لا يتم إلا به »^(١) .

من هنا يستبين لنا أن التكرار في القصة القرآنية يفصح عن روعة القرآن وكمال إعجازه ، وقوة عرضه .

وأن هذا التكرار أمر يطلبه المعنى ومقتضى الحال يدعو إليه .
ومن ثم كان التكرار في القصة القرآنية بل في شتى آيات الكتاب العزيز التي كررت حسناً كله تقبله النفوس وتهفو إليه .

« وهذا التكرار في القصة القرآنية ليس تكراراً مطلقاً ، وإنما هو تكرار نسبي ، بمعنى أن الغرض الديني هو الذي يملي إعادة القصة ، ولكنها في هذه الإعادة تلبس أسلوباً جديداً ، وتخرج إخراجاً جديداً يناسب السياق الذي وردت فيه ، وتهدف إلى هدف خاص لم يذكر في مكان آخر ، لكأننا أمام قصة جديدة لم نسمع بها من قبل »^(٢) .

على أن العجيب في الأمر واللافت للنظر فعلاً في القصص القرآني أنها إذا تعرضت لمعنى من المعاني في موضع ثم تحدثت عن القصة في موضع آخر فإنها لا تذكر ذلك المعنى فحسب ، بل ربما تأتي بمعنى جديد لم يكن قد ذكر في القصة من قبل في الموضع الأول ، وهذه سمة غالبية على القصص القرآني فقصة إبراهيم جاءت في سورة البقرة في إطار الحديث عن رفع البيت قال

(١) سِرّ الفصاحة - لابن سنان الخفاجي - تحقيق : د . عبد الرازق أبو زيد (١٣٨) طبعة

١٩٧٦ م .

(٢) التعبير الفني في القرآن - د . بكري شيخ أمين - الطبعة الثالثة - (٢٢٠) .

تعالى : ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (البقرة : ١٢٧) .

وفي سورة إبراهيم حديث عن موضوع إسكان ذرية إبراهيم عليه السلام . قال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ۖ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّونَ كَثِيرًا ۖ مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ يَتَّبِعُنِي فَإِنَّهُمْ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۖ رَبَّنَا إِنِّي أَتَّكَلْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (إبراهيم : ٣٥ ، ٣٧) .

وفي سورة الأنعام حديث عن موضوع تأمل إبراهيم للملكوت السماء والأرض . قال تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ۖ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ۖ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ۖ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُغْوِي إِنِّي بِرِئٍ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۖ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ خَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام : ٧٥ - ٧٩) .

وفي سورة مريم نجاهه عن جانب محاورة إبراهيم لأبيه : ﴿وَأذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ كَانَ صَادِقًا نَبِيًّا ۖ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَأْتِبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ۖ يَأْتِبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ۖ يَأْتِبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ۖ يَأْتِبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ۖ قَالَ أَرَأَيْتُ أَنْتَ عَنِ الْهَيْئَةِ يَأْتِبْرَاهِيمُ لَيْنَ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا ۖ قَالَ سَلِمْتُ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ۖ﴾ (١) (مريم : ٤١ ، ٤٧) .

(١) يرى الشيخ محمد متولي الشعراوي أن آزر لم يكن أباً للخليل عليه السلام ، وإنما هو عمه ، ويريد أن يصل من وراء هذا إلى أن الخليل عليه السلام وهو جد النبي ﷺ ، والنبي ﷺ قد تنقل في الأصلاب الطاهرة ، فمن هنا لا يكون آزر الكافر أباً لإبراهيم عليه السلام .

ويقول فضيلته : إن مثل هذا الأسلوب شائع عند العرب ألا ترى قوله تعالى =

وفي سورة الأنبياء حديث عن جانب تحطيم الأصنام . قال تعالى : ﴿ وَنَالَهُ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولَّوْا مُدْبِرِينَ ۝٥٧ فَجَعَلَهُمْ جُذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ۝٥٨ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُمْ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ۝٥٩ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ۝٦٠ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ۝٦١ قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ۝٦٢ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْتَخْلَوْهُمْ إِنْ كَانُوا يَطْقُونَ ۝٦٣ (الأنبياء : ٥٧ ، ٦٣) .

وفي سورة الشعراء حديث عن موضوع إسناد الخلق والرزق إلى المتصرف سبحانه : ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ۝٨١ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ۝ (الشعراء : ٧٨ ، ٨٢) .

وفي سورة الصافات حديث عن الرؤيا المنامية ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ۝١٠١ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَئُ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ۝١٠٢ قَالَ يَتَّبِعُكَ آتِلُ مَا تُمِرُّ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝١٠٣ فَلَمَّا أَتَلَاهُ لِلْحَبِيبِ ۝١٠٤ وَتَدَيَّنَتْهُ أَنْ يَتَّبِعَهُ إِبْرَاهِيمُ ۝١٠٥ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْعَزُ الْمُحْسِنِينَ ۝ (الصافات : ١٠١ ، ١٠٥) .

= على لسان يعقوب عليه السلام :
﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾ وليس إسماعيل أباً ليعقوب وإنما هو عمه .
ولكن يطلق هذا عند العرب وهو شائع في بيتهم من هنا كان آزر عمّاً لإبراهيم وليس أباً له .
ومن هنا سلم النسب الشريف وأصبح الرسول ﷺ في الأصلاب الطاهرة لا مشاحة فيها ، لكن ما ذهب إليه الشيخ الشعراوي هو ضرب من التمثيل لا داعي له .
فكون آزر يعبد الأصنام وهو كافر لا يمنع هذا أبوته للخليل ، فلا تصادم مع حديث الأصلاب الطاهرة والكفر .
وإنما عنى الحديث سلامته ﷺ من السفاح (فأصلابه جميعها طاهرة) أما الكفر فقد كان في أجداده ﷺ من عبد الأصنام كقصي بن كلاب الذي جلب الأصنام إلى الحرم ، والكفر لا يراه الكفار عيباً .

وهكذا نجد أن كل سورة قد أضافت معنى جديداً لم يطرق في سورة أخرى بحيث لو تضامنت جميع الجزئيات في القصة في مختلف السور التي ذكرت فيها لأعطينا صورة مكبرة لجزئيات تفرقت في مواطنها لتسير على حسب مقتضى الحال .

ويطالعنا الدكتور خلف الله حول التكرار في القصة القرآنية بما ارتآه فيقول : « وتكرار القصص في القرآن يتبع الشخصية التي عرفت واشتهرت ، والأحداث التي شاعت في البيئة العربية . . ومن هنا كانت شخصية موسى أكثر تكراراً من أي شخصية أخرى . . لأن موسى كان نبي اليهود ، ولقد كان اليهود في ذلك الزمن يسيطرون على البيئة العربية من حيث التفكير الديني . . وهذه السيطرة تجعلهم يقصون كثيراً من أخبار موسى وقليلاً من أخبار غيره من الأنبياء .

فالقرآن اعتمد في بناء القصة على عناصر استمدتها من البيئة والعقلية العربية ليكون القصص القرآني أشد تأثيراً وأقوى سلطاناً »^(١) .

ولي تعليق ومناقشة للدكتور خلف الله في هذا الحديث أقول :

أولاً : كيف كان اليهود يسيطرون على البيئة العربية من حيث التفكير الديني . . مع العلم بأن البيئة العربية في ذلك الوقت كانت وثنية ، واليهود من أهل الكتاب ؟

ثانياً : أثبت القرآن في أكثر من موضع بأن ما في أيدي اليهود من صحف قد امتدت إليها يد التحريف والتبديل .

قال تعالى : ﴿ أَفَنظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة : ٧٥) .

وقال تعالى : ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ﴾ (المائدة : ٤١) .

(١) يتصرف من الفن القصصي في القرآن - محمد أحمد خلف الله - الطبعة الرابعة ١٩٧٢ م (٢٣٤) .

ملتزم الطبع والنشر مكتبة الأنجلو المصرية ١٦٥ شارع محمد فريد القاهرة .

وقال تعالى : ﴿ قَوْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُوبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا قَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا كُتِبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْتُوبُونَ ﴾ (البقرة : ٧٩)

إذا ثبت هذا ، فكيف يستقيم لنا القول بأن القرآن قد اعتمد في بناء القصة على عناصر استمدتها من البيئة العربية والتي كانت تخضع لسيطرة اليهود من حيث التفكير الديني ؟

إن مجرد التفكير في أن القرآن يحكي في قصصه ما جاء في التوراة هو طعن في كتاب الله ، ولا يفعل هذا إلا مرتد أو عميل . .

ثالثاً : جاء في الإصحاح الرابع والثلاثين من سفر التثنية ما يلي :
(٥) فمات هناك موسى عبد الرب في أرض موآب حسب قول الرب .

(٦) ودفنه في الجواء في أرض موآب مقابل بيت فغور ، ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم .

وبهذه الكلمات يتبين لنا بما لا مجال للشك فيه أن هذا السفر مكتوب بعد موسى عليه السلام ، فقد نص في الإصحاح الحادي والثلاثين من سفر التثنية (على إكمال كتابة التوراة) ، ومثل هذا الكلام لا يصح أن يكون من التوراة ، إذ لا يستقيم في العقل أن يتحدث موسى عليه السلام ويشرح أنه (دفن مقابل بيت فغور ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم) .

وكل هذا في حياته هل يعقل هذا ؟! في الوقت الذي اتفق فيه اليهود على أن هذا من التوراة . هذا دليل واضح على التحريف الذي دخل التوراة التي بين يد اليهود وهنا نصل إلى النتيجة : هل قرر القرآن مثل هذه الأخبار وهو يتحدث عن القصة الموسوية في مائة وعشرين موضعاً منه ؟

هل يتفق كلامنا هذا وما أجمع عليه أهل العلم والنظر مع كلام الدكتور خلف الله : « في أن القرآن اعتمد في بناء القصة على عناصر استمدتها من البيئة والعقلية العربية » .

ثم يقول : « ولقد كان اليهود في ذلك الزمن يسيطرون على البيئة العربية من حيث التفكير الديني . . وهذه السيطرة تجعلهم يقصون كثيراً من

أخبار موسى ، وقليلًا من أخبار غيره من الأنبياء » .
ثم يصل إلى النتيجة التي رمى القرآن إليها من بناء القصص على هذا
النمط فيقول : « ليكون القصص القرآني أشد تأثيراً وأقوى سلطاناً » .
عجيب حقاً أن لا يستطيع القرآن في قصصه أن يكون مؤثراً حتى
يسوق قصصه على النمط الذي كان يتحدث به اليهود عن موسى وغيره من
الأنبياء عليهم السلام ، وكلنا يعلم ما فاضت به التوراة من طعن واقتراء
على رسل الله عليهم السلام .
هل جاء القرآن ليقرر لنا ما قرره التوراة عن سيدنا نوح ولوط ،
وداود ، وسليمان . . . وغيرهم من طعن واقتراء .
لا إن القرآن عندما حكى لنا قصص هؤلاء الأنبياء إنما حكى لنا
الجوانب المشرقة المضيئة من دفاعهم عن الحق ومحاربتهم للبدع والضلالات
والشذوذ والمنكرات .
نعم لقد حكى لنا المثل والقُدوة ، الصدق والطهارة والعصمة التي
يكون عليها الهداة والمصلحون في كل زمان ومكان .
إن القصة القرآنية إن استمدت تأثيرها وسلطانها على النفوس ، فإن
ذلك ينبعث من كونها تسجيلًا للواقع الحي . . وأنها جاءت تخاطب العقل
والضمير والوجدان . . وهي الحق كل الحق والصدق كل الصدق .
نعم لو كان هناك تأثير أو سيطرة لليهود على البيئة العربية ، كما
يزعم خلف الله ، لما وقف القوم مشدوهين وهم يسمعون آيات الله تطرق
مسامعهم ، لقد رأوا في القرآن أمراً خارقاً للمألوف وخارجاً عن العادة .
فأين الخلفية والسيطرة الفكرية الدينية التي جعلتهم يفاجؤون ؟
إن هذا الكلام لا يقوله مسلم أبداً . والله يهدي من يشاء ويضل من
يشاء . ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون !!

الفصل الثاني

حول أسلوب القصّة في القرآن الكريم

أباطيل حول القصص القرآني

هذا وإذا كان القرآن الكريم وهو كتاب الله المنزل على خير أنبيائه ورسوله سيدنا رسول الله ﷺ هو المعجزة الخالدة الباقية ما بقي الليل والنهار وإلى الأبد .

فقد تحدّث القرآن عن المثل وعن الحكمة وعن الجنة والنار وعن مشاهد القيامة في القرآن ، وتحدّث عن قصص الأمم الغابرة مع أنبيائها ، ولم يكن هذا القصص المحكم سرداً مجرداً لبعض الروايات التاريخية يتسلى بها السامعون ثم يغفلون عن حكايتها .

إن هذا القصص كان تاريخاً لسير الدعوة الدينية في الحياة ، وكيف خطّت مجراها بين الناس منذ فجر الخليقة ! وما هي العقبات التي اعترضتها ؟ وما صنع الأنبياء بإزائها ؟ وكيف قبلت الأمم المدعوة رسالات الله أو صدّت عنها ؟

والحكمة المنشودة من وراء هذا القصص نقرأها في قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (يوسف : ١١) .

إن القصص من أنجح الطرق التي اتبعها القرآن الكريم في تأديب النفوس ، وسياسة الجماعات ، والمحاورات النابضة التي أثبتتها هي معالم خالدة لضبط الحقيقة التاريخية وتوليد العبرة منها^(١) .

يقول صاحب الشهاب : « ويتناول القرآن الكريم قصص الأنبياء والمرسلين ، ويذكر طرفاً من معجزاتهم ، ومن المقرر أنه ليس الغرض من ذلك استقرار الوقائع ، ولا تحديد الأزمان ، ولا تناول الظروف والملاسات ، ولا تسجيل مجرد للحوادث ولا الأشخاص ، ولا البحث التاريخي الاصطلاحي والفني ، وإنما الغرض من ذلك الهداية والعظة

(١) نظرات في القرآن - محمد الغزالي - الطبعة الخامسة (١١٣) .

والعبرة ، وتقرير قواعد هذه الهداية في النفوس بذكر هذه القصص وعرض وقائعها أمام السامعين والقارئ ، والقرآن الكريم يصرح بهذا في وضوح^(١) .

ومن المقطوع به عند كل مسلم أن كل ما ذكره القرآن في هذه الناحية حق لا شك فيه ، وأن علم التاريخ الاصطلاحي لا يمكن أن يأتي بحقيقة تخالف ما جاء في قصة من القصص التي ذكرها القرآن .

ولكننا مع إدراك هذا كله نجد من أدبائنا في العصر الحديث من تزل به القدم ، فيقع في مزلق خطير يخلص منه إلى أن القرآن الكريم وإن تحدث في قصصه عن الأنبياء ومختلف الشخصيات إلا أن هذه الشخصيات من وجهة نظره ليست لها حقيقة تاريخية ، وإنما تمثل بها القرآن هكذا .

وأعتقد أن مثل هذا لو عاد إلى رشده بعض الشيء فذكر شخصيته المؤمنة وعقب على بحثه المجرد بما يفيد إيمانه بصدد هذا التاريخ وهذه الحقائق التاريخية التي عاضدها جميع الكتب السماوية وأيدت وجودها ، ثم ناضل عن تلك الحقائق بأسلوب علمي ، لكان له في ذلك الشاء العطر والقبول عند الله .

هذا الدكتور طه حسين يقول : « للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل ، والقرآن أن يحدثنا عنهما أيضاً ، ولكن ورود هذين الإسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي فضلاً عن إثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة إسماعيل بن إبراهيم إلى مكة ونشأة العرب المستعربة فيها .

ونحن مضطرون إلى أن نرى في القصة نوعاً من الحيلة إلى إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة ، وبين الإسلام واليهودية والقرآن والتوراة من جهة أخرى .. »^(٢) .

« وفي الواقع أن الدكتور طه حسين كان متأثراً بالدراسات الاستشراقية

(١) نقلاً عن كتاب نظرات في القرآن وقد عزاه إلى صاحب الشهاب هكذا ، ولم أقف عليه .

(٢) الشعر الجاهلي - د . طه حسين (٢٦) .

في هذا الجانب ، وإلا لو كانت هذه القصة قد اخترعها اليهود لإثبات قرابتهم للعرب بقصد ردّ عاديّتهم عنهم ، فلماذا جعلوا هذه القرابة خاصّة ببعض العرب دون البعض الآخر ؟ - أي : لماذا تقربوا من العدنانيين ، ولم يتقربوا إلى القحطانيين - وكلهم كانوا سواء في خصومتهم ، بل كان أول من قابلهم في طريقهم القبائل اليمنية ، وقد اختاروا أن يجاوروا تلك القبائل بقرب يثرب ، وما دام أساس هذه القصة الخدع والتزوير ، وقد حدثت قبيل ظهور الإسلام ، أي : بعد هجرة القبائل اليمنية إلى شمال بلاد العرب ، فأى داع جعلهم يقصرون الخدع على بعض القبائل دون البعض الآخر .

ثم لو كانت هذه القصة حيلة من اليهود افتعلوها ليعيشوا مع العرب بسلام آمنين لكانوا حين أجمعوا على الهجرة إلى بلاد العرب جعلوا ترويجها بين العرب باكورة أعمالهم لا أن يبدأوا هجرتهم بالحروب الطاحنة حتى إذا طحتهم المعارك سنين ابتكروها لتكون سبباً في اجتلاب عطف خصومهم عليهم . وهل ابتكارها بعد تلك المعارك الطاحنة لا يثير في نفوس العرب الشك في صحتها ، بل الجزم بأنها حيلة يراد بها خضد شوكتهم وثلم حميتهم^(١) .

يقول الشيخ الخضر حسين : « ثم أحتال أطيّب البريّة سريرةً وأبهرهم حجةً على اليهود بقصة خرجت من مصنع تزويرهم ؟ كلا ! إن القرآن ليدعو بالحكمة والموعظة الحسنة . وليست القصة المزورة من الحكمة في شيء ، وليس في القصة المزورة موعظة حسنة ، ومن يتلو القرآن بتدبر وينظر السيرة النبوية في مرآتها الصادقة يعلم أن الإسلام بريء من هذا السخف والهزال^(٢) . »

(١) نقد كتاب في الشعر الجاهلي - د . فريد وجدي .

(٢) نقض كتاب في الشعر الجاهلي - للشيخ محمد الخضر حسين (٨٣ - ٨٤) المكتبة العلمية - بيروت لبنان .

نفس الكلام تردد في كتاب « نظرية الانتحال » للمسئول (١٤٦ - ١٤٧) الناشر دار القلم بالقاهرة .

لقد تأثر الدكتور طه حسين بالمستشرقين في معظم كتاباته فقد تأثر بمرجبلوث =

ثم يعقب الشيخ محمد الخضر حسين على كلام الدكتور طه حسين في ادعائه الباطل : « إن القرآن حاول إثبات الصلة بين اليهود والعرب بقصة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام . . فيقول :
« نحن نعلم أن الرسول ﷺ قد وجد من قومه الذين يشاركونه في آبائه الأقربين صدوراً مطوية على عدا ، وألسنة مبسوطة بالكيد والأذى ، ووجد من قوم لا يتصل نسبهم بإسماعيل ولا بإبراهيم إيماناً وطاعة وتأيداً ، فلا نستطيع أن نفهم كيف يخطر على باله أن يأتي في القرآن بقصة القرابة بين العرب واليهود احتيالاً على أهل الكتاب ! وهي قرابة قديمة العهد بعيدة الأثر ، تكاد تشبه القرابة بين العرب وأكثر من في الأرض حيث يتفقان في جد أعلى هو نوح عليه السلام ، وليس ببعيد من صاحب هذه الفلسفة الغريبة أن يقول : إن قصة آدم الواردة في القرآن مستغلة لعقد الصلة الوثيقة المتينة بين الدين الجديد والديانات وغير الديانات الكائنة على وجه البسيطة ، لأن في القصة صلة ملموسة أو كالملموسة ، وهي القرابة بين العرب وسائر البشر ! »^(١) .

هذا وقد كشف الأستاذ عبد المتعال الصعيدي أن آراء طه حسين في إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - ، قد أخذها من كتاب ذيل مقالة في الإسلام لهاشم العربي ، والكتاب من عمل المبشرين الطاعنين في الإسلام . يقول صاحب : « ذيل مقالة في الإسلام » المطبوع في مطبعة النيل المسيحية - أقدم طبعة للذيل عام ١٨٩١ م - :

« وحقيقة الأمر في قصة إسماعيل أنها دسيسة نقلها قدماء اليهود تزلفاً إليهم وتذرّعاً بهم إلى دفع الروم عن بيت المقدس ، أو إلى تأسيس مملكة جديدة لهم في بلاد العرب » .

= في كتابه في الشعر الجاهلي وتأثر ببلاشير في نظرنه للمتنبي ، وبورد كايم في حديثه عن ابن خلدون الحضرمي .

راجع : طه حسين حياته وفكره في ميزان الإسلام - أنور الجندي - الطبعة الثانية (٣٦) .

(١) نقض كتاب « في الشعر الجاهلي » - لمحمد الخضر حسين - المكتبة العلمية ببيروت لبنان (٨٤) .

وقد تابعه على هذا الدكتور طه حسين في كتابه : « في الشعر الجاهلي » .

وصاحب الذيل يجعل (التوراة) هي الأصل ويعرض عليها القرآن ، فإن خالفها طعن فيه - أي : في القرآن - .
أما الدكتور طه فيكذب بالتوراة والقرآن جميعاً ، ويؤمن صاحب الذيل بوجود إبراهيم وإسماعيل ويكذب أبوة إسماعيل للعرب ، فيأتي - المقلد - فيكذب بوجود إبراهيم وإسماعيل فضلاً عن أبوتهما للعرب .
كان صاحب الذيل فطناً محترساً ، وكان (حاكمه) قليل الفطنة فاصطدم بالنقض الآتي :

إن التوراة قد انتشرت في البلاد قبل نزوح اليهود إلى يثرب وما حولها في جزيرة العرب ، وكان فيها ذكر إبراهيم وإسماعيل ، فلم يكن ذلك من صنع اليهود الذين كانوا بين ظهري العرب حيلة منهم للتقرب إليهم ، ولو كان يهود يثرب هم الذين اخترعوها حيلة ، فما هو السر في أن كان ذكر إبراهيم وإسماعيل في جميع نسخ التوراة ؟ إن صاحب الذيل هو صاحب الفكرة الأصلية ، وقد كان أفطن لهذه الاعتراضات التي وقع فيها طه حسين ، فصدق بوجود إبراهيم وإسماعيل ، وكذب بأبوتهما للعرب فقط .

لقد سرق الدكتور طه بحثه من كتاب سخي ، ولم يفهمه على وجهه ، ونقله من كتاب النصراني المبشر على أنه ابتكار من ابتكاراته ورأي من آرائه الجديدة^(١) .

أما الشخص الآخر الذي جانبه التوفيق في حديثه حول القصص القرآني فهو الدكتور محمد أحمد خلف الله ، حيث يرى أن الأدب المبدع هو الذي ينزع نحو الخيال وبه ينشط ، ولا سيما حين يبعد عن الالتزام ، سواء أكان ذلك الالتزام بالوقائع التاريخية أو البعد عن الصدق ، حيث إن المادة الخصبة في نظره إنما تنبثق عن الخيال المغرق والبعد عن أرض الواقع ،

(١) راجع طه حسين حياته وفكره في ضوء الإسلام - أنور الجندي - (١٨١) - الطبعة الثانية .

وبذلك يكون الإبداع الفني والتصوير الرائع والحديث الممتع .
وهو يرمي من وراء هذا إلى أن القرآن كتاب أدبي بعيد عن تجري
الصدق في الواقعة ، أو الصدق في الرواية ، ويرى بأنه لا يتجلى فن الأديب
إلا بهذا الأسلوب .

ثم هو يريد أن يجرد من نفسه أديباً بعيداً عن كل اعتبار آخر .
ويريد أن يجرد من القرآن كتاب أدب بعيد عن كل اعتبار كذلك . .
وينظر فيه على هذا الأساس بصرف النظر عن هذا القصص ومطابقته للواقع
والتاريخ أو مخالفته لذلك كله .

وقد عنى بكلامه هذا إلى أن رعاية الناحية الفنية عند الأديب المجرد لا
تستلزم صدق الرواية ولا صحة الواقعة .

وليت الأمر وقف به عند هذا الحد بل جاوزه إلى أن يقول : « إن
القصص القرآني يستمد عناصره من كتب العهد القديم ، ولعله من أول ما
يستلفت الأنظار فيما أطلقه هؤلاء وأولئك من مزاعم وآراء ما رددته بعضهم
من أن القصص القرآني قد جاءت وقائعه وأحداثه وسائر أخباره مستقاة مما
كان يتناوله أهل الكتاب ، وبخاصة اليهود في تلك البيئة العربية ، فكان
دور القرآن إزاءها أن بنى من هذه العناصر وعلى نمطها أقاصيصه التي
نراها » .

وقد أراد خلف الله أن يحدد مصادر القصة القرآنية فجانبه التوفيق ،
وخاصة بعد أن أتى في حديثه بالمتناقضات فهو حين يقرر « أن القرآن الذي
جاء ليقرر بأخباره آيات النبوة وصدق الرسالة . إلا أنه حرص على أن تكون
مستقاة بل مطابقة لما جاء في الكتب السماوية السابقة ، أو لما يعرفه أهل
الكتاب من أخبار حتى ليخيل إلينا بأن مقياس صدق هذه الأخبار وصحتها
من الناحية التاريخية هي مطابقتها لما جاء في كتب السابقين ولما يعرفه هؤلاء
من أخبار . . » (١) .

وصاحب الفن القصصي حين يقرر هذا القول لم يلبث أن ينقضه

(١) بتصرف من كتاب الفن القصصي في القرآن - لمحمد أحمد خلف الله - الطبعة الرابعة
(٢٢) .

ويضطرب فيه .

حين يقرّر في مكان آخر من كتابه « أن القرآن الكريم في قصصه لم يسلك مسلك التوراة ، فلم يقصّ أخبار الأنبياء والمرسلين كما قصت هي ، وإنما اختار بعضهم ليقصّ قصصهم ، وأعرض عن الباقي ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ (النساء : ١٦٤)^(١) . وهو حين اختار لم يعمد إلى أخبار هؤلاء جميعاً ، وإنما اختار من هذه الأخبار ما يتفق وحالة الدعوى الإسلامية وموقف النبي من قومه ، ومن هنا لم يكن ذلك التفصيل الموجود في التوراة ، ثم إن القرآن الكريم لم يعمد إلى الزمن فيجعله العامل الأساسي في ترتيب هذه القصص كما عمدت التوراة . إن كل هذا إنما يدلّ على الفارق الأكبر بين قصص القرآن وبين قصص التوراة ، وهو أنها قصدت إلى التاريخ ، أما هو فلم يقصد إلا إلى العظة والاعتبار وإلى البشارة والإنذار ، وإلى الهداية والإرشاد .

وإلى شرح مبادئ الدعوة الإسلامية والرد على المعارضين ، وإلى تثبيت قلب النبي ﷺ ومن اتبعه ، وزلزلة نفوس المشركين والكفرة ، وإلى غير ذلك من مقاصد وأغراض ليس منها التاريخ على كل حال .

ثم إن هؤلاء الذين اختارهم القرآن الكريم ليقصّ قصصهم لم يكونوا جميعاً من البيئة العربية وإنما كانت الكثرة الكثيرة منها ومن غيرها . .

من بلاد المصريين ، والعبريين ، والسبئيين ، ومن بلاد اليونان والرومان وأقاموا فيها وأرسلوا إلى أهلها ووقعت أحداثهم في هذه البلاد ، وجرى الحوار فيما بينهم وبين من أرسلوا إليهم بلغات هذه الأقاليم ، بل جرى الحوار أحياناً بلغات قد لا نعرفها ، وقد لا يستطيع عقلنا القاصر أن يتصورها ، وإلا فبأي لغة تحدث الخالق جلّ وعلا إلى كل من الملائكة وإبليس في قصة خلق آدم ، وبأي لغة تحدث^(٢) إبليس إلى آدم في قصة الخروج من الجنة ؟ إنها الأمور التي لا نعرف منها إلا الفروض

(١) الفن القصصي في القرآن الكريم - د . محمد أحمد خلف الله - الطبعة الثالثة (٢٣٠) .

(٢) الفن القصصي في القرآن الكريم - د . محمد أحمد خلف الله - الطبعة الثالثة (٢٣١) .

ثم يعود المؤلف بعد هذا كله وحتى تتم صورة التناقض فيما قاله ليقرر : إن القرآن يأخذ عناصره القصصية من البيئة العربية ويبني من هذه العناصر أقاصيص هي التي نراها في القرآن الكريم^(٢) .

لقد قرر أولاً أن القرآن يأخذ عناصر قصصه من كتب السابقين ، وأن ما في القرآن مستقى من كتب العهدين هذه ناحية .

ثم عاد فقرر أن القرآن لم يأخذ من التوراة سوى ما يتعلق بحال الدعوة وموقف النبي ﷺ بإزاء قومه .

ثم عاد ثالثاً فقرر أن القرآن لم يأخذ جميع قصصه من التوراة ، وإنما أخذ بعضها وأعرض عن بعض .

وأخيراً وبعد هذا كله فالقرآن لم يقصد إلى التقيد بالناحية التاريخية كما تقيدت التوراة بذلك .

إن لهجة التناقض واضحة في كل ما قاله ، فكيف أخذ قصصه من الكتب القديمة ، بل حرص على ذلك ليكون آية شاهدة على صدق النبوة ؟ وكيف حرص القرآن في مطابقة ما جاء به لما جاء في هذه الكتب وما يعرفه أهلها ؟!

ثم بعد ذلك نجده لم يأخذ إلا بعضها وأعرض عن بعض ، فأين المطابقة ؟!

وكيف حرصت التوراة على الناحية التاريخية ولم يحرص عليها القرآن ، وهو إنما جاء مطابقاً لما فيها ؟

ثم كيف أن القصص القرآني حرص في اختيار قصصه على مجانبة الناحية التاريخية ، وهو الحريص على سوق الأحداث على حسب المناسبات ، بل حتى في سياقه لقصص الأنبياء جاء بها على حسب التسلسل التاريخي : نوح ، فهود ، فصالح ، فلوط .

وأخيراً كيف اختار من يحكي عنهم من غير البيئة العربية ؟

(١) الفن القصصي في القرآن الكريم - محمد أحمد خلف الله الطبعة الثالثة (٢٣١) .

(٢) نفس المرجع ص (٢٣٥) .

« ثم إن هؤلاء الذين اختارهم القرآن الكريم ليقص قصصهم لم يكونوا جميعاً من البيئة العربية ، وإنما كانت الكثرة الكاثرة منها ومن غيرها .

من بلاد المصريين ، والعبريين ، والسبثيين ، ومن بلاد اليونان والرومان . . . »

كيف يتفق هذا مع قوله : « إن القرآن يأخذ عناصره القصصية من البيئة العربية ، ويبني من هذه العناصر أقاصيص هي التي نراها في القرآن الكريم . . . »

وإذا أمعنا النظر في كتاب العقيدة والشرعة لجولد تسيهر نجد ما نصه :

« إذن ما كان يبشر به خاصاً بالدار الآخرة ليس إلا مجموعة مواد استقاها بصراحة من الخارج يقيناً ، وأقام عليها هذا التبشير ، ثم يقول : لقد أفاد من تاريخ العهد القديم ، وكان ذلك في أكثر الأحيان عن طريق قصص الأنبياء »^(١) .

وفي موضع آخر يقول : « فتبشير النبي العربي ليس إلا مزيجاً منتخباً من معارف وآراء دينية عرفها أو استقاها بسبب اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية وغيرها التي تأثر بها تأثراً عميقاً ، والتي رآها جديرة بأن توقظ عاطفة دينية حقيقية عند بني وطنه »^(٢) .

ولعل ما قاله هذا اليهودي الجحود قد صادف هوى في نفس الدكتور خلف الله ، لا أقول : هوى من حيث العقيدة ، فإني أكاد أشك في تضعضع عقيدته إلى مستوى الكفر والإلحاد ، ولكن أقول : صادف هوى في نفسه من حيث توقعه أن في مجارة هذا المارق فيما قال قد أتى بشيء جديد يحسب له كاشف جديد باهر ، وأنه قادر على الإبداع والتجديد .

لا سيما وأن ما كتبه في هذا الموضوع هو بصدد رسالة بل أطروحة الدكتوراه ، ولكن خانه التوفيق في أن مثل هذا لا ينبغي أن يكون ، بل هو

(١) العقيدة والشرعة في الإسلام - لتسيهر - الطبعة الأولى (٩) .

(٢) نفس المرجع (٥ - ٦) .

جحود في حق نفسه ، وفي حق دينه ، وفي حق مجتمعه .
 أما تسيهر فنسأله : كيف أن ما كان يبشر به محمد ﷺ والخاص بالدار
 الآخرة قد استقاه من الخارج ، وما المقصود بهذا الخارج ؟
 وكيف أفاد من تاريخ العهد القديم ، والتوراة نفسها قد خلت من
 ذكر الدار الآخرة ، بل إن الجزء المتعلق بالآخرة والبعث والنشور مفقود
 منها ، ومبتور الصلة من التوراة نهائياً^(١) .
 وكيف أفاد القرآن من قصص الأنبياء في التوراة ، وقصص الأنبياء في
 التوراة ممسوخة وقد شوه وجه الحق فيها .
 ففي التوراة طعن في نوح واتهام له بشرب الخمر ، وطعن في لوط عليه
 السلام^(٢) واتهام له بالزنا ، وطعن في داود عليه السلام ، واتهام له بالميل

(١) نعم إن خلو التوراة من ذكر الدار الآخرة قد أشار إليه القرآن الكريم في قوله
 تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة
 كما يئس الكفار من أصحاب القبور ﴾ [الممتحنة : ١٣] .
 هذا الحكم الذي نطق به القرآن عن اليهود هو حكم أظهرت لنا الدراسات
 صدقه ، مما يشهد للقرآن بأنه وحي إلهي .
 فالتوراة التي في أيدي اليهود لا تجد فيها ذكراً للروح والحياة الآخرة .
 يقول (ول ديورانت) : إن اليهود قلما كانوا يشيرون إلى حياة أخرى بعد
 الموت ، ولم يرد في دينهم شيء من الخلود ، وكان ثوابهم وعقابهم مقصورين على
 الحياة الدنيا . قصة الحضارة - لول ديورانت ج ٢ (٣٤٥) .
 وانطلاقاً من عقيدة عدم الإيمان بالآخرة ، ووجود حياة كريمة يجازي فيها كل بما
 اقترفت يدها ، كان اليهود حريصين على تحقيق أكبر ما يستطيعون من متع حياتية ،
 ولذات جسدية ، وانصب همهم على جمع المال باعتباره المصدر الوحيد لتحقيق هذه
 الغاية ، فكانوا أصحاب رؤوس أموال يسيرون بها دفة الحكم في دول كبرى .
 من هنا قال الرئيس الألماني أدولف هتلر في كتابه كفاحي : « إن اليهود لا
 يمكنهم أن يؤلفوا منظمة دينية لأنهم لا مثالية لهم ، ولأنهم لا يتطلعون إلى ما وراء
 عالمنا هذا ، فالتلمود لا يشير بكلمة إلى العالم الآخر » كفاحي ترجمة لويس الحاج .
 « ولهذا نجدهم أحرص الناس على حياة حتى ولو كانت حقيرة ، المهم أن
 يعيشوا وهذا هو واقعهم » .
 ولي تنكير كلمة حياة إشارة إلى أنهم راضون بأية حياة .

(٢) يصور سفر التكوين نوحاً عليه السلام مكشوف العورة عقب شربه الخمر ، وأن =

إلى امرأة قائد جيشه (أوريا الحثي) .

ثم ما العناصر اليهودية والمسيحية التي اتصل بها النبي العربي ﷺ وأفاد منها ، وهو ﷺ النبي الأمي الذي لا يعرف القراءة ولا الكتابة ، ولم تكن بمكة عناصر يهودية ولا مسيحية اتصل بها ، ولو كان عندها مثل هذا العلم لكان حرياً بها أن تنسبه إلى نفسها وتفوز هي بالرسالة والفخر !!
ومن من اليهود وهم الخريصون على الظهور على الناس جميعاً يصنع هذا ؟؟! أما النصارى فهم أذيال لليهود ؟! ورسول الله ﷺ لم يؤثر عنه أنه سافر خارج مكة إلا مرتين : مرة وهو ابن اثنتي عشرة سنة ، وكلنا يعرف ما جرى له مع الراهب بحيرا .

أما المرة الثانية ففي تجارة أم المؤمنين السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها ، وهي رحلة عابرة ، ولنا في معرفة ما جرى لرسول الله ﷺ مع ميسرة غلام خديجة من العلم ما لا يخفى .

وحسبك من امرئ لا يعرف القراءة ولا الكتابة ، ثم يتصل بعناصر من غير بيئته فيمدونه بعلم يقوم على أساسه خير الدنيا والآخرة ! ومن قوم عرف عنهم الأنانية وحب الذات وكرهية المجتمع كله !!

ثم يقوم ﷺ بترجمة هذه المعلومات من غير لغته إلى اللغة العربية في ثلاث وعشرين سنة ، وخلال هذا وذاك تظهر على يديه معجزات حسية ومعنوية ومادية ..

ويقوم بحروب ومعارك في سبيل هذه الأخبار التي استقاها من اليهود

= الذي شاهده ابنه حام وأخبر إخوته (سام ويافت) وأنها ستر عورة أبيهما ، وأن نوحاً لما أفاق من سكره دعا باللعنة على ابنه (حام) وعلى ذريته فصاروا عبيداً لأولاد كل من سام ويافت ، وهم يريدون بهذا دفع أحقية الكنعانيين أبناء حام في المطالبة بحقوقهم في بيت المقدس كشعب عاش في هذه المنطقة ، وما الفلسطينيون إلا أحفاد الكنعانيين ، وبالتالي فلا حق لهم في المطالبة بشيء ما داموا عبيداً لأبناء سام .. العهد القديم - سفر التكوين - الإصحاح التاسع الفقرة (٢٠ - ٢٧) .

وعن نبي الله لوط عليه السلام الذي صور القرآن وقوفه ضد الفجور والعصيان والشذوذ الجنسي نجد العهد القديم يصوره زانياً بابنتيه الصغرى والكبرى ، وأنها ولدتا من أبيهما (ابن زمي ، ومواب) .

العهد القديم - سفر التكوين - الإصحاح التاسع عشر - الفقرة (٣ - ٣٨) .

والنصارى ويتنصر فيها ، ويفقد في بعضها أعز من يملك من أهله وأقاربه^(١) .

إن هذا الكلام خارق للعادة وخارج عن حد المؤلف . .

ثم يقول صاحب الفن القصصي : « إن دراستنا لما سبق من قيم تاريخية ، ومن ألوان قصصية ومن مقاصد وأغراض ، تدل على أن القرآن لا يقصد بقصصه إلى المعاني الأولى - أي ظاهر النص وما يدل عليه - ، ولا يريد تعليم الناس التاريخ أو شيئاً عن الأحداث ، وإنما يقصد إلى المعاني الثانية ، وهي المعاني الأدبية أو البلاغية ، وهي الاستشارات العاطفية والصور الفنية الأدبية وغيرها مما يعده أصحاب الفنون والآداب ملاك الأدب وغاية البلاغة »^(٢) .

وإذا كانت هذه العواطف والانفعالات التي تستثيرها المواد الأدبية في القصص القرآني ، وهذه الأحاسيس التي تصورها هذه المواد تختلف في موطن عنها في آخر ، كان معنى ذلك أن القرآن يصنع في هذه المواد ما يصنعه الأدب والفن دائماً بالألفاظ ، وأنه يستخرج من هذه المواد الأدبية القصصية معاني أدبية تشبه استخراج المعاني المجازية من المعاني الحقيقية ، والصنيع هنا هو بعينه الصنيع هناك ، وأن هذه المواد والألفاظ في الصنيع الأدبي القرآني سواء »^(٣) .

ثم يقول : « ولعلك قد لحظت أن هذه القصص لا تقصد إلى تصوير ما حدث بين ثمود ورسولها ، وبين لوط وقومه ، فذلك ليس هو الذي يقصد إليه القرآن ، لأنه ليس إلا المعاني الأولى لهذه القصص . . إن مقصد القرآن ليس إلا جعل هذه الصور مصدراً للانفعال والتأثير وباعثاً للأمن والخوف والرجاء . .

هذه المعاني ، أو هذه العواطف والانفعالات هي قصد القرآن من

(١) فقد رسول الله ﷺ يوم بدر ابن عمه عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب رضي الله عنه ، وفي أحد فقد عمه حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه ، أسد الله وأسد رسوله وسيد الشهداء .

(٢) الفن القصصي في القرآن - لمحمد أحمد خلف الله الطبعة الثالثة (٢٣٨) .

(٣) المرجع السابق (٢٣٩) .

القصص ، وهي الرباط الذي يربط مجموعات القصص ، وهي الأمور التي يجب ان يقف عندها كل من أراد أن يتذوق أسرار الإعجاز في قصص القرآن .

المسألة إذن في طريقة الفهم ، وفي محاولة الوقوف على القصد ، وفي الوقوف طويلاً عند المعاني الثانية ، أو عند العواطف والأحاسيس والانفعالات التي هي مقصد القرآن الأول والأخير من قصصه ، والتي لم تكن التعريف بالتاريخ أو إملاء الأخبار ^(١) .

وأخيراً وليس آخراً يأتي الدكتور خلف الله ليثبت ما رآه جديداً ، وهو أن الصنيع البلاغي للقرآن الذي يقوم على تخلص العناصر القصصية من أحداث وأشخاص وأخبار من معانيها التاريخية ، وجعلها صالحة كل الصلاحية لاستشارة العواطف والانفعالات حتى تكون العظة والعبرة ، وتكون البشارة والإنذار ، وتكون الهداية والإرشاد ويكون الدفاع عن الدعوة الإسلامية والتمكين لها في نفوس المعارضة . .

إن هذا كله لهو الدليل القوي على أن القرآن الكريم لا يطلب منا الإيمان برأي معين في هذه المسائل التاريخية .

ومن هنا يصبح من حقنا ، أو من حق القرآن علينا أن نفسح المجال أمام العقل البشري لبحث ويدقق ، وليس عليه من بأس في أن ينتهي من هذه البحوث إلى ما يخالف هذه المسائل ، ولن تكون مخالفة لما أراده الله أو لما قصد إليه القرآن ، لأن الله لم يرد تعليمنا التاريخ ، ولأن القصص القرآني لم يقصد إلا إلى الموعظة والعبرة وما شابهها من مقاصد وأغراض . . ^(٢) .

إن معنى هذا الكلام هو تجريد القرآن الكريم من ميزة الصدق . . وقذفه بالكذب ولو من طريق غير مباشر ، لأنه ليس له سوى محمل وتفسير واحد ، وهو أن القرآن قد حاك مثل هذه القصص التي لا وجود لها البتة . وكأنه لم يوجد في تاريخ الإنسانية في يوم من الأيام رسالة ولا رسول

(١) الفن القصصي في القرآن - لمحمد خلف الله - الطبعة الثالثة - (٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤) .

(٢) الفن القصصي في القرآن - د . محمد أحمد خلف الله - الطبعة الثالثة (٢٥٤) .

ولا نبي يدعى إبراهيم ، ولا رسول يدعى إسماعيل أو يوسف أو موسى أو هارون . . . عليهم السلام .

فكلام خلف الله لا يعدو أن يكون طعنًا في الإسلام وفي الديانات السماوية التي وجدت من قبل ، ثم هو غمط من طرف خفي لحق الإسلام ، لأنه إذا صحّ مثل هذا - حاشا كتاب الله - وهو أن القرآن يفتعل مثل هذه القصص فهذا يعني أن القرآن قد أتمم بمثل هذه الأحاديث المختلفة سواء في قصصه أو في غيرها .

والمولى عز وجل يقول : ﴿ وَلَوْ نَقُولَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿١١﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ (الحاقة : ٤٤ ، ٤٦) حاشاه الصادق الأمين ﷺ .

ثم كيف لا يطلب القرآن منا الإيمان برأي معين في هذه المسائل التاريخية وهو الذي يومئ لنا صباحاً ومساءً : خذوا العبرة والعظة مما جرى لهذه الأمم مع أنبيائها حينما كذبوا الحق وناهضوا الشرع ! . . .

قال تعالى في حديثه عن عاد وثمود : ﴿ الْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَذْرَبَكُمْ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ نَحْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴾ (الحاقة : ١ ، ٨) .

كل هذا ليقول لنا القرآن اتعظوا واهتدوا لتلا يحل بكم مثل ما حل بالأمم من قبلكم والتي كذبت أنبياءها ﴿ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلًا كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (يوسف : ١١١) .

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدًى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ (الزمر : ٢٣) .

ثم كيف يتسنى لعقل بشري منصف أن يخالف هذه المسائل التاريخية ، ولا يعد مخالفاً لما أراده الله سبحانه وهو الذي يقول : ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ

نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿ (الإسراء : ١٠٥) ﴿ مَا قَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ (الأنعام : ٣٨) .

ولقد لفت نظري في موضوع القصة القرآنية حديث أثاره الأستاذ فهد بن عبد الرحمن الرومي في كتابه : « منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير » ، يقول الأستاذ الرومي بصيغة المتسائل : « والحق أنا لا نرى كبير^(١) فارق بين قولي الشيخ محمد عبده والأستاذ خلف الله ، فإن رأي الشيخ في قصص القرآن : « أنها تمثيل وتخيل وهي للعظة والهداية » . ورأي خلف الله : « أنها مخالفة للواقع ومختلقة وهي للعظة والهداية » .

فهما متفقان على الشطر الثاني ، ومتفقان في الشطر الأول على أن ظاهر لفظيهما غير مراد وأنها غير واقعة .
« عبر الأول عن ذلك بالتمثيل والتخيل وعبر الثاني عنه بالاختلاق » .

ولا بأس في أن نستعرض الحديث بتوسع في إطار توضيح الرأي الأخير في المسألة .

يقول الإمام محمد عبده وهو يبدي رأيه في القصة القرآنية : « يظن كثير من الناس^(٢) الآن - كما ظن كثير ممن قبلهم - أن القصص التي جاءت في القرآن يجب أن تتفق مع ما جاء في كتب بني إسرائيل المعروفة عند النصارى بالعهد العتيق ، أو كتب التاريخ القديمة ، وليس القرآن تاريخاً ولا قصصاً ، وإنما هو هداية وموعظة ، فلا يذكر قصة لبيان تاريخ حدوثها ، ولا لأجل التفكير بها أو الإحاطة بتفصيلها ، وإنما يذكر ما يذكره لأجل العبرة كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (يوسف : ١١١) وبيان سنن الاجتماع كما قال تعالى : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾

(١) منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير - فهد عبد الرحمن الرومي - الطبعة الأولى (٤٦٢ - ٤٦٣) .

(٢) تفسير المنار - لمحمد رشيد رضا - الجزء الثاني (٤٧١) الطبعة الثالثة .

(آل عمران : ١٣٧) .

وفي موضع آخر يقول الإمام محمد عبده : « ليس في القرآن شيء من التاريخ من حيث هو قصص وأخبار للأمم أو البلاد لمعرفة أحوالها ، وإنما هي الآيات والعبر تجلت في سياق الوقائع بين الرسل وأقوامهم لبيان سنن الله تعالى فيهم إنذاراً للكافرين بما جاء به محمد ﷺ وتثبيتاً لقلبه وقلوب المؤمنين به ، ولذلك لم تذكر قصة بترتيبها وتفصيلها ، وإنما يذكر موضع العبرة فيها »^(١) .

وفي موضع ثالث يقول : « بيّنا غير مرة أن القصص جاءت في القرآن لأجل الموعظة والاعتبار لا لبيان التاريخ ولا للحمل على الاعتقاد بجزئيات الأخبار عند الغابرين ، وأنه ليحكي من عقائدهم الحق والباطل ، ومن تقاليدهم الصادق والكاذب ، ومن عاداتهم النافع والضار لأجل الموعظة والاعتبار ، فحكاية القرآن لا تعدو موضع العبرة ولا تتجاوز موطن الهداية »^(٢) .

ويقول الدكتور خلف الله : « على أن القرآن الكريم لا يطلب الإيمان برأي معين في هذه المسائل التاريخية » .

ثم يقول : « ومن هنا يصبح من حقنا ، أو من حق القرآن علينا أن نفسح المجال أمام العقل البشري لبحث ويدقق ، وليس عليه من بأس في أن ينتهي من هذه البحوث إلى ما يخالف هذه المسائل ولن تكون مخالفة لما أراده الله أو لما قصد إليه القرآن ، لأن الله لم يرد تعليمنا التاريخ ، ولأن القصص القرآني لم يقصد إلا الموعظة والعبرة وما شابهها من مقاصد وأغراض »^(٣) .

ثم يقول بعد ذلك : « اعتقد أنك قد فطنت إلى ما نريد تقريره من نظرية تحلّ مشكلات المفسرين ، وترد اعتراضات المستشرقين والمبشرين ، وأعتقد أنك قد فطنت إلى أن هذه النظرية ليست إلا القول بأن ما بالقصص

(١) تفسير المنار - لمحمد رشيد رضا - الجزء الثاني (٢٠٥) الطبعة الثالثة .

(٢) تفسير المنار - لمحمد رشيد رضا - الجزء الأول (٣٩٩) - الطبعة الثانية .

(٣) الفن القصصي في القرآن الكريم - محمد أحمد خلف الله - الطبعة الثالثة (٢٥٤) .

القرآني من مسائل تاريخية ليست إلا الصور الذهنية لما يعرفه المعاصرون للنبي ﷺ - عن التاريخ - وما يعرفه هؤلاء لا يلزم أن يكون هو الحق والواقع ، كما لا يلزم القرآن أن يصحح هذه المسائل أو يردها إلى الحق والواقع ، لأن القرآن الكريم كان يجيء في بيانه المعجز على ما يعتقد العرب وتعتقد البيئة ويعتقد المخاطبون»^(١) .

هذا ما قرره الدكتور خلف الله في كتابه أو بالأحرى في رسالته « الفن القصصي في القرآن » .

وقد كان موقف الجامعة حازماً حيال هذا الموضوع ، فقد رفضت الرسالة ، وقد علق على هذا الدكتور الخولي بقوله : « إنها ترفض اليوم ما كان يقرره الشيخ محمد عبده بين جدران الأزهر منذ اثنين وأربعين عاماً ، وتخضع البحث للأوهام لا للإسلام »^(٢) .

يقول الشيخ مصطفى صبري رحمه الله عن الرسالة : « وإني أرى الرسالة المستنكرة وما سبقها في مصر من الأحداث والفتن المماثلة الماسة بدين الإسلام وعقائده المحفوظة إلى عصر الشيخ محمد عبده . . كلها ناشئة من الأسس التي ابتدعها هذا الشيخ الملقب بالإمام . . فلا مناص إذن للقضاء على تيار الفتنة من مصدرها أن تفصل الدعوى مع الإمام دون المؤمنين »^(٣) .

وإذا كان لي من كلمة فاصلة في الموضوع فالواقع أن الشيخ محمد عبده ، رحمه الله ، لم يقصد فيما قال الانتقاص من قدر القصة القرآنية أو رميها بشيء مما رماها به خلف الله ، فهو يقرر ويؤكد أن هذا القصص إنما سيق للهداية والعظة والاعتبار ، وهذا جانب تؤيده عليه ، بل القرآن يثبت هذا القول ويؤكدده ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثاً يفترى ﴾ .

هذا من جانب ، وأما من حيث أنه يحكي من عقائدهم النافع والضار

(١) الفن القصصي في القرآن الكريم - لمحمد أحمد خلف الله - (٢٥٥) .

(٢) مقدمة الرسالة وقد قدم لها أمين الخولي المشرف على الرسالة « الفن القصصي في القرآن الكريم » .

(٣) موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين - لمصطفى صبري .

فهذا أمر نقرره ونثبتته ، وهذا واضح ملموس في كثير من القصص القرآني مثل عبادة العجل ، فهو أمر باطل ، وعبادة الأصنام التي لا تضر ولا تنفع ، وعقر الناقة وتطفيف المكيال والميزان ، وما إلى ذلك من أمور باطلة .

أما عن كلامهم الكاذب الذي حكاه الله سبحانه على لسان فرعون : ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ (الشعراء : ٢٧) .

أما عن القول الصادق ، فمن مثل قول المولى عز وجل على لسان سحرة فرعون الذين آمنوا بموسى : ﴿ قَالُوا لَا ضَيْرَ لَنَا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الشعراء : ٥٠ ، ٥١) .

فما دامت القصة القرآنية تتحدث عن حياة أمة من الأمم فهي تتناول سيرتهم التي تحمل الخير والشر والحق والباطل ، على أن كل رسول إذا بعث في قوم فقد يجد فيهم من يصغي لقوله ويستجيب لندائه ، وقد يجد فيهم من تحجر قلبه وتبلدت عقلته .

ومن ثم كانت القصة القرآنية تمثل هذه الجوانب المتباينة ، وإن كنا نؤمن جميعاً بأن القصة القرآنية هدفها الأسمى العظة والاعتبار .

أما من أنها ليست لبيان التاريخ ولا للحمل على الاعتقاد بجزئيات الأخبار ، أو أنها للتمثيل أو للتخييل ، فهذا أمر لا نسلم به كما قال في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾ (ق : ٣٠) فليس المراد أن الله سبحانه يستفهم منها وهي تجاوبه ، وإنما هو التمثيل لسعتها وكونها لا تضيق بالمجرمين مهما كثروا .

فهذا أمر لا نرفضه فحسب ، بل لا نقبله البتة ، فالقصة القرآنية هي الحق كل الحق ، وكل ما جاءت به هو الصدق .

من هنا نجد أن الشيخ محمد عبده قد وفق في جانب وتعثر في آخر . على أي لا أستطيع أن أقول بأن الشيخ قد قرّر ولو للحظة واحدة بأن القصص القرآني مخالف للواقع .

وأما ما ذهب إليه الدكتور خلف الله فذاك الذي لا نستطيع أن نتمحل له عذراً ، ولا أجد مناصاً من القول بخروجه عن الدين وتنكبه الجادة . فالقصص القرآني هو الحق كل الحق ، والصدق كل الصدق وقد سبق

للعظة والهداية والاعتبار مع بيان التاريخ الصحيح لأحداث الأمم
والمجتمعات ، وهو في كل هذا يرمي إلى التربية والتعليم والهداية
والرشاد .

فسؤال الباري عز وجل لجهنم وارد ، وجوابها له ثابت بالأحاديث
الصحيحة المتواترة حين يضع الجبار قدمه الشريفة فتقول : « قطني
قطني »^(١) أي : كفاني كفاني .

وصدق الله القائل : ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي
بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (يوسف :
١١١) .

بذا يتضح لنا جلياً أن لا تماثل بين ما عناه الشيخ محمد عبده والأستاذ
محمد أحمد خلف الله ، وأن ما قصده الشيخ خلاف ما قصده خلف الله .
وأن ما قرره الشيخ بين جدران الأزهر كان حديثاً خالياً من روح
التحامل ، وإنما هو رأي المجتهد ليس إلا ، ولو استبان للشيخ خطأ رأيه
فإني لا أكاد أشك بأنه ستراجع عن رأيه هذا لما عرفناه فيه من إيمان
وتقوى .

وأما ما قرره الدكتور محمد أحمد خلف الله فلا يكاد يخلو من التعسف
والإسراف وهي زلة قدم ، ولعل ما يؤكد قولي هذا ما قاله المشرف على
الرسالة الدكتور أمين الخولي : « فلو لم يبق في مصر والشرق أحد يقول إنه
حق ، لقلت وحدي وأنا أقذف في النار : إنه حق حق » .

وهذه لهجة الدكتور طه حسين في التمسك بوجهة النظر حتى لو
كانت مخالفة للواقع وهو نوع من المغالطة والمكابرة .

كما نجد الدكتور خلف الله يقف متسائلاً « عن سر تكرار القصة
وبخاصة حين تكون الأحداث القصصية واحدة ، والمواد التاريخية

(١) حدثنا عبد الله بن أبي الأسود ، حدثنا حرمي بن عمارة ، حدثنا شعبة بن قتادة عن
أنس رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « يلقي في النار ، وتقول : هل من
مزيد ؟ حتى يضع قدمه فتقول : قط قط » أي : حسبي حسبي .

الحديث في فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري - للإمام الحافظ أحمد بن
علي بن حجر العسقلاني - الجزء الثامن - طبعة المطبعة السلفية ومكنتها (٥٩٤) .

متشابهة ، أمر يحتاج إلى تعليل وإلى بيان وإيضاح ؟ »

سؤال آخر سألَه العقل الإسلامي نفسه فيما يخص هذا التكرار ، وهو أنه على فرض قدرته على الوقوف على الأسرار التي من أجلها كان التكرار ، فلماذا كان هذا الاختلاف ؟ لماذا اختلف إيراد القصة الواحدة في موطن عنه في آخر ؟ لماذا اختلف وصف القرآن لموقف موسى من ربه في سورة طه عنه في غيره من السور مع أن الموقف واحد والحادثة واحدة ؟ لماذا قال القرآن في سورة طه : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ۖ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي مَنَّائِيكُمْ مِنْهَا يُقْبَسُ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ۖ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ بِمُوسَى ۖ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۖ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ۚ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ۚ إِنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ۚ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ۚ وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ بِمُوسَى ۖ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَنَاصِبُ أُخْرَىٰ ۚ قَالَ أَلَيْهَا يَتَمُوسَى ۖ قَالَ لَقَدْهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۚ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ۚ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ءَايَةٌ أُخْرَىٰ ۚ لِزَيْنِكَ مِنْ ءَايَاتِنَا الْكُبْرَىٰ ۚ أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۖ ﴾ (طه : ٩ ، ٢٤) .

ولماذا قال في سورة النمل عن نفس الحادثة والموقف : ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَتَابِئُكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ بَأْتِكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۖ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۚ يَتَمُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۚ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدَبِّرًا لَّا يَعْقِبُ يَتَمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمَرْسُلُونَ ۚ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ۚ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ ءَايَاتِ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ۖ ﴾ (النمل : ٧ ، ١٢) .

ولماذا في سورة القصص غير هذين ؟

إن الموقف واحد ، وإن الحادثة واحدة ولكن الوصف مختلف والحوار غير الحوار ، وحديث الرب العليّ مع موسى النبي في موطن غيره في آخر .
لقد حاول العقل الإسلامي أن يجيب عن أمثال هذه الأسئلة التي

تخص تكرار القصص القرآني واختلاف الوصف والتصوير ، ولكنه لم يهتد إلى رأي قاطع ، من هنا رأى الكثيرون عد القصص القرآني من الآيات المتشابهات .

يقول الطبري : « المتشابه : هو ما اشتبهت الألفاظ به من قصصهم عند التكرار ، فقصة باتفاق الألفاظ واختلاف المعاني ، وقصة باختلاف الألفاظ واتفاق المعاني » .

وكذلك يقول غيره من شيوخ المفسرين : ولو أن العقل الإسلامي أقام فهمه للقصص القرآني على أساس فني وأدبي لما وقف هذه الوقفة ، ولعرف منذ اللحظة الأولى الذي عده تكراراً ليس من التكرار في شيء ، لأن هذه المواد التاريخية غير مقصودة من القصص وأن مقاصد القرآن من مواعظ وعبر ومن إنذارات وبشارات تختلف في موطن عنها في آخر ، ومن هنا كان الاختلاف ، لأن اختلاف المقاصد يدفع من غير شك إلى اختلاف الصور الأدبية مقصد القرآن من قصة موسى في سورة طه غيره من قصة موسى في سورة النمل ، وقصة موسى في سورة طه قصة مستقلة ، وقصته في سورة النمل قصة مستقلة ، ومن الوجهة الأدبية هذه قصة وتلك أخرى ، وعلى هذا فلا تكرار ولا اختلاف ولا تشابه « انتهى كلام الدكتور خلف الله ^(١) .

وأقول وبالله التوفيق : قد يبدو لأول وهلة أن بعض الآيات القصصية قد تعددت في منطوقها واختلفت في عبارتها ، مما قد يظن معه أصحاب العقول السطحية أن القصص القرآني قد شابه الاضطراب وفاته الإحكام .

كما قد يظن المفترون بأن هناك ثغرة يمكن أن يسددوا منها سهامهم للنيل من إحكام القرآن وإعجازه ، ووصمه بالاضطراب والخلط كما خيل للدكتور خلف الله . .

ولكن الحقيقة غير هذا ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ (النساء : ٨٢) .

(١) الفن القصصي في القرآن الكريم - د . محمد أحمد خلف الله الطبعة الرابعة (٣٣) - (٣٤) .

لنأخذ قصة موسى في سورة طه ، قال تعالى : ﴿ إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدًا عَلَىٰ النَّارِ هُدًى ۖ ﴿١٦﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمْوَسَّىٰ ﴿١٧﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٨﴾ وَإِنَّا أَخَرْتكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٩﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿٢٠﴾ إِنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿٢١﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴾ (طه : ١٠ ، ١٦) .

وفي سورة النمل ، قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَتَابِثَةٌ مِّنْهَا يَخْبَرُ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾ يَمْوَسَّىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (النمل : ٧ ، ٩) .

في سورة القصص ﴿ ٢٩ ، ٣٠ ﴾ ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَىٰ الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْوَسَّىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (القصص : ٢٩ ، ٣٠) .

فبالأمل في تلك الصور الثلاث ، نلمح أن هناك اختلافاً ظاهرياً في بعض العبارات :

في سورة طه : ﴿ لعلي آتيكم منها بقبس ﴾ .

في سورة القصص : ﴿ لعلي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ﴾ .

في سورة النمل : ﴿ سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون ﴾ .

وفي المناداة الإلهية في سورة طه : ﴿ إني أنا ربك فاخلع نعليك ﴾ .

في سورة النمل : ﴿ يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم ﴾ .

في سورة القصص : ﴿ أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين ﴾ .

وهكذا نرى اختلاف القصة في السور الثلاث من حيث بعض العبارات التي وردت في كلام الباري عز وجل ، أو على لسان الكلیم عليه

السلام .

ولأنني أرى أن هذا لا يعد اختلافاً في القصص ولا تبايناً في الألفاظ التي تؤدي إلى تضارب المعاني ، إذ أنه مع هذا الاختلاف اللفظي الذي قد يحدث أحياناً في خلال القصص المكررة إلا أن ما تهدف إليه العبارة وما تشير إليه متفق تماماً وليس فيه شيء من التعارض الذي يجعل سياق القصة غير متناسق مع القصص التي تحكى في سور أخرى .

فموسى عليه السلام رأى ناراً ، ومع ذلك هو يأتي منها بقبس ، أو بخبر ، أو بجذوة ، أو يجد عليها هدى .

والله عز وجل ناداه سواء بقوله : ﴿ إني أنا ربك ﴾ أو بقوله : ﴿ أنا الله العزيز الحكيم ﴾ أو بقوله : ﴿ إني أنا الله رب العالمين ﴾ كلها معان مؤداها واحد ، ومغزاها متفق تماماً ، ومن المعلوم أن الله سبحانه لم يخاطب موسى بتلك اللغة العربية ، كما أن موسى لم يحدث أهله بتلك اللغة والعبارة ذاتها .

وعلى هذا فلا مانع من أن الله عز وجل يقرب هذه المعاني والعبارات إلى أفهام العرب ، وما اصطالحوا عليه من ألفاظ ، وعلى هذا فالعبارات الواردة في السور الثلاث ما كانت لتعبر تماماً عن مفاهيم الألفاظ العربية ، ولترجم عن المعاني التي ألفها الناس حينئذ .

على أن القصة القرآنية ليس هدفها أن تحكي عبارة بعينها أو لفظاً كما هو ، وإنما هدفها الأساسي هو التعبير عن مشاعر الرسل والأمم الذين بعثوا إليهم ولن يكون التعبير كاملاً بالألفاظ فحسب ، وإنما يكون بالأحداث التي انبثقت من حياتهم فتحركت بها مشاعرهم ، ونبض بها وجدانهم .

فالقصص القرآنية تترجم عن المشاعر والسلوك النفسي والعمل قبل أن تترجم عن نبرة صوتية ، أو محاكاة لفظية .

على أن في اختلاف هذه التعبيرات اللفظية مع الاتفاق في الغاية القصصية ، والأحداث المعنوية ، دليل قوي على روعة القصص القرآني ، وبرهان ساطع على إعجازه ، فمع تكرار القصة الواحدة بأساليب مختلفة فإن

مغزاها واحد ، وأحداثها متفقة وكل قصة تكمل الأخرى ، فهي كالبنيان يشد بعضه بعضاً ، على أن هذا الاختلاف اللفظي قد يكون مبعثه الإطناب والإيجاز كما هو واضح في سورة طه الآيات (١٧ ، ١٨ ، ١٩) .

﴿ وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَتُومَتَيْنِ ﴾ (٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَاهْتَمُّ بِهَا عَلَى غَنِيِّ وَلِيٍّ فِيهَا مَتَارِبٌ أُخْرَى ﴿٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَتُومَتَيْنِ ﴿٩﴾ .

وفي سورة القصص الآية (٣١) ﴿ وَأَن أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ .

وفي سورة النمل الآية (١٠) ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ ﴾ .

فنرى في سورة طه حديثاً مطولاً عن عصا موسى ، فالله يسأله وهو يجب ليبين فائدة عصاه ، ثم بعد ذلك يطلب منه الحق عز وجل أن يلقي عصاه .

أما في سورة النمل وسورة القصص فلم نر شيئاً من التفصيل عن عصا موسى ، ولم نر السؤال والجواب الذي لمسناه في سورة طه ، وإنما رأينا الأمر الإلهي لموسى بأن يلقي عصاه .

إذن فليس هناك تضارب في هذه القصة الموسوية حينما تكررت في ثلاث سور ، وإنما هو الإيجاز والإطناب الذي ربما قد أحدث شيئاً من الاختلاف في سرد القصة ، وبالتأمل في سورة طه نرى أن العصا حينما ألقاها موسى إذا هي حية تسعى ، وفي سورة القصص كانت جاثاً .

وسبق أن قلت : إنه ليس هناك تضارب بين هذا وذاك ، فالحية أول حالها ، والجنان مآلها ، فهو يتحدث عن البداية والنهاية ، وعلى كل فإن أثر إلقاء العصا على نفس موسى هو الذعر والخوف في الصور الثلاث ، وإن اختلفت العبارة الدالة على ذلك ، ففي سورة طه : ﴿ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴾ ، وفي سورة النمل : ﴿ فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌ وَلِيٌّ مُدْبِرٌ أَوْ لَمْ يَعْقِبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ ﴾ ، وفي سورة القصص : ﴿ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴾ .

إذن فالصور الثلاث تتفق تماماً في أثر إلقاء العصا على نفس موسى ، وإن اختلفت في شيء من شكلها لتبرهن على أن العصا حينما ألقاها موسى فانقلبت إلى شيء خفيف لم تثبت على حالة واحدة .

وهكذا نلمس قوة القرآن الكريم في إحكامه ، وربطه ، وعدم تضاربه .

أما أن يكون هذا الاختلاف اللفظي مبعثه اختلاف الموقف القصصي ، فما دامت القصة قد وردت لغرض ومقصد كالتسلية والتسرية عن النبي ﷺ ، فلا بد أن تتناول في كل موقف شكلاً معيناً ربما قد يغير الشكل الآخر الذي تحكيه سورة أخرى ، على معنى أن كل سورة قد تحكي قصة ، فهذه قصة وتلك قصة ، وعلى ذلك لا تكون هناك مشكلة قائمة على هذا الاختلاف ، لأننا لم نربط بين القصتين حتى يقوم التعارض والاختلاف .

وهذه مقالة الدكتور خلف الله .

وليس الأمر كذلك إذ أني أرى أن السور القرآنية المتعددة وإن تحدثت عن قصة واحدة فإنما تكرر حدثاً واحداً ، وقصة دارت بين قوم ، وليس من المعقول أن كل سورة من القرآن تتناول قصة على غير القصة التي وردت في سورة أخرى .

إن السور القرآنية تحكي قصة واحدة ، ولكنها تعرضها بأساليب مختلفة ، مما يتناسب مع لغة العرب ، ويتلاءم مع أفهام الناس سواء في شيء من الإيجاز ، أو في شيء من التفصيل ، وليس من المعقول في شيء أن يكون هدف القصة القرآنية هو الكشف عن موضع العبرة ، وموطن العظة دون قصد إلى تقرير خبر بعينه ، فإن العبرة والعظة - على ما أرى - لن تنكشف على حقيقتها إلا حينما نلمس حدثاً معيناً ، وموقفاً خاصاً ، وبذلك يكون تقرير الخبر بعينه من العوامل الهامة في روعة القصة ، والاتعاظ بها ، فتكون كما قال الحق عز وجل : ﴿ عبرة لأولي الألباب ﴾ .

الفصل الثالث

أباطيل القائلين بالإعجاز بالصرّفة
في أسلوب القرآن الكريم
والردّ عليهم

آراء القائلين بالإعجاز بالصرقة مع الرد عليهم

هذا وقد قال جماعة بالصرقة ، والمراد أن الله سبحانه صرف العرب والعجم عن الإتيان بمثل هذا القرآن مع قدرتهم عليه .
ولعل الجاحظ ، وهو من القائلين بهذا القول ، يعرض وجهة نظره في

الموضوع وهو يقول حين يتكلم عن تفسير قوله تعالى :

﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْيَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾
لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَنٍ مُبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ
فَقَالَ أَحَاطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا
تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَمَّا عَرَّشْتُ عَظِيمًا ﴾ (النمل : ٢٠ ، ٢٣) .

يورد الجاحظ هنا اعتراضاً^(١) فيقول : « إن الله أعطى سليمان ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده ، فملكه على الإنس والجن والطيور ، وسخر له الريح ، فكيف لا يعرف ملكة سبأ مع قرب دارها ؟

ثم يقول : لله تدبير تعجز عن فهمه العقول .

ويقول أيضاً : كان يعقوب أنبأ أهل زمانه ، وكان يوسف عليه السلام وزير ملك مصر ، وكان من الشهرة بمكان عظيم ، ثم لم يعرف أحدهما مكان الآخر ؟

ويمثل الجاحظ أيضاً بموسى بن عمران عليه السلام ، ومن كان معه في التيه لمدة أربعين عاماً في مقدار فراسخ يسيرة ولا يهتدون إلى مخرج منها ، وما كانت بلاد التيه إلا ملاعبهم ومنتزهاتهم ، ولكن الله صرف أوهامهم .
ويمثل بذكرى عليه السلام ، وكيف صرفه الله عن النطق ثلاثة أيام إلا رمزاً .

ثم يقول : ومثل ذلك ما رفع من أوهام العرب ، وصرف من نفوسهم عن المعارضة للقرآن بعد أن تحداهم الرسول ﷺ بنظمه .
ولذلك لم تجد أحداً طمع فيه ، ولو طمع فيه لتكلفه . . . ولكثر فيه

(١) الحيوان - للجاحظ - الجزء الرابع (٣٠) .

القليل والقال .»

ويشهد للجاحظ في كلامه هذا ابن حزم حيث يقول : « فما من بلغائهم أحدٌ يتكلف معارضة القرآن إلا افتضح وسقط وصار مهزأة ومعية يُتَمَاجَنُ به ، منهم مسيلمة بن حبيب الحنفي لما رام ذلك ، لم ينطق لسانه إلا بما يُضحك الثكالي والمفجوعين^(١) .»

أما النظام ، وهو أستاذ الجاحظ ، فهو من أشهر القائلين بالصرقة ، وهي أن الله صرف العرب عن معارضة القرآن مع قدرتهم عليها ، فكان هذا الصرف خارقاً للعادة^(٢)

وكان يقول : إن الله تعالى ما أنزل القرآن ليكون حجة على النبوة ، بل هو كسائر الكتب المنزلة لبيان الأحكام من الحلال والحرام .
والعرب إنما لم يعارضوه ، لأن الله تعالى صرفهم عن ذلك وسلب علومهم به^(٣) .

وابن سنان الخفاجي هو الآخر يقول بالصرقة ، يقول ياقوت الحموي في معجم الأدباء : « قرأت بخط عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الشاعر في كتاب له ألفه في الصرقة زعم فيه أن القرآن لم يخرق العادة بالفصاحة حتى صار معجزة للنبي ﷺ وإن كل فصيح بليغ قادر على الإتيان بمثله ، إلا أنهم صرفوا عن ذلك لا أن يكون القرآن في نفسه معجزاً بالفصاحة »^(٤) .

(١) إعجاز القرآن للرافعي (١٤٤) الناشر : دار الكتاب العربي - بيروت - الطبعة الثامنة .

(٢) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للفخر الرازي .

(٣) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للفخر الرازي .

(٤) معجم الأدباء لياقوت الحموي - الجزء الثالث (١٢٩) - الطبعة الثانية - مكتبة عيسى البابي الحلبي .

تفنيد آراء القائلين بالصرقة والرد عليهم

والواقع أن القول بالصرقة قولٌ كليلٌ ، تخبط فيه كثير من فطاحل العلماء حتى الإمام الفخر الرازي عند ما سئل عن السور القصار ، أجاب بأن ما خرج في القرآن من السور عن حد الإعجاز دخلته الصرقة .
والإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله نراه يرى هذا الرأي ثم يقع في التناقض حين يريد الرد عليه وعلى القائلين به .
وأما ما ذهب إليه النظام والجاحظ ، ومن سار على نهجهم من قصة زكريا عليه السلام فحجة فيما نحن بصددده .

إذ الآية كانت في سلبه النطق لا في نطق غيره .
ثم كيف يحصل التحدي بالإعجاز ووجه الإعجاز خافٍ ، وإذا ثبت كونه معجزاً تعين أن يكشف عن وجه الإعجاز إذ لا يصح التحدي بشيء مع جهل المخاطب بالجهة التي وقع بها التحدي ، ولو كان ذلك لكان الأمر ضرباً من الإسفاف .

ويعقب الرافعي على القول بالصرقة بقوله : « وهو قول لو قال به صبية المكاتب ، لكان ذلك من تخاريفهم فيما لا يعرفون ليوهموا الناس أنهم يعرفون »^(١) .

(١) إعجاز القرآن / لمصطفى صادق الرافعي - الطلعة الثامنة (١٤٥) .

ويقول الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله في نقض القول بالصرقة هذا : وقد اعترض عليه بوجوه ثلاثة :

١ - لو كان الأمر كذلك لما تعجب العرب من فصاحة القرآن ، بل كان عجبهم من تعذر ذلك عليهم مع أنه في مقدورهم .

٢ - لو كان كلامهم قبل التحدي مقارباً لفصاحة القرآن ، ثم صار كلامهم بعد التحدي منحطاً عنه كثيراً لصح القول بالصرقة ، ولكن ذلك ليس واقعاً .

٣ - لو نقل أن العرب زالت عقولهم حين التحدي ، لصدقنا القول بالصرقة ، ولكن عقولهم لم يصبها شيء حيثل . . ومنه يُرى أن الإعجاز ليس بالصرقة .

خلاصة قول الإمام رحمه الله أنه لو صح القول بالصرقة لكان المعجز الصرقة وليس القرآن .

وأقول هنا : إن القول بالإعجاز بالصرقة ضرب من التمثل لا مبرر له ، فالقرآن معجز وقد تحدى الله به العرب والعجم والإنس والجن على حد سواء ﴿ قُلْ لِّیْنَ أَجْتَمَعْتَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَیْ أَنْ یَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا یَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِیرًا ﴾ (الإسراء : ٨٨) .

فلو لم يكن الإعجاز قائماً بذاته في القرآن لما حصل به التحدي ، وكيف يتصور أن يتحدى رب العالمين بإعجاز القرآن ، ثم يسلب آلة التحدي من الآخرين .

هب أن رجلاً دخل المعركة وهو مشتمل بآلة حربه ، متسريل بسيفه ورمحه ، ثم طلب المبارزة ، هل يتصور منه أن يطلب من مبارزه أن يكون أعزل من آلة حربه ؟!

حينئذ لم تكن هناك نصفة وليس للفارس أي حق في ادعاء الشجاعة . إن المولى عز وجل لم ينزل القرآن ويقيم الشواهد على التحدي به إلا وقد وجدت الآلة للتحدي من الناس جميعاً ، فحروف القرآن هي نفس حروفكم ، وألفاظه رُكبت من ألفاظكم ، وأنتم أهل اللسان وفرسان الكلام !

فما بالكم واجمون ؟! وعن طريق الحق ناكبون ؟! وبالعجز مقرّون ؟!

إلا أن هذا القول فوق طاقتكم ، لأن كلام الخالق ليس كلام المخلوق ؟

من هنا وجب الإذعان ، وتأكد الإقرار بصدق ما جاء به النبي ﷺ من ربه وأنه المعجزة الخالدة على مرّ الأجيال وتعاقب الأزمان ، وصدق الله القائل : ﴿ الرَّ كِتَابُ أَحْكَمْتُ ءَايَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ (هود : ١) .
والقائل : ﴿ وَلَوْ كَانَتْ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ (النساء : ٨٢) .

هذا ولا يخفى علينا بأن رغبة أعداء الإسلام في معارضة القرآن شديدة ، ولكنهم يحسّون في أنفسهم العجز عنها ، ولو كانوا قادرين لما سكتوا .

بل حصلت المحاولات من بعضهم ، فما زاد على أن جاء بكلام فضح به نفسه وصيرّه معيرة ومهزأة لأبناء جنسه .
وهذا تحقيق لما أخبر به القرآن من عجز الخلق عن الإتيان بمثله . من

هؤلاء : مسيلمة الكذاب ومن نهج نهجه .
وأما قول الجاحظ بأن الله قد صرف العرب عن معارضته كما صرف زكريا عن التكلم ، قال تعالى على لسان زكريا :
﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ (مريم : ١٠) .

فإن زكريا عليه السلام لم يكن عاجزاً عن الكلام فيما مضى وهو الذي اختار هذه الطريق حينما طلب من ربه آية ، ويصدق مثل هذا التمثيل لو كان في مقدور العرب الإتيان بمثله ، ثم فجأة يجربون عنه وعن التكلم بمثله ، إن العرب لم يشكوا منذ أول لحظة سمعوا فيها القرآن بإعجازه ، ثم كان هناك من الدواعي التي تدفعهم إلى التفكير في معارضته الكثير .
فهم لا يقرون بنبوة النبي ﷺ ويكذبونه فما كان أحرى بهم أن يحاولوا مجاراته فيما جاء به ليغضوا منه ولينقضوا صدق دعواه .
ولكنهم عجزوا وظلّوا واجمين .

أما عن عدم معرفة سليمان عليه السلام لمكان بلقيس وقرب دارها ، فذاك ليس للصرفة ، ولكن هو من علم الغيب ، وسليمان عليه السلام نبيّ ملك ، وعلم الغيب من اختصاص ربّ العزة والجلال ، فما كان لسليمان عليه السلام أن يعلم ما غاب عنه ، ولعل في هذا حكمة خافية ظهرت لنا الآن .

لربما أن سليمان عليه السلام ، وهو الذي استخدم الجنّ والإنس والشياطين كان من الإنس والجنّ من يتبادر إلى ذهنه أنه يعلم الغيب ، فنفى الله عنه هذا ، وأوضح أن هذا من خصوصيات ربّ العزة والجلال .
كما سبق وأوضح للإنس الذين يتوهمون أن الجن يعرفون الغيب ، فأوضح تعالى أن ذلك ليس في مقدورهم ، لأن نبي الله سليمان كان الجن يعملون بين يديه ليلاً ونهاراً ، وهو متكئ على عصاه وميت حتى أكلت

الأرضة عصاه ، فسقط كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُمْ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَن لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ (سبا : ١٤) .

والعذاب المهين : أنهم كانوا يعملون ويكذون ، ولو تبادل لذهنهم لحظة واحدة أنه مات لما كلفوا أنفسهم مشقة المعاناة ولتفرقوا في كل حذب وصوب .

وقل مثل ذلك في يعقوب مع ابنه يوسف عليهما السلام فالمسألة لا تخرج عن إطار الغيبات .

وأما يوسف فقد كان يعلم مكان أبيه ، وكان باستطاعته لو لم يعرفه أن يرسل من يبحث عنه .

لكن كيف له ذلك وهو في غيابة السجن ، وحينما خرج وتولى خزائن الأرض لم يتردد لحظة واحدة حينما وافته الفرصة في استحضار أبيه ، ولكن بعد أن طلب إحضار أخيه ليكون الوسيلة لحضور يعقوب ، وبمشابة التهيئة ليعقوب عليه السلام ﴿ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ (يوسف : ٧٦) وبذلك يتم اجتماع الشمل في مكان طيب خصب ﴿ وَرَفَعَ أَبُوتَهُ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَأْبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُمْ هَوَّاءُ الْعَالَمِينَ الْحَكِيمِ ﴾ (يوسف : ١٠٠)^(١) .

وأما زكريا عليه السلام فلم يكن عاجزاً عن الكلام فيما سبق وهو الذي طلب من ربه آية فكانت الآية التي طلب من زكريا التقيد بها ﴿ إِلَّا تَكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ (مريم : ١٠) .

أما العرب فكانوا عاجزين من قبل ولم يختلف حال قدرتهم قبل سماعه وبعد سماعه ، فلم يجدوا أنفسهم عاجزين عما كانوا عليه قادرين ، كما وجد زكريا عاجزه عن الكلام بعد قدرته عليه .

(١) ورؤى الأنبياء حق قال تعالى : ﴿ يَا إِبْرَاهِيمَ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ﴾ [الصافات : ١٠٤ ، ١٠٥] ﴿ لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ﴾ [الفتح : ٢٧] .

يقول الإمام الخطابي رحمه الله :

« ومعلوم أن رجلاً عاقلاً لو عطش عطشاً شديداً خاف منه الهلاك على نفسه ، وبحضرته ماء معروض للشرب فلم يشربه حتى هلك عطشاً ، لحكمنا أنه عاجز عن شربه غير قادر عليه ، وهذا بين واضح لا يشك على عاقل .

ولو كان الله عز وجل بعث نبياً في زمان النبوات ، وجعل معجزته في تحريك يده أو مد رجله في وقت قعوده بين ظهراي قومه ، ثم قيل له : ما آيتك ؟ فقال : آيتي أن أحرك يدي أو أمد رجلي ، ولا يمكن أحد منكم أن يفعل مثل فعلي ، والقوم أصحاب الأبدان لا آفة بشيء من جوارحهم ، فحرك يده أو مد رجله ، فراموا أن يفعلوا مثل فعله فلم يقدروا عليه ، كان ذلك آية دالة على صدقه »^(١) .

ونحن نرى أن القائلين بالصرفة يرون أن الفصاحة العربية المعهودة قبل الإسلام قد توقفت أو تضاءلت بعد ظهوره دون أن يشعروا بتوقفها ، ولو صبح هذا لما استطاعوا أن يتذوقوا إعجاز القرآن الكريم على النحو الذي سمع من كثيرين شهدوا بأنفسهم أن القرآن الكريم ليس شعراً ولا نثراً ولا كهانة ، ولا شيئاً من ذلك على الإطلاق ، فكيف يقال عن قوم هذا شأنهم : إنهم سلبوا الفصاحة ؟

من جهة ثانية : فإنهم لو أحسوا صرفاً عن فصاحتهم لتحذثوا عنه ، وهذا ما لم ينقل عنهم ، وإنما الذي نقل عنهم ما بينته الآية الكريمة : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا

(١) رسالة الخطابي « في بيان إعجاز القرآن » من ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن - الطبعة الثالثة - (٢٢ - ٢٣) .

والخطابي هو الإمام أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي ينتهي نسبه إلى زيد بن الخطاب شقيق عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ولد سنة ٣١٩ هـ ، وتوفي بالقرب من كابول في بست سنة ٣٨٨ .

وقد تلقى العلم في البصرة وبغداد ، وأقام بمكة فترة من الزمن ، ثم عاد إلى خراسان وأقام في نيسابور ، واستقر به المطاف في بست حتى لقي ربه رحمه الله رحمة واسعة .

أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ ﴿ (الأنفال : ٣١) .

ويدفع الإمام الزركشي هذا الوجه بقوله : « وهو قول فاسد بدليل قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ (الإسراء : ٨٨) .

فإنه دليل على عجزهم مع بقاء قدرتهم ، ولو سلبوا القدرة لم يبق فائدة لاجتماعهم لمنزلته منزلة اجتماع الموتى ، وليس عجز الموتى بكبير يحتفل بذكره .

هذا مع أن الاجتماع منعقد على إضافة الإعجاز إلى القرآن ، فكيف يكون معجزاً غيره وليس فيه صفة الإعجاز ، بل المعجز هو الله سبحانه ، حيث سلبهم قدرتهم على الإتيان بمثله ؟!

وأيضاً : يلزم من القول بالصرقة فساد آخر ، وهو زوال الإعجاز بزوال زمان التحدي ، وخلو القرآن من الإعجاز ، وفي ذلك خرق لأجماع الأمة ، فإنهم أجمعوا على بقاء معجزة الرسول العظمى ولا معجزة له باقية سوى القرآن ، وخلوه من الإعجاز يبطل كونه معجزاً^(١) .

ثم يورد رداً للإمام القاضي أبي بكر الباقلاني حيث يقول : « ومما يبطل القول بالصرقة أنه لو كانت المعارضة ممكنة - وإنما منع منها الصرقة - لم يكن الكلام معجزاً »^(٢) .

وابن القيم رحمه الله يقول : « وقال قوم : إعجازه : صرف الله خلقه عن الإتيان بمثله ولولا ذلك لدخل تحت مقدورهم . . . يقول وقد اعترض على هذا القول بوجوه ثلاثة :

الأول : أن عجز العرب عن المعارضة لو كان من أجل^(٣) أن الله تعالى عجزهم عنها بعد أن كانوا قادرين عليها لما كانوا مستعظمين لفصاحته ، بل يجب أن يكون تعجبهم من تعذر ذلك عليهم ، بعد أن كان مقدوراً لهم كما أن نبياً لو قال : معجزني أي أضع يدي على رأسي هذه

(١) البرهان في علوم القرآن - للزركشي - (٩٤) الجزء الثاني - الطبعة الثانية .

(٢) إعجاز القرآن - للباقلاني - (٣٠) - الطبعة الثالثة - دار المعارف بمصر .

(٣) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان - لابن قيم الجوزية - الطبعة الأولى

ص (٣٨٦ ، ٣٨٧) .

الساعة ، ويكون ذلك متعذراً عليكم ، ويكون الأمر كما زعم لم يكن تعجب القوم من وضعه يده على رأسه ، بل تعذر ذلك عليهم ، ولما علمنا بالضرورة أن تعجب العرب كان من فصاحة القرآن نفسه بطل القول بالصرفة .

الثاني : لو كان كلامهم مقارباً في الفصاحة قبل التحدي لفصاحة القرآن ، لموجب أن يعارضوه بذلك ، ولكان الفرق بين كلامهم بعد التحدي وكلامهم قبله ، كالفرق بين كلامهم بعد التحدي وبين القرآن ، ولما لم يكن كذلك بطل ذلك .

الثالث : إن نسيان الصيغ المعلومة في مدة يسيرة يدل على زوال العقل ، ومعلوم أن العرب مازالت عقولهم بعد التحدي ، فبطل أن يكون الإعجاز بالصرف بل الإعجاز ليس بالصرف .
يقول الرافعي : « وعلى الجملة فإن القول بالصرفة لا يختلف عن قول العرب (إن هذا إلا سحرٌ يُؤثر)^(١) .

وهذا زعم رده الله تعالى على أهله وأكذبتهم فيه ، وجعل القول فيه ضرباً من العمى ﴿ أَفَسِحْرُهُذَآءَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ (الطور : ١٥) .
ووجه الشبه في كلا القولين : أن إعجازه لأمر خارج عنه لا لذاته .
وكلمة أخيرة في الموضوع : أن الناس في القرآن بين أمرين : إما أنهم أحسوا العجز عن مقارعة أمر خارج عنه ، وهو ما يقول به دعاة الصرفة : أنهم قادرون على الإتيان بمثله ، ولكن الله سبحانه عز وجل صرفهم عن ذلك .

فهذا مع التسليم به - جدلاً - من أبلغ الخوارق على صدق القرآن ، لأن المنع من المعتاد كإحداث غير المعتاد .
والأمر الثاني : أنهم عاجزون أصلاً لأمر قائم بذاته في القرآن ، وهو إعجازه الكامن في ألفاظه ، في جرسه ، في فصاحته في تناسقه ، في إخباره بالغيبيات ، في قصصه . . إلخ فقد ثبت أنه خارق للعادة .
والصواب المقطوع به أن الخلق كلهم عاجزون عن معارضته لا

(١) إعجاز القرآن للرافعي (١٤٦) الطبعة الثامنة .

يقدرّون على ذلك ، قال تعالى : ﴿ قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ (الإسراء : ٨٨) .

ذلك العجز لأنه كلام رب العالمين الذي أحاط بكل شيء علماً .
والواقع أني أستبعد نسبة القول في الصرفة للنظام والجاحظ وغيره من هؤلاء الأئمة الأعلام .

وقد يكون هذا من وضع بعض الذين يحاولون الغض من قيمة هؤلاء العلماء ، وقد يكون مصدر استبعادي لهذا يعود لأمر منها :
إقرار بعض هؤلاء العلماء من أمثال الجاحظ بما في القرآن من نظم وبيان معجز ، وقد أنكر الصرفة وردّ عليها في أحد قوليّه .

والزنجشري يقول : إن إعجازه إنما هو من أحد وجهين ما فيه من مغيبات ، ثم نظمه حيث يقول فيه : « وهو أم إعجاز القرآن والقانون الذي وقع الذي وقع عليه التحدي ، ومراعاته أهم ما يجب على المفسّر »^(١) .
من هنا فقد أنكر الزنجشري الصرفة ، ولم يستدل بها على الإعجاز ، وهو من هو بين علماء المعتزلة .

والفكرة فكرة الصرفة أساساً ليست وليدة الفكر العربي ، وإنما هي من أقوال الهند ، فالصرفة قال بها الهنود البراهمة متأثرين بكتاب « البندا » الذي يحوي بعض أشعار يزعمون بأنه ليس في كلام الناس ما يدانيها ، وأنهم مصروفون عن أن يأتوا بمثلها ، صرفهم عنها (براهما) ، وناهيك

(١) الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل - للزنجشري - الجزء الثاني - (٢٤) - مطبعة مصطفى البابي الحلبي .

والزنجشري : هو الإمام أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي الزنجشري صاحب التآليف الزاهرة ، والتصانيف الفائقة الباهرة ، كان إمام عصره من غير مدافع تشدّ إليه الرحال من كل مكان شاسع .

ولد يوم الأربعاء السابع والعشرين من شهر رجب ٤٦٧ هـ بزنجش من قرى خوارزم وتوفي رحمه الله ليلة عرفة ٥٣٨ هـ عن إحدى وسبعين عاماً بجرجانية من أرض خوارزم ، وراثه بعضهم فقال :
حزناً لفرقة جارِ الله محمود
فأرض مكة تُذري الدمع مُقلَّتْها

عن تحاريف اليهود وكفرهم .

ويترتب على القول بالصرقة :

أولاً : أن القرآن الكريم ليس في درجة من البلاغة والفصاحة تمنع محاكاته وتعجز القدرة البشرية على أن تأتي بمثله ، فالعجز ليس من صفات القرآن الذاتية .

ثانياً : الحكم بأنه ككلام الناس لا يزيد عليه في شيء من بلاغته أو في معانيه ، إذا ثبت هذا وقد عرفنا ما للقوم من قدم راسخة في العلم ومساهمة في خدمة^(١) القرآن ، فينبغي أن نحكم ونحن مطمئنون على أن هذه الأقوال قد دسّت على هؤلاء الأئمة الأعلام ، وروج لها ما كان القوم فيه من اهتمام بالفلسفة وعلم الكلام .

« وصفوة القول : إن مدرسة المعتزلة تمثل في الفكر الإسلامي الطبقة المثقفة الواعية المدافعة عن الإسلام ، فقد كان منها علماء الكلام المتبحرون وأئمة في النحو وأعلام في التفسير »^(٢) .

ثم لو كان العرب قد صرفوا عن معارضته فإن من قبلهم لم يكونوا مصروفين عنه ، لأنهم لم يتحدثوا به فكان من الجائز أن نعثر في كلام العرب الأقدمين على ما يشبه القرآن ، وذلك ما لم نجده في تاريخ أدبهم^(٣) .

وصدق الله القائل : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَةٌ بِهِ أَلْمُوقٌ بَلَّ اللَّهُ الْأَمْرَ جَمِيعًا ﴾ (الرعد : ٣١) .

وقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانٍ نَقْشِئِرٌ مِنْهُ جُلُودٌ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ (الزمر : ٣٣) .

أبعد هذه الأوصاف الذاتية التي تشهد بمنزلة وعلو هذا الكتاب المعجز يبقى حديث لمتقول بالصرقة .

(١) المعجزة الكبرى القرآن - للشيخ محمد أبو زهرة - الناشر : دار الفكر العربي (٧٦) .

(٢) منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه - للدكتور / مصطفى الصاوي الجويني - الطبعة الثانية - (٧١) .

(٣) عن كتاب إعجاز القرآن - للباقلاني - الطبعة الثالثة (٣٠) .

الفصل الرابع

أباطيل القائِلين بإمكانية المعارضة في
أسلوب القرآن الكريم مع الرد عليهم
والمستشرقون والقرآن مع الرد عليهم
في افتراءاتهم

تقديم

لم يتعرض كتاب من الكتب السماوية إلى محاولة النيل والغض منه ما تعرض له هذا الكتاب العزيز .

ثم من من ؟

من أقرب الناس إلى صاحب الرسالة وهو رسول الله ﷺ !
لقد حاولت قريش بكل ما أوتيت من قوة النيل من القرآن والغض من قيمته ، ولكنهم لم يفلحوا فانقطعوا حتى عن محاولة معارضته أو التفكير في الإتيان بمثله .

مع أن التحدي ما زال قائماً حتى الآن ، وسيظل حتى يقوم الناس لرَبِّ العالمين . . ومع مكابرة القوم وعنادهم فقد كانوا يجدون له وقعاً في القلوب ، وقرعاً في النفوس يريهم ويحيّرهم .

فهذا الوليد بن المغيرة من زعماء المشركين جاء إلى النبي ﷺ فقرأ عليه النبي ﷺ القرآن فكأنه رق له ، فبلغ ذلك أبا جهل ، فأتاه فقال : يا عم إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالاً ، قال : لم ؟ قال : ليعطوكه فإنك أتيت محمداً لتفيد من ماله .

قال الوليد : قد علمت قريش أني أكثرها مالاً ، قال أبو جهل : فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له ، وأنت كاره له . قال الوليد : وماذا أقول ؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم مني بالأشعار ولا أعلم برجز ولا قصيدة مني ، ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذي يقوله شيئاً من هذا ، والله إن لقوله الذي يقول لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله^(١) ، وإنه ليعلو وما يعلى ، وإنه ليحطم ما تحته .

قال أبو جهل : لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه . قال : فدعني أفكر فلما فكر . . قال : هذا سحرٌ يؤثر يآثره عن غيره^(٢) .

(١) طلاوة : رونقاً وحسناً .

مغدق : كثير الماء ، يآثره عن غيره : ينقله عن غيره .

(٢) الحديث رواه الحاكم في المستدرک من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، والقصة =

فنزلت الآيات : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۖ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ۚ وَبَنِينَ شُهُودًا ۚ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ۚ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۚ كَلَّا ۚ إِنَّكَ كَانْتَ لَآيِتِنَا عِندَنَا ۚ سَآزِجُهُمْ صَعُودًا ۚ إِنَّهُمْ فُكْرٌ وَقَدَرٌ ۚ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَرٌ ۚ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَرٌ ۚ ثُمَّ نَظَرَ ۚ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۚ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۚ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ۚ ﴾ (المدثر : ١١ ، ٢٤) .

وهذا أنيس ذهب إلى مكة ثم عاد ، فقال لأبي ذر أخيه : « لقيت رجلاً بمكة على دينك يزعم أن الله أرسله ، قلت : فما يقول الناس ؟ قال : يقولون : شاعر ، كاهن ، ساحر ، وكان أنيس أحد الشعراء . قال أنيس : لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم ، ولقد وضعت قوله على أقراء^(١) الشعر فما يُلْتَمُ على لسان أحد بعدي أنه شعر ، والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون^(٢) » .

ونسلم من سفهائهم من يقول : هو كذب وأساطير ، قال تعالى حاكياً مقالتهم تلك : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ۚ ﴾ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً^(٣) (الفرقان : ٤ ، ٥) .

وفي ذلك يقول سيد قطب : « وأكذب شيء أن يقول كفار قریش هذه المقالة ، وهم يوقنون في أنفسهم أنها الفرية التي لا تقوم على أساس ، فما يمكن أن يخفى على كبرائهم الذين يلقنونهم هذا القول أن القرآن الذي يتلوه رسول الله ﷺ شيء آخر غير كلام البشر وهم كانوا يحسبون هذا بذوقهم في الكلام ، وكانوا لا يملكون أنفسهم من التأثر بالقرآن . ثم هم كانوا يعلمون عن رسول الله ﷺ قبل البعثة أنه الصادق الأمين الذي لا يكذب ولا يخون ، فكيف يتصور منه أن يكذب على الله وينسب إليه قولاً لم يقله !

= مروية بتمامها في كتاب : « تهذيب سيرة ابن هشام » تحقيق عبد السلام هارون - الطبعة الخامسة (٦٠) .

(١) أقراء الشعر : طرده وأنواعه .
(٢) الحديث في صحيح مسلم (من فضائل الصحابة) فضائل أبي ذر رضي الله عنه الجزء السادس عشر - الطبعة الثانية ١٣٩٢ هـ - دار الفكر بيروت .

ولكنه العناد والخوف على مراكزهم الاجتماعية المستمدة من سيادتهم الدينية كان يمنحهم إلى مثل هذه المناورات التي يطلقونها في وسط جمهور العرب الذين قد لا يميزون بين الكلام ولا يعرفون درجته .

وإذا كان هناك من البشر من يملك أن يفترى مثل هذا القرآن بمعاونة قوم آخرين ، فما يمسكهم عن الإتيان بمثله ، مستعينين بأقوام منهم ليبطلوا حجة النبي ﷺ وهو يتحدثاهم به وهم عنه عاجزون «^(١)» .

وفي ذلك يقول الإمام الباقلاني رحمه الله : « إن القوم لم يذهبوا عن الإعجاز ، ولكن اختلفت أحوالهم ، فكانوا بين جاهل وجاحد ، وبين كافر نعمة وحاسد ، وبين ذاهب عن طريق الاستدلال بالمعجزات ، وحائر عن النظر في الدلالات ، وناقص في باب البحث ومختل الآلة في وجه الفحص ، ومستهين بأمر الأديان ، وغاوت تحت حباله الشيطان ، ومقذوف بخذلان الرحمن ، وأسباب الخذلان والجهالة كثيرة ، ودرجات الحرمان مختلفة »^(٢) .

على أن الأمر لم يخل من بعض الادعاءات السخيفة من بعض الأدعياء ممن فسدت أذواقهم واستولى الشيطان على أفكارهم وعشش فيها وباض وفرخ .

فظنوا أن بإمكانهم مجارة كلام الله ومعارضته ، فإذا بهم يأتون بكلام هو ضرب من السفه والتهافت يدل على جهلهم وضلالهم ونزقهم حتى أصبحوا مضرب المثل في الجهل والغباء .

هذا مسيلمة الكذاب يدعي النبوة ، وأنه يوحى إليه ويحاول معارضة القرآن بكلام مسف فيقول : « الفيل ما الفيل ، وما أدراك ما الفيل ؟ له مشفر طويل ، وذنب أثيل ، وما ذاك من خلق ربنا بقليل » .

وتعليقاً على هذا الافتراء وذلك الإسفاف في القول يقول الإمام الخطابي : « فيقال الآن لصاحب الفيل : افتتحت قولك بالفيل وما الفيل ، وما أدراك ما الفيل ؟ فهولت وروعيت ، ثم أخلفت ما وعدت . . وعلى

(١) في ظلال القرآن - سيد قطب - المجلد الخامس - الطبعة العاشرة .

(٢) إعجاز القرآن - للباقلاني - الطبعة الثالثة (٣٠٤) .

ذكر الذنب والمشفّر اقتصرت ، ولو كنت تعرف شيئاً من قوانين الكلام وأوضاع المنطق ورسومه لم تحرف القول عن جهته ، ولم تضعه في غير موضعه ، أما علمت يا عاجز أن مثل هذه الفاتحة إنما تجعل مقدمة الأمر عظيم الشأن ، فائق الوصف ، متناهي الغاية في معناه . .

وأنت علقت هذا القول على دابة يدركها البصر في مدى اللحظة ، ويحيط بمعانيها العلم في اليسير من مدة الفكر ، ثم اقتصرت من عظيم ما فيه من العجب على ذكر المشفر والذنب . .

فما أشبه قولك هذا إلا بما أنشدنيه بعض شيوخنا لبعض نظرائك :
إِنِّي وَإِنِّي ثُمَّ إِنِّي وَإِنِّي إِذَا انْقَطَعَتْ نَعْلِي جَعَلْتُ لَهَا شِئْنًا^(١)
أما الإمام الباقلاني فيقول : « فأما كلام مسيلمة الكذاب وما زعم أنه قرآن فهو أحسن من أن نشتغل به ، واسخف من أن نفكر فيه ، وإنما نقلنا منه طرفاً ليتعجب القارئ وليتبصر الناظر ، فإنه على سخافته قد أضلّ ، وعلى ركاكته قد أزلّ ، وميدان الجهل واسع ! ومن نظر فيما نقلناه عنه ، وفهم موضع جهله ، كان جديراً أن يحمد الله على ما رزقه من فهم وآتاه من علم »^(٢) .

وبعد فإني لا أعتقد أن أي منصف عنده أدنى قدر من معرفة يرى كلام مسيلمة هذا إلا عده ضرباً من السفه والتهافت ، فهو كلام ساقط لا وزن له ولا قيمة ، خالٍ من الفائدة ، سقيم اللفظ ، بغيض التكلف ، كما قال سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه حينما سمع مثل هذا الكلام من قوم مسيلمة : « ويحكم » . إن مثل هذا الكلام لا يصدر عن إلٍّ أي عن إله .
ولقد أرسل رسول الله ﷺ عمرو بن العاص رضي الله عنه إلى البحرين ، فقابل مسيلمة حينئذ في طريقه ، فقال له : إن محمداً أرسل في جسيم الأمور ، وأرسلت في المحقرات ، فقال ابن العاص : اعرض علي الذي تقول : فقال الكذاب : « يا ضفدع بنت ضفدعين ، نقي فإنك نعم ما

(١) بيان إعجاز القرآن - للخطابي - (٦٧) .

(٢) إعجاز القرآن - للباقلاني - الطبعة الثالثة (٣٠٤) .

تنقّين ، لا وارداً تنقّرين ، ولا ماء تكذّرين « (١) .
وبعد ، فهل يخالغ أحداً الشك في ضلال هذا الدعي وتهافت برهانه
ودليله !

فأية بلاغة في هذا الكلام ؟! وأية حكمة فيه ؟!
وهل يتوهم ذو لب أن فيه معارضة للقرآن أو مباراة له على وجه من
الوجوه ؟

كيف وقد صرح الكذاب وهو أعلم بنفسه وبمستوى دعوته وأقواله
أنه أرسل في المحقرات ، وليس أحقر ولا أقل مما صدر منه .
ولولا العصبية القبلية والحمية الجاهلية الهوجاء لما تبعه أحد من
قومه ، فإنه لا يشتبه على عاقل سخفُ كلامه غير أنهم أرادوا بمتابعته منافسة
قريش في زعامة العرب حتى قالوا : « كذاب اليمامة أحب إلينا من صادق
مضر » .

(١) بيان إعجاز القرآن - للإمام الخطابي - الطبعة الثالثة تحقيق محمد خلف الله ، د .
محمد زغلول سلام ص (٥٦) الناشر دار المعارف بمصر .

المتنبي ودعوى معارضته للقرآن

هذا وقد نسب إلى أمير الشعراء في عصره أحمد بن الحسين المتنبي معارضة القرآن بمائة وأربع عشرة عبرة ، ولم يبق منها إلا قوله : « والنجم السيّار ، والفلك الدوار ، والليل والنهار ، إن الكافر لفي أخطار ، امض على سنتك ، واقتف أثر من كان قبلك من المرسلين ، فإن الله قامع بك زيغ من ألحد في دينه ، وضل عن سبيله »^(١) .

وكان المتنبي إذا استوعب في مجلس سيف الدولة ، يذكر له هذا القرآن وأمثاله ، مما كان يُحكى عنه فينكره ويبحده .

وقيل : « إن المتنبي نظر في المصحف ، فدخل عليه بعض أصحابه ، فأنكر نظره فيه لما كان عليه من سوء اعتقاده . فقال : إن هذا المكي على فصاحته كان مفحماً ، وربما اعتقد أن الفصاحة في الشعر أمكن وأبلغ »^(٢) .

والحقيقة أن المتنبي كان أعجوبة الزمان ، ولقد رفع نفسه عن معاصريه معتزلاً أشد الاعتزاز بشخصه .

لقد عاش المتنبي يتغنى بالعروبة ويتمثل سجاياها وأمجادها ، فاندفع ثائراً متبرماً ساخطاً ضدّ الظلم والجور الذي كان يلقاه العرب في ظلّ تسلط العجم .

وتشاء الأقدار ويزج به في السجن في حصص ليملك فيه سنتين ، ثم يخرج من السجن وما تكاد تهدأ تلك النار المشتعلة بين خنايا صدره في ظلّ أمير حلب سيف الدولة الحمداني لم تكد تهدأ ثائرته حتى يُبتلى بخصوم من أقزام الرجال حاولوا النيل منه ومن كرامته ، ودسوا له عند سيف الدولة ، ورموه بالزندقة والإلحاد وادعاء النبوة مشوّهين سمعته ، ولكنه دافع عن نفسه دفاعاً قوياً لم يدع فيه مجالاً لخصومه ومناوئيه .

(١) المتنبي في آثار الدارسين - د . عبد الله الجبوري - منشورات وزارة الثقافة العراقية

١٩٧٨ م (١٢) .

(٢) إعجاز القرآن للباقلاني (١٥٥) .

ولعله من المناسب هنا ذكر بعض ما قيل عن مدى التزام المتنبي
بدينه ، ودفع الأقوال التي دعت البعض إلى اتهامه بادعاء النبوة .
فالأستاذ علي أدهم يقول : « وقد كانت العاطفة الدينية عند المتنبي
ضعيفة في جميع أدوار حياته ، ففي ريعان شبابه يقول :

أَيُّ عَمَلٍ أُرْتَقِي أَيُّ عَظِيمٍ اتَّقِي
وَكُلُّ مَا خَلَقَ اللَّهُ وَمَا لَمْ يَخْلُقْ
مَحْتَقِرٌ فِي هَمَتِي كَشَعْرَةٍ فِي مَفْرِقِي

وفي هذه الأبيات يمتزج الطموح المتطرف وفرط الثقة بالنفس باحتقار
الخليقة بأسرها ، وهي تروى عن شعور رجل أجال بصره فلم ير شيئاً جديراً
بإجلاله ، خليقاً بآماله وطموحات نفسه ^(١) .

ولكن هذا ليس مسوغاً لاتهامه بالكفر والإلحاد ، بل إنه دليل بين على
شعوره بالمرارة والألم القاتل من المحيط الفاسد الذي يحيط به .
والأستاذ عبد الرحمن صدقي يقول : « فاستمع إليه يصف مقامه في

الناس وإرباءه على الأكفاء ، وتميزه عن النظراء بما يجعله صنو الأنبياء :
مَا مُقَامِي بِأَرْضِ نَخْلَةٍ إِلَّا كَمَقَامِ الْمَسِيحِ بَيْنَ الْيَهُودِ
أَنَا فِي أُمَّةٍ تَدَارِكُهَا اللَّهُ بِي غَرِيبٌ كَصَالِحٍ فِي ثَمُودِ ^(٢)
أقول : وليس في هذا تشبه بالأنبياء ، ولا ادعاء أنه صنو الأنبياء ،
فهو لم يشبه نفسه بالمسيح عليه السلام ، وإنما شبه إقامته بين الحاقدين
والحاسدين له بإقامة المسيح بين أشرار الناس اليهود ، بجامع إقامة الخير بين
شرار الناس ، (وهذا لا كفر فيه) .

وفي البيت الثاني يندب حظّه العاثر في كونه يعيش غريباً بين الناس ،
فهو عبقرى فذّ يعيش بين الجهال وأنصافهم ، ولا يسمع منهم إلا زعاف
الافاعي وسم الثعابين ، وربما كان الجهال خيراً من أنصافهم ، وشعوره
بالغربة بين الأشرار شعور رجل منصف ومن الظلم البين أن يقال فيه غير

(١) من كتاب أبو الطيب المتنبي : حياته وشعره - للأستاذ علي أدهم ، مقالة تحت
عنوان « هل كان المتنبي متديناً » ص ٩٠ .

(٢) من كتاب أبو الطيب المتنبي حياته وشعره المرجع السابق للأستاذ عبد الرحمن صدقي
مقالة تحت عنوان « مرض نفسي » ص ٦٢ .

ذلك .

وهو في هذا البيت يشبه غربته بين أمة جاهلة بغربة صالح عليه السلام بين قومه ثمود .

ووجه الشبه غربة رجل مصلح ذكي أبي بين قوم كلهم جحود وغباء .
أما عن معارضة القرآن ، فهذه لم تثبت عن المتنبي حتى عندما قيل له : على من تنبأت ؟

قال : على الشعراء . قيل له : فإن لكل نبي معجزة ، فما هي معجزتك ؟ قال : معجزتي هذا البيت :

وَمِنْ نَكِدِ الدُّنْيَا عَلَى الْمَرْءِ أَنْ يَرَى عَدُوَّ لَهُ مَا مِنْ صِدَاقَتِهِ بُدُّ
وهذا ليس دليلاً على ادعائه النبوة ، وإنما هو لون من التظرف والفكاهة ، علاوة على أن طموح الرجل قد شجع تكاثر الحساد من حوله ، ولا يستبعد أن يكون هناك من دسّ عليه مثل هذا القول ، وإلا فهو أذكى من أن يفكر في لمس الثريا ومعارضة القرآن .

لقد ظلّ المتنبي الشغل الشاغل لكثير من الأدباء والشعراء بحثاً واستقراء واحتذاء ، هذا الشاعر الأبي الذي رفض بعزة نفس وإصرار إلا أن يعيش ويموت وهو يدافع عن أمجاد أمته العربية مكرساً كل قواه لهذا ، متنقلاً في سبيل هذه الأمنية بين البوادي والحضر ، وهو إذ لا يتمكن من تحقيق حلمه هذا إلا أنه يعود إلى مسقط رأسه الكوفة ، وهو يحمل بين جنبيه نفساً تفيض بالعزة والكرامة ، وتعتصر في نفس الوقت ألماً على رغبة لم تتحقق^(١) .

(١) كان المتنبي يمني النفس بولاية يسترد بها مجد العرب وتراثهم الغابر ، يصف هذا الثعالبي فيقول : « وما زال في بُرد صباه إلى أن أخلق برُدُ شبابه ، وتضاعفت عقود عمره يدورُ حبّ الولاية والرياسة في رأسه ، ويظهر ما يضر من كامن وسواسه ، في الخروج على السلطان ، والاستظهار بالشجعان ، والاستيلاء على بعض الأطراف » .

يتيمة الدهر - للثعالبي - الجزء الأول - الطبعة الأولى (١٣) ١٩٧٩ م .
بيد أن هذه الأمنية لم تتحقق للمتنبي ، فلم يكن الحال في مصر وفي بلاط كافور بأحسن منه في بلاط سيف الدولة . . وهكذا حتى وافته المنية على يد فاتك الأسدي =

وهنا يصطدم بفاتك الأسدي ، ويقتل أبو الطيب المتنبي ، وتطوى
صفحة من صفحات الإباء والشمم عن شاعرنا الكبير أبي الطيب
المتنبي (الذي ملأ الدنيا وشغل الناس) .

= رحمه الله .

هذا وقد ولد المتنبي كما يذكر المؤرخون بالكوفة سنة ٣٠٣ هـ في محلة تعرف
بكندة بها ثلاثة آلاف بيت من بين رواء ونساج ، واختلف إلى كتاب فيه أولاد
أشراف الكوفة فكان يتعلم دروس العلوية شعراً ولغة وإعراباً ، فنشأ في خير
حاضرة وقال الشعر صبيّاً .

انظر الواضح في مشكلات شعر المتنبي لأبي القاسم الأصفهاني (٦) .

المعري في دعوى إلحاده ومعارضته للقرآن

أما فيلسوف الشعراء أحمد بن سليمان المعري فقد قيل عنه مثل ما قيل عن المتنبي ، قيل إنه عارض القرآن في كتابه الفصول والغايات ، فقال : « أقسم بخالق الخيل والريح الهابة بليل . ما بين الشرط ومطالع سهيل . إن الكافر لطويل الويل ، وإن العمر لمكفوف الذيل . وإياك ومدارج السيل . وعليك التوبة من قبيل تنج وما إخالك بناج »^(١) .

وقد قيل له : إن هذا كلام جيد وليس عليه طلاوة القرآن ، فقال : حتى تصقله الألسن في المحاريب أربعمئة^(٢) ، وعند ذلك انظروا كيف يكون !؟

ولعل قوله هذا من أبرع الأكاذيب على اختلاف العصور ومر الدهور . . .

وفي عقيدة أبي العلاء خلط كثير ، وكل ذلك نتيجة الظروف التي عاشها أبو العلاء وإغراقه في الفلسفة التي أفسدت عليه كثيراً وجعلته يعيش مضطرباً ، إذ كثر في عصره الزنادقة والملحدون وأصحاب النحل الفاسدة والأهواء المضللة .

وفي ظل هذا كله تعثرت خطوات أبي العلاء ، فتارة ينحرف وتارة يعتدل ، ومرة يهتدي وأخرى يضل ، كل هذا لأنه نزع متزع الفلاسفة في الاحتكام إلى العقل المجرد وحده دون أن يدعمه بسلطان من قوى الحق المنزل من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

يقول الإمام ابن الجوزي رحمه الله : « وقد رأيت للمعري كتاباً سماه : « الفصول والغايات » يعارض به السور والآيات ، وهو كلام في

(١) الفصول والغايات في تمجيد الله والمواعظ - للمعري - ضبطه وفسره غريبه محمود حسن زناتي - الجزء الأول - التوزيع والنشر المكتب التجاري للطباعة - بيروت (٢٥٣/ ٢٥٤) .

(٢) ويعني بالأربعمئة : الوقت الذي عاشته الدعوة الإسلامية حتى عصره في القرن الرابع الهجري .

نهاية الركافة والبرودة ، فسبحان من أعمى بصره وبصيرته . . . » .
ثم يقول : « وكان ظاهر أمره يدل على أنه يميل إلى مذهب البراهمة ،
فإنهم لا يرون ذبح الحيوان ، ويحددون الرسل » .
والواقع أن الذين رموا أبا العلاء بالزندقة والإلحاد هم صادقون ،
لأنهم رأوا جانباً واحداً من شخصيته المزدوجة ، ولم ينظروا إلى الجانب
الآخر .

فمن قال : إن أبا العلاء ملحد وكافر فقد صدق ، لأن حكمه حينئذ
واقع على إحدى شخصيتي أبي العلاء اللتين تعيشان في كيانه ، غير ملتفت
إلى أبي العلاء الآخر الذي يعيش في كيانه أيضاً .
ومن قال : إن أبا العلاء مؤمن أوثق الإيمان بالله وبرسله وبكتبه ،
وكل ما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب ، فقد صدق ، لأن حكمه واقع
على الشخصية الأخرى من أبي العلاء .
هذا أبو العلاء يقول :

ضَحَكْنَا وَكَانَ الضَّحْكُ مِنَّا سَفَاهَةً وَحُقَّ لِسَكَّانِ الْبَرِيَّةِ أَنْ يَبْكُوا
تَحَطُّمْنَا الْأَيَّامُ حَتَّى كَانْنَا زَجَاجٌ وَلَكِنْ لَا يُعَادُ لَنَا سَبْكُ
فهذه زندقة وإلحاد ظاهران ، ثم يعود ليقول :
خُلِقْتُ أُمَّةً لِلْبَقَاءِ فَضَلَّتْ أُمَّةٌ يَحْسِبُونَهُمْ لِلنَّفَادِ
إِنَّمَا يُثْقَلُونَ مِنْ دَارِ أَعْمَا لِإِلَى دَارِ شِقْوَةٍ أَوْ رَشَادِ
حقاً إنها شخصية مضطربة أشد الاضطراب ، ففي الوقت الذي ينكر
فيه البعث في بيته السابقين يعود لإثباته في بيته اللاحقين .

على أنه قد يدافع عن أبي العلاء في بيته الأولين بأنه لا يقصد إنكار
البعث بعد الموت ، وإنما يقصد أن عوامل الهدم للإنسان في حياته قد تقضي
على معنوياته نهائياً ، كالزجاج إذا تحطم لا يمكن أن يعود كما كان .
وهو الذي يقول :

فِي السَّلَاقِيَةِ فِتْنَةٌ مَا بَيْنَ أَحْمَدَ وَالْمَسِيحِ
كُلٌّ يَعِزُّزُ دِينَهُ يَأْلِيَتْ شِعْرِي مَا الصَّحِيحُ
ألا يعلم المعري ما الصحيح وهو الباحث المطلع ، ولكنه الهوى

والعياذ بالله ، وقد يكون له في تقديمه الشك على اليقين ما يدفعه إلى مثل هذا ، فإذا ما اقتنع ، وهذا ما حصل منه في آخر حياته ، عاد إلى اليقين فقال تلك الآيات التي تشهد بإيمانه والتي تعجّ بها كتبه . .

فالأقوال السابقة وأمثالها كانت داعية إلى أن يتّهمه بعضهم ، ليس بالزندقة فحسب ، بل إنه قد تجرّأ على كتاب الله وحاول معارضة القرآن الكريم .

وهناك في الاتجاه المقابل ما يبعد شبهة الكفر والزندقة عن أبي العلاء ، ومن آياته التي تدلّ على إيمانه قوله :

إِنْ غَفَرَ اللَّهُ فَلَا أَسْفَ عَلَى فَائِتٍ مِنْ تَنْعِمَهَا
وهو إذ يصرح بطلب المغفرة ويبين عن اعتقاده يقول :

وَلَيْسَ اعْتِقَادِي خُلُودَ النُّجُومِ وَلَا مَذْهَبِي قَدَمَ الْعَالَمِ
ويقول مخاطباً الليالي :

خَلَّصِينِي مِنْ ضَنْكِ مَا أَنَا فِيهِ وَأَطْرَحِينِي لِمُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ
هذا وما ينبغي الإشارة إليه أن من الواجب على الباحث قبل اتهامه لأبي العلاء بالزندقة والمروق عن الدين أن يستقريء أشعاره استقراءً دقيقاً حتى لا يتورط في الخطأ ، وبخاصة أن المسألة تمسّ دين الرجل وعقيدته .

ولا نرتاب في أنه لو تَرَيث هؤلاء الباحثون بعض التريث وأعادوا النظر في أشعار أبي العلاء لعدلوا عن تهمتهم ، أو على الأقل لحففوا من حدّتها ولم يصوغوها صياغة الجزم واليقين .

ويوضح ذلك من بعض الوجوه أن نراهم يتمثلون له في الهجوم على الديانات بقوله :

أُمُورٌ تُسْتَخَفُّ بِهَا حُلُومٌ وَمَا يَدْرِي الْفَتَى لِمَنِ الثُّبُورُ
كِتَابُ مُحَمَّدٍ وَكِتَابُ مُوسَى وَإِنْجِيلُ ابْنِ مَرْيَمَ وَالزَّبُورُ
وكانهم يظنون أن البيت الثاني تفسير للأُمُور التي تستخف بها العقول

في البيت الأول ، وهو في حقيقته جزء معلق ببقية تالية ، أو هو مبتدأ خبره في البيت التالي له الذي يجري على هذا النمط :

نَهَتْ أُمّاً فَمَا قَبِلَتْ وَبَارَتْ نَصِيحَتُهَا فَكُلُّ الْقَوْمِ بُورُ

والبيتان الثاني والثالث هما موضع استخفاف العقول ، أو بعبارة أدق انصراف الناس عن نصائح هذه الكتب السماوية وما تحمل من إرشاد مما يعرضهم للهلاك والدمار هو موضع الاستخفاف ، فقد ردوا رسالات الرسل وأوامرها ونواهيها ، وسجل عليهم أبو العلاء بذلك البوار والهلاك ، وليس في هذا هجوم على الديانات ولا على الرسل والنبوات ، وإنما هو هجوم على الجاحدين المعاندين للرسل من أهل الضلال ^(١) .

أما ما أثير من أنه قد حاول معارضة المعري للقرآن : فإني أستبعد أشد الاستبعاد معارضة المعري للقرآن وحتى مجرد التفكير فيه ، وذلك لأمر منها :

كثرة حساد المعري حتى إن أحدهم وهو ياقوت يقول : « كان المعري حاراً لا يفقه شيئاً » ^(٢) .

وقد شهد المعري للقرآن يقول : « وأجمع ملحد ومهتد ، وناكب عن المحجة ومقتد ، أن هذا الكتاب الذي جاء به محمد ﷺ كتاب بهر بالإعجاز ، ولقي عدوه بالأرجاز ، ما حذا على مثال ، ولا أشبه غريب الأمثال ، ما هو من القصيد الموزون ، ولا الرجز من سهل وحزون ، ولا شاكل خطابة العرب ولا سجع الكهنة ، وجاء كالشمس اللائحة ، لو فهمه الهضب لتصدع ، وإن الآية منه أو بعض الآية لتعرض في أفصح كلم يقدر عليه المخلوقون ، فتكون فيه كالشهاب المتأليء في جنح غسق ، والزهرة البادية في جدوب ذات نسق » ^(٣) فتبارك الله أحسن الخالقين .

وكفى بهذا حجر يرمي به أبو العلاء في فم المتخرصين عليه ، والمتقدمين به في معركة لم يخضها ولم تنزع نفسه إلى الدخول فيها أبداً . .

على أن المعري أبصر بنفسه وبالكلام الذي يعارضه ، وهو أعجز من معارضة القرآن .

هذا وللعلامة كمال الدين بن العديم رسالة تسمى « رفع التجري عن

(١) البحث الأدبي - د . شوقي ضيف - الطبعة الثانية (٤٣) .

(٢) معجم الأدباء - لياقوت الحموي - الجزء الثالث - الطبعة الثانية ١٩٢٢ م (١٦٩) .

(٣) رسالة الغفران - لأبي العلاء المعري - الطبعة الأولى ١٣٢١ هـ - تصحيح إبراهيم اليازجي (١٥٨ - ١٥٩) .

المعري « ذكر فيها محاسنه وفضائله وحفظه وقوة ذاكرته وأن أشعار الكفر ونحوها منتحلة عليه ، وجعله من أصحاب الكرامات وخوارق العادات .

ويقول : « ومكث في محبسه خمسين عاماً ، ألف فيها المؤلفات ، وكان ذكياً خارق الذكاء حتى إنه كان يلعب بالنرد والشطرنج وكان مرهف الحس إرهافاً شديداً مع ذاكرة حاضرة ، حتى قال عن نفسه « ما سمعت شيئاً إلا حفظته ، وما حفظت شيئاً فنسيته » (١) .

روي أن أحد تلاميذه دخل عليه في وقت خلوة بغير علم ، فسمعه ينشد :

كم بُودرت غادة كعوبُ وعُمُرت أُمها العجوزُ
أحرزها الوالدان خوفاً والقبرُ حرزُ لها حريزُ
يجوزُ أن تبطىء النايَا والخُلْدُ في الدهر لا يُجوزُ
ثم تأوه مرات وتلا : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ
تَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا
تَكَلُمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾ (هود : ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥) .

ثم صاح وبكى بكاء شديداً وطرح وجهه على الأرض زماناً ، ثم رفع رأسه ومسح وجهه وقال : سبحان من تكلم بهذا في القدم ، سبحان من هذا كلامه .

ثم صبرت ساعة ، ثم سلمت عليه فردّ علي وقال : متى أتيت ؟
فقلت : الساعة ، ثم قلت : يا سيدي أرى في وجهك أثر غيظ ؟
فقال : لا يا أبا الفتح ، بل أنشدت شيئاً من كلام المخلوق وتلوت شيئاً من كلام الخالق فلحقني ما ترى (٢) .

(١) رفع التجري عن المعري - لكمال الدين بن العديم .

(٢) من كتاب أبي العلاء رهين المحبسين بين الإيمان والإلحاد - لعبد الكريم الخطيب - الطبعة الأولى (١٢٢) .

بودرت : أي : عجل الله بموتها ، والغادة الحسناء والكاعب : التي برز نهذاها .

أبو العلاء المعري هو أحمد بن سليمان التنوخي المعري شاعر الفلاسفة وفيلسوف الشعراء ولد بمعرة النعمان من أرض الشام سنة ٣٦٣ هـ ، وأصيب بالعمى =

وكيفما كان حال هذه القصة فإنها تصوّر سلطان البيان القرآني على النفوس وفيها بصيص من نور ينعكس على حياة أبي العلاء المعري .

= وهو صغير في الرابعة من عمره ، سافر وارتحل إلى عدد من البلاد واتصل بالفلاسفة الذين أثروا على طريقة تفكيره تأثيراً واضحاً ، وانعكس على حياته فيما بعد ، وتصرفاته فعاش مضطرب التفكير مع تشاؤم ، وسمى نفسه رهين المحبسين (البيت ، والعمى) للزومه إياهما .

قال الشعر وهو في الحادية عشرة من عمره ، يذكر المؤرخون أن تأليفه أُرْبِتَ على مائتي مجلد ، وأن له من الشعر أكثر من مائة ألف بيت فقد معظمها في الحملات الصليبية على بلاد الشام ، على أن ما بين أيدينا من كتبه يدلّ بحق على أنه كان خزانة علم لا تدرك غاية لما فيها .

وملأت شهرته الآفاق ، فتوجهت إلى شيخ المعرة كل الأنظار ، فقصده الطلاب وكاتبه من لم يصل إليه من علماء ووزراء وذوي الرتب .

لبث أبو العلاء على تلك الحال مدة غير قصيرة حتى عراه المرض ولم يمهل أكثر من ثلاثة أيام ، فتوفي نهار الجمعة سنة ٤٤٩ هـ الثالث من شهر ربيع الأول ، فضجت البلاد بتلك الفاجعة ، ووقف على قبره لا أقل من ثمانين شاعراً يرثونه ويودعون فيه (فيلسوف الشعر) .

المستشرقون والقرآن

ومن العجيب حقاً ، والعجائب جمة ، أن نرى رجلاً غير ضليع بالعلوم والمعارف وهو يتصدى للحكم عليها ؟ !
ولكن الأعجب والأدهى أن نرى أعجمياً لا يكاد ينفك عن عجمته ، ولم ينطلق لسانه في العربية انطلاق العاديين من أهلها ولم يزل محكوماً للعجمة في نطقه وفهمه ، ومع ذلك يحاول هذا الدعي أن يتصدّر للحكم وإبداء الرأي في كتاب الله الكريم .

ذلك هو المستشرق اليهودي المجري الأصل « اجنتس جولد تسيهر » يقول هذا اليهودي في تنطع : « لكن حمية النبوة وحدتها أخذت في عظام المدينة والوحي الذي جاء بها تهذاً رويداً رويداً ، حيث أخذت البلاغة في هذا الوحي تصبح ضعيفة شاحبة ، كما أخذ الوحي نفسه ينزل إلى مستوى أقل بحكم ما كان يعالجه من موضوعات ومسائل ، حتى لقد صار أحياناً في مستوى النثر العادي »^(١) .

ويقول أيضاً : « ويجب ألا يفوتنا الإشارة إلى أن القوة الخطابية (في القرآن) أخذت تفتّر حماسها ، برغم استعمال السجع في أجزاء القرآن التي نزلت بالمدينة ، كما في الأجزاء الأخرى المكية »^(٢) .

ثم يقول : « لقد كانت السور الأولى في النزول على الشكل الذي تعود الكهّان القدماء وضع نبؤاتهم فيه ، ولو جاء في شكل آخر لما رضي أي عربي أن يرى فيه قرآناً موحى من الله ، على أن محمداً قد أكد أن جميع ما جاء به من الوحي الإلهي »^(٣) .

وخلاصة قول تسيهر :

١- إن القرآن قد ضعفت بلاغته حين أخذ ينزل بالمدينة ، وهو ما عناه بقوله :

(١) العقيدة والشريعة في الإسلام - لجولد تسيهر - الطبعة الأولى سنة ١٩٤٦ م - (١٤) .

(٢) نفس المرجع ص (١٥) .

(٣) العقيدة والشريعة في الإسلام - لجولد تسيهر - الطبعة الأولى سنة ١٩٤٦ م - (١٥) .

« حيث أخذت البلاغة في هذا الوحي تصبح ضعيفة شاحبة » .

٢ - إن القرآن الكريم قد نزل على سجعات الكهان ، وذلك ليوافق هوى العرب بمكة وهو ما عناه حين يقول : « ولو جاء على شكل آخر لما رضي أي عربي أن يرى فيه قرآناً موحى من الله » .
وهو يريد أن يصل بمقالته هذه إلى نفي الإعجاز عن القرآن وهو ما رمى إليه بقوله : « لقد قرّر محمد نفسه أن القرآن عمل معجز لا يمكن الإتيان بمثله »^(١) .

لقد قرّر محمد بنفسه أن القرآن عمل معجز ، أي : أن القرآن لا إعجاز فيه وليس من كلام الله عز وجل .
لماذا ؟ لأن محمداً هو الذي قرّر أنه معجز وأنه لا يمكن الإتيان بمثله .

هذا هو تسيهر وهؤلاء هم اليهود لم يسلم من افتراءاتهم أنبياءهم !
ولا كتبهم ! ولا الناس من حولهم !
ولتفنيدهم ما جاء به تسيهر نقول : أما من حيث الإعجاز في القرآن فلقد سلم به أرباب اللسان وصناع الكلام والذين هم أقدر على التذوق والمعرفة بهذا القول منه وعنهم على شاكلته .

وأما من حيث أن البلاغة في هذا الوحي أصبحت ضعيفة شاحبة فلا أدري كيف أصبحت ضعيفة شاحبة وهي التي جاءت تحمل في طياتها ما يقض مضاجع الكافرين ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (النساء : ٥٦) .

وليس مجيئها على هذا النمط من مراعاة مقتضى الحال إلا دليلاً واضحاً على صدق بلاغتها ، فإن مراعاة مقتضى الحال من أخصّ معاني البلاغة .

ثم فريضة الجهاد إنما شرعت في المدينة ، ولقد حملت هذه الآيات من القوة البيانية الملتهبة للحماسة ما حل أصحاب رسول الله ﷺ على بذل

(١) العقيدة والشريعة - لجولد تيسهر - الطبعة الأولى (١٥) .

أموالهم ومهجهم رخيصة في سبيل الله .
وأما قوله : « لقد كانت السور الأولى في النزول على الشكل الذي
تعود الكهان القدماء وضع نبواتهم فيه » .

وهنا يبرز سؤال : هل راعى منزل القرآن أن ينزله على حسب صنعة
الكهنة في حديثهم ليفوز برضاء العرب ؟!

وهل نزل القرآن للعرب أم للعالم أجمع ؟!

إن القرآن يزري على الكهنة سجعهم وكفرهم ، والرسول ﷺ
يقول : « أسجعاً كسجع الكهان ؟ » ^(١) ، ومنزل القرآن يقول :
﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ (الطور : ٢٩) .

وقد نص سبحانه على تميز القرآن على ما سواه من كلام ، ككلام
الكهنة والشعراء فقال تعالى : ﴿ فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُمْ لَقَوْلُ
رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ ﴿٤٢﴾
فَنَزَّلْنَا مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الحاقة : ٣٨ ، ٤٣) .

أصبح بعد هذا كله أن يقال : « إن السور الأولى في النزول على
الشكل الذي تعود الكهان ؟ »

إن الذي متع رسوله برجاحة العقل وأنعم عليه بالنبوة وأيده بالذكر
الحكيم وقواطع الآيات ليس كاهناً يلقي نبوءات تذهب أدراج الرياح ؛
إن المباشرة بين القرآن وكلام الكهنة ظاهرة ، فمعانيه تنافي معانيهم ،
وهدايته تنسف ضلالتهم ! وأسلوبه الفذ لا يدانيه بحال من الأحوال
أسلوبهم .

وأحوال رسول الله ﷺ وخصاله على النقيض من أحوالهم وخصالهم
وذاك كله واضح جلي لا يتوقف على تأمل قطعاً ^(٢) .
وأين تسيهر من قول عتبة بن ربيعة وهو يربأ بنفسه أن ينسب القرآن
إلى الشعر أو السحر أو الكهانة يقول : « إني سمعت قولاً والله ما سمعت
مثله قط ، والله ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة .

(١) العقيدة والشرعة - لتسيهر (١٥) .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين الجزء الرابع (٤٠٢) .

يا معشر قريش ، أطيعوني واجعلوها لي ، خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم ^(١) .
ولندع عتبة بن ربيعة ونسمع إلى المستشرق الفرنسي الدكتور مادريش وقد كلفته وزارتا الخارجية والمعارف الفرنسية بترجمة اثنتين وستين سورة من السور الطوال المئين والمفصل التي لا تكرر فيها ، ففعل وقال في مقدمة ترجمته الصادرة سنة ١٩٢٦ م :

« أما أسلوب القرآن فهو أسلوب الخالق جلّ وعلا ، فإن الأسلوب الذي ينطوي على كنه الكائن الذي صدر عنه هذا الأسلوب لا يكون إلا إلهياً ، والحقّ الواقع أن أكثر الكتاب ارتياباً وشكاً قد خضعوا لسلطان تأثيره . . . وأن سلطانه على الثلاثمائة الملايين من المسلمين المنتشرين على سطح المعمورة لبالغ الحد الذي جعل أجنب (المبشرين) يعترفون بالإجماع بعدم إمكان إثبات حادثة محققة ارتد فيها أحد المسلمين عن دينه إلى الآن .
ذلك أن هذا الأسلوب الذي طرق في أول عهده آذان البدو كان نثراً جد طريف ، يفيض جزالة في اتساق نسق ، متجانساً مسجعاً لفعله أثر عميق في نفس كل سامع يفقه العربية ، لذلك كان من الجهد الضائع غير المثمر أن يحاول الإنسان أداء تأثير هذا النثر البديع (الذي لم يسمع بمثله) بلغة أخرى ، وخاصة اللغة الفرنسية الضيقة (التي لا تتسع للتعبير عن الشعور) .

وزد على ذلك أن اللغة الفرنسية ومثلها جميع اللغات العصرية ليست لغة دينية ، وما استعملت قط للتعبير عن الألوهية ^(٢) .

(١) سيرة النبي لابن هشام - تصحيح وتعليق الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد (٣١٤) - الجزء الأول - دار الفكر - بيروت .

(٢) الوحي المحمدي - لمحمد رشيد رضا - الطبعة السادسة (٢٥ - ٢٦) - المكتب الإسلامي .

ولهذا الدكتور الفرنسي نظائر كثر ممن أنصفوا وأنطق الله الحق على لسانهم ، نذكر منهم الأديب اللبناني المعاصر مارون عبود (الذي يشيد بالقرآن ويعلم اعتقاده بإعجاز القرآن ، ومحبه للنبي ﷺ كما أعلن عن تسمية ولده محمداً) .

أيضاً الأديب إبراهيم اليازجي أبلغ كاتب أخرجته المسيحية لا يملك أن يدفع =

وأخيراً فهل بعد قرار فحول القوم وعقلائهم من مسلمين وكتابيين ومشركين قديماً وحديثاً ينخدع أحد بقول تسيهر .

إن هذا اليهودي لم يقصد من كلامه سوى التشكيك والإضلال ، ولم يقصد سوى زعزعة عقيدة المسلمين ، ولكنه هجوم أهوج شرس ينم عن حقد دفين وضحالة في الفكر ، وليست هذه صفات الباحث النزيه وإنما هي الركافة والتجاوز والإسراف في الباطل ، وهذا من طبائع اليهود .

= عن نفسه عقيدة إعجاز القرآن .

والأديب الشاعر نقولا حنا قد تلا القرآن فجذبه إليه وشغل قلبه وفؤاده ، وقذف في أعماق فكره يقيناً راسخاً بأن القرآن هو كتاب الله المعجز ، وأنه يسمو على سائر المعجزات فهو معجزة إلهية خالدة ، وهكذا أعلن هذا الشاعر إسلامه بأسلوب علمي بارع يقول : « قرأت القرآن فأذهلني ، وتعمقت به ففتنتني ، ثم أعدت القراءة فأمّنت .. آمّنت بالقرآن الإلهي العظيم ، وبالرسول من حمله .. النبي العربي الكريم ، أما الله فمن نصرانتي ورثت إيماني به وبالفرقان عظم هذا الإيمان .. وكيف لا أومن ومعجزة القرآن بين يدي أنظرها وأحسها كل حين .. هي معجزة لا كبقية المعجزات .. معجزة إلهية تدل بنفسها عن نفسها ، وليست بحاجة لمن يحدث عنها أو يبشر بها » . من وحي القرآن - لنقولا حنا .

والحديث عن براءة القرآن عن الشعر أمر يطول شرحه ، وقد تصدى له جهابذة أهل العلم والنظر وفندوه .

ونحن تكفيها شهادة الوليد بن المغيرة هنا والحق ما شهدت به الأعداء : « لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر .. والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لغدق ، وإن فرعه لجناة » سيرة النبي ﷺ لابن هشام . فالقرآن ليس بالرجز المزخرف ، ولا الكلام المبني على خيالات وأوهام واهية وصدق القائل : ﴿ وما هو بقول شاعرٍ قليلاً ما تؤمنون ﴾ [الحاقة : ٤١] . وما يعرض للشعراء من خلط قال النبي ﷺ منه براء ، وصدق القائل : ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكرٌ وقرآنٌ مبين ﴾ [يس : ٦٩] ، فما هذا الذي يتلوه النبي ﷺ إلا عظة وهداية وتذكيراً بالله سبحانه . وقرآنًا واضحاً ساطعاً لا يلتبس به الشعر بحال من الأحوال .

وقال تعالى : ﴿ والشعراء يتبعهم الغاؤون ﴾ ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون * وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴾ [الشعراء : ٢٢٤ - ٢٢٦] . وإن أردت مزيد استفاضة في الموضوع فراجع (إعجاز القرآن) للإمام الباقلاني وثلاث رسائل في إعجاز القرآن .

أما المستشرق الفرنسي بلاشير فيقول : « ويحس بالرسالة القرآنية إذن ، إنها تكون بالتحديد من وجه « ما » معجزة تجددت طوال دعوة محمد ﷺ ، ولا يلبث هذا المستشرق بعد ترديده لمزاعم قريش الذين سماهم (المعارضين المكيين) أن يقول عن القرآن : إنه أجمل أثر أدبي كان يمكن تصوّره ، وقال : إن لهذه الميزة تأثيراً حتى على السامع الذي لا ينطق بالضاد (يقصد غير العرب وبخاصة الأوربيين) » .

ثم لا يلبث هذا الرجل أن يشبه القرآن في خبث شديد بالشعر الأصيل مستندلاً بالتلاوة والتجويد والموسيقى للمقاطع اللفظية والحركات ، واستعمال القوافي المنظومة أو المسجعة على حدّ تعبيره .

ثم يقول : « إن القرآن تحفة أدبية رائعة تسمو على جميع ما أقرته الإنسانية وبجلته من التحف » .

والواقع أن الرجل يبدي خلاف ما يضمّر ، وتفوح من كلامه رائحة الخبث والتحامل على القرآن ونبي القرآن ، فهو يريد أن ينسب القرآن للشعر وهذا قد سبقه إليه أبو جهل والوليد بن المغيرة قبل أربعة عشر قرناً من الزمان .

وهو يريد أن يخرج القرآن عن حيز الوحي إلى الإشادة به كتحفة أدبية ..

وهيهات أن تنفصل الهداية المعجزة عن البيان الرائع المعجز في كتاب الله رب العالمين .

الْخَاتِمَةُ

وبعد فلقد تجلى لنا من خلال تطوافنا مع كتاب الله ونحن نضع أيدينا على مناحي الإعجاز فيه أن هذا الكتاب قد بهر بإعجازه ، وسما في بيانه ، وتفرد في أسلوبه .

وكيف لا . . وهو كلام الله رب العالمين ؟

أجل إنه معجز في أسلوبه ، وفي هدايته ، في جدله وحواره ، في حكمه وأمثاله ، في قصصه وتكراره ، وفي كل ما أورده من وسائل التعبير وصور البيان .

وما أروع ما انفرد به هذا الأسلوب من آيات بينات وحجج ناصعات كانت دليلاً على الإعجاز الإلهي الذي أحاط بكل شيء علماً وأحسن كل شيء صنعاً . .

ولقد أبنيت من خلال تتبعي لمواطن الإعجاز في دراستي هذه أن إعجاز القرآن قد تجلى وبدا واضحاً في هدايته التي عبر عنها أسلوبه المعجز البديع .

ففي جانب الزمان كان للهداية القرآنية دورها من خلال دائرة الزمان بأكمله في ماضيه ، وفي حاضره ، وفي مستقبله .

وفي الجانب المكاني تجلّت صور الهداية القرآنية وهي تنبع من مواطنها وأمكناتها فتوحي بأحجامها وأشكالها ومساحاتها بما يمكن أن تعطيه من إحياءات تفيض في النفوس فتثير فيها مختلف المشاعر والأحاسيس .

كما اتضح أيضاً دور الأسلوب القرآني ترغيباً وترهيباً في الهداية والتوجيه .

كذلك في الجانب الأخلاقي تبين دور الهداية المعجزة من

الناحية الاجتماعية والنفسية والمسؤولية التي تمتاز بها الجماعة المسلمة والفردية في إطار هذا التوجيه الأخلاقي البديع .

كما تجلت لنا صور الهداية أيضاً فيما طرقناه من بحوث حول جدل القرآن وأسلوب القسم والمثل فيه .

وما أروع ما انفردت به القصة القرآنية من نواح فنية وخصائص إبداعية كانت دليلاً ومظهراً على الإعجاز الإلهي وحجة ساطعة على الخلائق جمعاء .

أما عن تكرارها فلقد أبنت بأن مقتضى الحال هو الذي جعلها تدور بين التكرار وعدمه .

وأبنت عن سر تكرار الأحداث في القصة القرآنية بأنه طريق من طرق تأكيد المعنى وتثبيته في النفوس مع تلك المظاهر الرائعة والمتنوعة في التعبير القرآني التي فاقت كل مظاهر التعبير عند الناس مهما عظم مستواهم في الفصاحة والبيان .

والحق أن عرض القصة القرآنية بأكثر من أسلوب كان متفقاً كل الاتفاق مع مشارب الناس حتى يتذوق كل قارئ أو سامع لهذه القصة أو تلك حسبما يدركه ذوقه وحسب الاتجاه النفسي الذي يغلب عليه أو يتأثر به .

وتكرار المعنى الواحد بأساليب متعددة وبقوة فائقة لا تخمد ولا تضعف طريق من طرق الإعجاز ودليل على الإبداع الذي لا يسامى .

ومن حيث الوقائع في القصة فإنها لم تكن وليدة التصنع والتعمّل ، وإنما هو تصوير حقيقي حتى لنحسّ بأن حذف حدث من أحداث القصة قد يخل بكيانها .

وفي هذا رد على من ادعى بأن الصنيع البلاغي للقرآن الذي يقوم على تخليص العناصر القصصية من أحداث وأشخاص وأخبار

من معانيها التاريخية ، وجعلها صالحة كل صلاحية لانتشاره :
العواطف والانفعالات حتى تكون العظة والعبرة .

هذا ولم يفتني أن أناقش دعوى المستشرقين وافتراءاتهم على
كتاب الله ، وإثبات أن الهداية المعجزة لم تنفصل أبداً عن البيان
الرائع في كتاب الله سبحانه .

ذلك الكتاب الذي أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم
خبير .

وبعد هذا العرض القائم على التحليل والمناقشة والاستنباط ،
وهو أن جانب الهداية القرآنية مع الأسلوب البياني المبدع هما لبّ
الإعجاز في القرآن الكريم ، وأنهما دليل باهر على أنه ليس في
مقدور البشر أن يصلوا إلى قوته البالغة وإعجازه الفريد .

ففرق بين ربّ خالق حكيم يدبر ويهدي إلى الحق في أروع
بيان ، وبين مخلوق عاجز مهما أوتي من بلاغة الكلام وفصاحة
المنطق وسمو البيان ، فإن فيه مع كل ذلك ضعف البشرية وعجزها
التي تنم عن إنسان له نهاية في التفكير وغاية في الابتكار ومستوى
محدود في القدرة على الإفصاح والبيان .

وصدق الله عز وجل حيث يقول : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس
والجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم
لبعض ظهيراً ﴾ (الإسراء : ٨٨) .

وصلّى الله على صاحب الخلق العظيم سيدنا محمد ، وعلى آله
وأصحابه الأبرار والسادة الأخيار ما غنت الأطيّار وتذكّرت الأذكار ،
وسلم تسليماً كثيراً .



ثبت المصَادِر والمَرَاجِع

- أولاً : القرآن العظيم :
- ثانياً : كتب التفاسير :
- ١ - جامع البيان في تفسير القرآن :
- للإمام الطبري - الطبعة الأولى - المطبعة الكبرى الأميرية
بيولا ق .
- ٢ - صفوة التفاسير :
- للشيخ محمد بن علي الصابوني - الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ - دار
القرآن الكريم - بيروت .
- ٣ - في ظلال القرآن :
- للشهيد سيد قطب - الطبعة العاشرة .
- ٤ - الكشف « عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل »
لجار الله محمود بن عمر الزمخشري .
- ٥ - المنار :
- لمحمد رشيد رضا - الطبعة الثالثة .
- ٦ - المنتخب في تفسير القرآن :
- للشيخ محمد متولي الشعراوي - دار النصر للطباعة والنشر .
- ثالثاً : كتب تبحث حول علوم التفسير :
- ٧ - حاشية الجمل على الجلالين .
- ٨ - منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه :
- للدكتور مصطفى الصاوي الجويني .
- ٩ - منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير

لفهد عبد الرحمن الرومي - الطبعة الأولى - الناشر : مؤسسة الرسالة - بيروت .

رابعاً : كتب السنة :

١٠ - سنن ابن ماجه :

تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي - الناشر : دار إحياء التراث العربي .

١١ - سنن أبي داود :

الطبعة الأولى ١٣٩٤ هـ .

١٢ - سنن الترمذي :

الطبعة الثانية ١٣٩٥ هـ .

١٣ - سنن الدارمي :

الناشر : دار إحياء السنة النبوية .

١٤ - صحيح الإمام محمد بن إسماعيل البخاري :

ملتزم الطبع والنشر مصطفى البابي الحلبي بمصر طبعة ١٣٧٢ هـ .

١٥ - صحيح الإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري

تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي - الطبعة الأولى ١٣٧٥ هـ .

١٦ - مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني :

الناشر : المكتب الإسلامي - بيروت .

خامساً : كتب تبحث حول فن الحديث :

١٧ - فتح الباري بشرح صحيح البخاري :

لابن حجر العسقلاني .

سادساً : كتب السير والتاريخ :

١٨ - تهذيب سيرة ابن هشام :

تحقيق عبد السلام هارون .

١٩ - سيرة النبي ﷺ :

لأبي محمد بن عبد الملك بن هشام - شرح الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد - مطبعة دار الفكر - بيروت .

٢٠ - الكامل في التاريخ :

لعمدة المؤرخين على ابن أبي الكرم بن عبد الكريم الشيباني المشهور بابن الأثير - الطبعة الثانية ١٣٨٧ هـ - دار الكتاب العربي بيروت .

سابعاً : كتب المعاجم :

٢١ - لسان العرب :

لابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري - الناشر : الدار المصرية للتأليف .

٢٢ - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم

لمحمد فؤاد عبد الباقي - دار الفكر - بيروت .

ثامناً - كتب التراجم :

٢٣ - الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة

للحافظ ابن حجر العسقلاني - تحقيق محمد سيد جاد الحق .

٢٤ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب

لأبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي - الناشر : المكتب

التجاري للطباعة - بيروت .

٢٥ - هدية العارفين في أسماء المؤلفين

الناشر : مكتبة المثنى - بيروت ١٩٥٥ م .

تاسعاً : كتب في القصة :

٢٦ - السرد القصصي في القرآن

- لثروت أباطة - الناشر : دار النهضة - مصر .
- ٢٧ - الفن القصصي في القرآن :
د . محمد أحمد خلف الله - الطبعة الرابعة ١٩٧٢ م - الناشر :
مكتبة الأنجلو المصرية .
- عاشراً : كتب بلاغية :
٢٨ - بيان إعجاز القرآن :
لأبي سليمان أحمد بن محمد الخطابي - الطبعة الثالثة .
- ٢٩ - البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات
البلاغية :
د . محمد حسين أبو موسى .
- ٣٠ - أسرار البلاغة :
لعبد القاهر الجرجاني - تحقيق محمد رشيد رضا - طبعة
١٣١٩ هـ - بمطبعة الترقى .
- ٣١ - إعجاز القرآن :
للإمام أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني - تحقيق السيد احمد
صقر - الطبعة الثالثة .
- ٣٢ - إعجاز القرآن والبلاغة النبوية :
لمصطفى صادق الرافعي - الطبعة الثامنة - الناشر : دار الكتاب
العربي - بيروت .
- ٣٣ - سر الفصاحة :
لابن سنان الخفاجي - تحقيق د . عبد الرازق أبو زيد - طبعة
١٩٧٦ م .
- ٣٤ - النكت في إعجاز القرآن :
لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني - تحقيق : محمد خلف الله
أحمد ، د . محمد زغلول سلام - الطبعة الثالثة .

- حادي عشر : كتب في علوم القرآن :
- ٣٥ - الإتقان في علوم القرآن :
- للإمام الجلال السيوطي .
- ٣٦ - البرهان في علوم القرآن :
- لبدر الدين الزركشي - تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم -
- الطبعة الثانية - دار المعرفة - بيروت .
- ٣٧ - التبيان في أقسام القرآن :
- للعلامة شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم
- الجوزية الناشر : دار الكتب العلمية - بيروت .
- ٣٨ - التصوير الفني في القرآن :
- للشهيد سيد قطب - الطبعة الثامنة ١٤٠٣ هـ .
- ٣٩ - التعبير الفني في القرآن :
- للدكتور بكري شيخ أمين - الطبعة الثالثة .
- ٤٠ - دستور الأخلاق في القرآن :
- للدكتور محمد عبد الله دراز - الطبعة الأولى ١٣٩٣ هـ .
- ٤١ - من علوم القرآن :
- د . فؤاد علي رضا - الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ .
- ٤٢ - الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان :
- لابن قيم الجوزية - الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ .
- ٤٣ - القرآن العظيم هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين :
- للشيخ محمد الصادق عرجون - طبعة ١٣٨٦ هـ - الناشر :
- مكتبة الكليات الأزهرية .
- ٤٤ - مباحث في علوم القرآن :
- للشيخ مناع خلیل القطان .
- ٤٥ - المدخل لدراسة القرآن :

- للشيخ محمد أبو شهبة .
- ٤٦ - مشاهد القيامة في القرآن :
- للشهيد سيد قطب - الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ - الناشر : دار الشروق .
- ٤٧ - المعجزة الكبرى القرآن :
- للإمام محمد أبو زهرة - الناشر - دار الفكر العربي .
- ٤٨ - مناهل العرفان في علوم القرآن :
- للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني - الطبعة الثالثة - مطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر .
- ٤٩ - من بلاغة القرآن :
- للدكتور أحمد بدوي .
- ٥٠ - نظرات في القرآن :
- للشيخ محمد الغزالي - الطبعة الخامسة .
- ثاني عشر : كتب أدبية :
- ٥١ - البحث الأدبي :
- د . شوقي ضيف - الطبعة الثانية - دار المعارف بمصر .
- ٥٢ - أبو الطيب المتنبي حياته وشعره :
- بأقلام عدد من الأدباء - الناشر : المكتبة الحديثة للطباعة والنشر - بيروت .
- ٥٣ - أبو العلاء المعري رهين المحبسين بين الإيمان والإلحاد :
- الطبعة الأولى - لعبد الكريم الخطيب .
- ٥٤ - الحيوان :
- لعمر بن بحر الجاحظ .
- ٥٥ - رسالة الغفران :
- لابي العلاء المعري - تصحيح إبراهيم اليازجي - الطبعة الأولى

١٣٢١ هـ .

٥٦ - طه حسين حياته وفكره في ميزان الإسلام :

لأنور الجندى - الطبعة الثانية ١٣٩٧ هـ .

٥٧ - الفصول والغايات :

لأبي العلاء المعري - ضبطه وفسر غريبه محمود حسن زنتي -
الناشر : المكتب التجاري - بيروت .

٥٨ - المتنبي في آثار الدارسين :

للدكتور عبد الله الجبوري - من منشورات وزارة الثقافة العراقية

١٩٧٨ م .

٥٩ - المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر :

لابن الأثير - تحقيق د . أحمد الحوفي - د . بدوي طبانة .

٥٦ - معجم الأدباء :

لياقوت الحموي - الطبعة الثانية ١٩٢٢ م .

٦١ - نظرية الانتحال في الشعر الجاهلي :

د . عبد الحميد المسلول - الناشر : دار القلم - بالقاهرة .

٦٢ - نقد كتاب في الشعر الجاهلي :

للأستاذ فريد وجدي .

٦٣ - نقض كتاب في الشعر الجاهلي :

للسيد محمد الخضر حسين - المكتبة العلمية - بيروت .

٦٤ - الواضح في مشكلات شعر المتنبي :

لأبي القاسم الأصفهاني .

٦٥ - يتيمة الدهر :

للشعالي - الطبعة الأولى ١٩٧٩ م .

ثالث عشر : كتب ثقافية :

٦٦ - إعلام الموقعين :

- للإمام ابن قيم الجوزية .
- ٦٧ - الأمثال من الكتاب والسنة :
- للحكيم الترمذي - تحقيق محمد علي البجاوي .
- ٦٨ - حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة :
- للسيوطي .
- ٦٩ - روضة المحبين ونزهة المشتاقين :
- للإمام ابن قيم الجوزية .
- ٧٠ - سيد قطب خلاصة حياته ومنهجه في الحركة والنقد الموجه إليه
- لمحمد توفيق بركات .
- ٧١ - العقيدة والشرعة في الإسلام :
- لجولد تسيهر - الطبعة الأولى ١٩٤٦ م .
- ٧٢ - قصة الحضارة : لول ديورانت .
- ٧٣ - كفاحي : لهتلر .
- ٧٤ - الوحي المحمدي : لمحمد رشيد رضا .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٧
الخطة	٩
التمهيد	١٣
الباب الأول : الآراء حول قضية الإعجاز في القرآن	٢١
الفصل الأول : الأقدمون وقضية الإعجاز	٢٢
تعريف بالإمام ابن قيم الجوزية	٢٣
ابن القيم وتناوله لقضية الإعجاز	٢٤
تعليق على الإمام ابن قيم الجوزية	٣٢
تعريف بالإمام الزركشي	٣٣
الإمام بدر الدين الزركشي وتناوله لقضية الإعجاز	٣٥
تعليق على الإمام بدر الدين الزركشي في الإعجاز	٣٩
الفصل الثاني : إعجاز القرآن في آراء المحدثين	٤١
تعريف بسيد قطب	٤٢
سيد قطب ورأيه في الإعجاز	٤٣
الجانب التطبيقي في دراسة سيد قطب للإعجاز البياني	٤٨
تعليق على ما ارتآه سيد قطب في الإعجاز	٥١
تعريف بالشيخ محمد متولي الشعراوي	٥٣
الشيخ محمد متولي الشعراوي ورأيه في الإعجاز	٥٤
الجانب التطبيقي لدى الشيخ محمد متولي الشعراوي	٥٩
تعليق على ما ارتآه الشيخ محمد متولي الشعراوي	٦٧
الفصل الثالث : من دراسات المحدثين حول الإعجاز في القرآن الكريم	٦٨
تعريف بالشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني	٦٩
الشيخ الزرقاني ونظرته للإعجاز في كتاب مناهل العرفان	٧٠
تعريف بالشيخ محمد الصادق عرجون	٧٩
الشيخ محمد الصادق عرجون ونظرته للإعجاز في كتابه : « القرآن العظيم	

٨١	هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين *
٩١	الباب الثاني : المنهج القرآني في الهداية والتوجيه
٩٢	الفصل الأول : عنصر الزمان في توجيهات القرآن
٩٣	الزمن الماضي في توجيهات القرآن
٩٧	الزمن الحاضر في توجيهات القرآن
١٠١	المستقبل في توجيهات القرآن
١٠٥	الفصل الثاني : عنصر المكان في الهداية والتوجيه
١٠٦	الكعبة بيت الله ودورها في الهداية والتوجيه
١٠٩	مهبط الوحي ودار الهجرة ودورهما في الهداية والتوجيه
١١٢	المساجد ودورها في الهداية والتوجيه
١١٥	الجبال
١١٧	البحر
١١٩	القرى
١٢٣	الجنة والنار
١٢٧	الفصل الثالث : الهداية القرآنية بين أسلوب الترهيب والتوجيه
١٣٩	الفصل الرابع : الجانب الخلقي في أسلوب القرآن الكريم
١٤٠	تقديم
١٤٣	من الجوانب الخلقية في توجيهات القرآن الكريم
١٤٥	من الجوانب الاجتماعية في توجيهات القرآن الكريم
١٥٣	بين الراعي والرعية في توجيهات القرآن الكريم
١٥٥	توجيهات قرآنية في معاملة غير المسلمين
١٥٦	الحقوق المطالب بها المجتمع الإسلامي في حالة السلم والحرب
١٥٨	توجيهات خلقية فريدة تنفرد بها سورة الحجرات
١٦٧	الباب الثالث : الإعجاز البياني في أسلوب القرآن
١٦٨	الفصل الأول : أسلوب الجدل والحوار
١٦٩	تقديم
١٧١	أسلوب الجدل في القرآن
١٧٥	من أنواع الجدل السبر والتقسيم
١٧٧	من أنواع الجدل التسليم الجدلي

من أنواع الجدل مجارة الخصم ليعثر بأن يسلم بعض مقدماته حيث يراد تبكيته وإلزامه	١٧٨
من أنواع الجدل المناقضة	١٧٩
من أنواع الجدل الاستدلال برد المسائل إلى أمور بدئية	١٨٠
من أنواع الجدل الإسجال	١٨٠
من أنواع الجدل حمل لفظ وقع من كلام الغير على خلاف مراده	١٨١
من أنواع الجدل ما كان مبناه الحذف والإيجاز	١٨٢
أسلوب الحوار في القرآن	١٨٣
من أمثلة الحوار في القرآن الكريم	١٨٣
الحوار بين موسى عليه السلام وفرعون	١٨٣
الحوار بين جبريل عليه السلام والسيدة مريم	١٨٨
الفصل الثاني : القسم في أسلوب القرآن	١٩٠
تقديم	١٩١
مفهوم القسم	١٩٢
أركان القسم وأنواعه	١٩٨
شبه حول القسم في القرآن الكريم	٢٠٠
نماذج لأسلوب القسم في القرآن الكريم	٢٠٤
الفصل الثالث : الأمثال في أسلوب القرآن	٢٠٦
تعريف المثل	٢٠٧
الأمثال في القرآن الكريم ومعناها	٢٠٩
شروط المثل	٢١٢
خصائص الأمثال القرآنية	٢١٢
القيمة البيانية للأمثال القرآنية	٢١٣
صور المثل في القرآن الكريم	٢١٦
نماذج من الأمثال القرآنية	٢٢٠
الفصل الرابع : أسلوب القصة في القرآن الكريم	٢٢٣
تقديم	٢٢٤
نموذج للقصة الطويلة في القرآن قصة يوسف عليه السلام	٢٢٧
نموذج للقصة القصيرة في القرآن قصة الخليل ورؤيا ابنه الذبيح	٢٣٢
نموذج للقصة ذات اللمحة الخاطفة في القرآن	٢٣٤

٢٣٥ نموذج للقصة الحوارية
٢٣٩ القصة القرآنية بين التوحد والتكرار
٢٣٩ القصة التي لم تكرر
٢٤٠ القصة التي كررت
	الفصل الخامس : الصور البيانية في أسلوب القرآن الكريم
٢٤٣ التشبيه - الاستعارة - الكناية
٢٤٤ تقديم
٢٤٥ من صور التشبيه في القرآن الكريم
٢٥٢ من صور الاستعارة في القرآن الكريم
٢٦٠ من صور الكناية في القرآن الكريم
٢٦٥ الباب الرابع : الأسلوب القرآني بين حقائق الإعجاز وشبه المبطلين
٢٦٦ الفصل الأول : أباطيل وشبهات حول أسلوب التكرار في القرآن الكريم
٢٦٧ ظاهرة التكرار في آيات القرآن الكريم
٢٨٠ ظاهرة التكرار في قصص القرآن الكريم
٢٨٧ الفصل الثاني : أباطيل وشبهات حول أسلوب القصة في القرآن الكريم
٢٨٨ أباطيل حول القصص القرآني
٢٨٩ مناقشة للدكتور طه حسين في كتابه : « الشعر الجاهلي والرد عليه »
	مناقشة للدكتور محمد أحمد خلف الله في كتابه : « الفن القصصي في
٢٩٢ القرآن الكريم » والرد عليه
	مناقشة للمستشرق اليهودي المجري أجتس جولد تسيهر في كتابه « العقيدة
٢٩٦ والشرعة في الإسلام » والرد عليه
	الفصل الثالث : أباطيل القائلين بالإعجاز بالصرفة في أسلوب القرآن والرد
٣١٣ عليهم
٣١٤ آراء القائلين بالإعجاز بالصرفة والرد عليهم
٣١٤ الجاحظ ورأيه في الصرفة
٣١٥ النظام ورأيه في الصرفة
٣١٥ ابن سنان الخفاجي ورأيه في الصرفة
٣١٦ تنفيذ أقوال القائلين بالصرفة مع الرد عليهم
٣٢٠ الإمام الخطابي يدفع القول بالصرفة ويرد عليه

الإمام الزركشي يدفع القول بالصرقة ويرد عليه	٣٢١
الإمام ابن قيم الجوزية يدفع القول بالصرقة ويرد عليه	٣٢١
كلمة فيما يترتب على القول بالصرقة	٣٢٤
الفصل الرابع : أباطيل القائلين بإمكانية المعارضة في أسلوب القرآن الكريم	
مع الرد عليهم	٣٢٥
تقديم	٣٢٦
تفنيد كلام مسيلمة الكذاب في تفاهة ما قال	٣٢٨
المتنبي ودعوى معارضة القرآن	٣٣١
المعري في دعوى إلحاده ومعارضته للقرآن	٣٣٥
المستشرقون والقرآن	٣٤١
المستشرق اليهودي المجري اجنتس جولد تسيهر في حقه وافتراءه على	
القرآن والرد عليه	٣٤١
المستشرق الفرنسي النصراني بلاشير في حقه وافتراءه على القرآن الكريم	
والرد عليه	٣٤٦
الخاتمة	٣٤٧
ثبت المصادر والمراجع	٣٥٣
فهرس الموضوعات	٣٦٣

